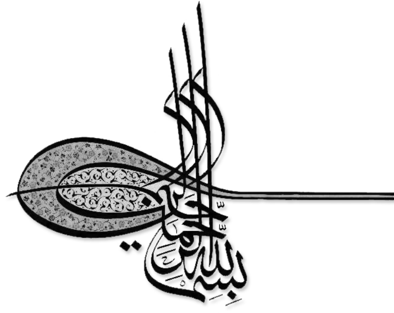


من بستان المثنوي

قربة ماء

عثمان نوري طوبّاش

دار الأرقم



إسطنبول: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

إسطنبول: ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م
إسم الكتاب باللغة التركية: Mesnevî Bahçesinden BİR TESTİ SU
إسم الكتاب باللغة العربية: من بستان المثنوي/ قربة ماء
الترجمة للعربية: رياض أحمد العلو.
مراجعة وتصحيح وتدقيق: أرسين إشجي أوغلو/ فاطمة إشجي أوغلو.
تصميم وتنضيد: حسام يوسف
ISBN: ٩٧٨٦٠٥٣٠٢٥٧١٩
Language: Arabic

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi / Atatürk Bulvarı
Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C . Başakşehir - İstanbul / TURKEY
Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)
Fax : +90 212 671 07 48
E-mail : info@islamicpublishing.org
Web site : www.islamicpublishing.org

من بستان المثنوي

قربة ماء



عثمان نوري طوباش

دار الأرقم

يقول الله ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾

(الأنبياء: ١٠٥)

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

(يونس: ٦٢)

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...﴾

(يونس: ٦٤)

يقول رسول الله ﷺ:

"إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر".

(الترمذي، العلم، ١٩؛ أبو داوود، العلم، ١)

يقول الإمام الغزالي رحمه الله:

"ورثة الأنبياء علماءُ الظاهر والباطن".

ورد عن مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله قوله:

"يا رب! إن كان لا يرجو رحمتك إلا الصالحون، فإلى من يلجأ المجرمون؟"

"يا رب! إن كنت لا تقبل إلا الخواص من عبادك، فإلى من يذهب المذنبون؟.. (يا أرحم الرحمين)"

"إنني خادمٌ للقرآن ما دامت هذه الروح في هذا الجسد، وذرة غبار في طريق المصطفى المختار ﷺ... ومَن نقلَ عني غير ذلك فإني براء منه ومن قوله..."

تقديم

أيها القراء الأعزاء!

إن مَثَل الأحاسيس والمشاعر والأفكار التي تتحول في الذهن إلى كلمات ثم تنسكب في سطور الكتب كمَثَل باقة زهور مقدمة إلى حشد غفير متلون الأذواق والطباع، فيهم الفظ والجلف والأبله، وفيهم النبيه والحاذق والمرهف الحس. ومن المحال توقع مدى استئناس هؤلاء المخاطبين الذين تختلف قدراتهم العقلية والفكرية والإدراكية والحسية مع باقة المشاعر والأفكار تلك.

إن هذه الحقيقة تعرض لنا الأهمية النسبية للأمور المنقولة بالسطور بحسب مواصفاتها. إذ قد لا يُلقى بال لأطنان من الحجارة والصخور التي تُرمى أو تتساقط في الوديان والمستنقعات، ولكن في الوقت ذاته لا يُتصور أن يكون هناك وجدان وذهن لا يحرك ساكناً إذا ما سقط غرام واحد من الذهب على الأرض!

لهذا فإن قسماً من الحقائق السامية يبقى مجهولاً جهالة مطلقة لكل من لم يُفتح عليه ويُكرَم به، لأن القوالب الضيقة للألفاظ والمفردات الشائعة لدى العوام عاجزة عن احتوائها والإحاطة بها. وانتقال مثل هذه الحقائق وسريانها بين أصحاب الفطرة والطبائع الفريدة يكون بشرارة روحانية.



ولكن جميع الناس من الخواص والعوام في خط منفصل، وتوجيه النصح والإرشاد لهم بما يؤدي إلى عمارة دنياهم وآخرتهم هو السلوك المشترك اللازم لكل من أوتي حظاً عظيماً. فهؤلاء قد أدركوا ما لم يدركه الآخرون، فسعوا لتقديم «قربة ماء» من بحر الأسرار الربانية، ليكون ذلك زكاةً لما أوتوا من علم.

أيها القراء الأعزاء!

لا بد من تلقي «قربة الماء» المقدمة إليكم كما لو أنها مستعارة من «بستان المثنوي» على ضوء المعايير المعروضة في الأعلى! فهي ملك المؤلف الخاص به! ولا شك أن المؤلف طاف في «بساتين المثنوي»، وغيرها من البساتين الأخرى، ثم عاد إليكم ومعه «قربة ماء». ولكن الماء الذي في القربة مال أميري لا يمكن لأحد حصره بنفسه، وجعله ملكاً شخصياً له. والمال الأميري ملك مشترك لأصحاب الهمة العالية والحظ السامي! وإذا ما تم النظر وفقاً لهذا المعيار فمن اليسير إدراك أن إضافة المؤلف كتابه إلى مولانا جلال الدين الرومي والمثنوي كان من منطلق التأدب فحسب!..

أقدم في الختام للمؤلف فائق التهنئة والاحترام، وأتضرع إلى العلي القدير أن يكرمه ببركة الخيرات التي سيكون هذا الكتاب القيِّم سبباً لها.

قدير مصر أوغلو

٩ رمضان ١٤١٦

٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٦

مُقَدِّمَة

الطبعة الجديدة

لا يتوانى المؤلفون والناشرون بصورة عامة عن نقل الاهتمام والحفاوة التي تحظى بها كتبهم إلى قرائهم، وذلك من خلال الطبعات الجديدة لتلك المؤلفات. ويختلف الدافع إلى هذا الأمر من شخص إلى آخر، فمنهم من يلجأ إلى ذلك لزيادة مبيعات كتبه، ومنهم من يفعل ذلك للترويج لأفكاره، ومنهم من يكون الدافع لديهم أدب شكر النعمة.

ونحن بدورنا نود القول اتباعاً لهذه العادة المتبعة: لقد حظي كتابنا هذا بالاهتمام والإقبال الكبير، فقد كان وسيلة لإنارة قلوب قرائنا الأعزاء بالومضات النورانية المنعكسة من سماء روحانية أهل القلوب وعلى رأسهم مولانا جلال الدين الرومي الذين بلغوا آفاق الوجدان والفؤاد، ووصلوا للعمق الروحي الباطني والظاهري لديننا السامي. وبلطف وكرم من الله تبارك وتعالى نفدت النسخ المطبوعة منه في زمن قصير قياسي، وأعيد طبعه مرة أخرى، إضافة إلى ترجمته إلى لغات أجنبية كثيرة مثل: الأذربيجانية، والأوزبكية، والكازاغية، والقرغيزية، والروسية، والصينية، والإنكليزية، والألمانية، والمجرية.

وأود بهذه المناسبة أن أقول: إن الاهتمام والإقبال الذي شهده هذا الكتاب يعود إلى الظروف المكانية والزمانية التي نُشِرَ فيها أكثر من قيمته الذاتية. فلو كان من شأن الظروف التي نُشِرَ فيها كتاب ما الترويج للأفكار التي يتضمنها، فإن الاهتمام يكون كبيراً بالقدر



الذي تستوجبه تلك الظروف. فمثلاً كانت خصوصية الزمان سبباً في شهرة كبار المتصوفين أمثال مولانا جلال الدين الرومي ويونس أمرَه وغيرهما الذين عاصروا ونشأوا خلال الأحداث المروعة والأليمة للاحتلال المغولي للأناضول والذي هز النظام الاجتماعي فيها. إذ كان الناس بسبب الاحتلال المغولي للبلاد يجدون في خصائص التصوف المتمثلة بالطمأنينة، والسكينة، والسلام البلسم الشافي الذي يعالج قلوبهم المرهقة والمضطربة.

وكذلك فإن أجلى دليل وبرهان على توجه مجتمعنا اليوم الذي يعيش ظروفاً مشابهة إلى الأفكار التصوفية انطلاقاً من حاجة روحية- على الرغم من محاولات الأفواه والأقلام المسمومة تشويه صورتها وإلصاق كافة التهم بها- هو الاهتمام والإقبال الكبير الذي حظيت به الكتب المتخصصة في هذا المجال. وينبغي النظر إلى التأثير والاهتمام الذي حققه كتابنا هذا- إضافة إلى أمثاله- من هذا الجانب.

وقد قمنا بمراجعة هذا الكتاب في طبعته الجديدة، وتدارك الأخطاء الواردة في الطبعة السابقة وتصحيحها، وحاولنا قدر الإمكان تخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي يتضمنها، لنقدمه لقرائنا الأعزاء بتصميم جديد وبما يحقق لهم النفع والفائدة المرجوة.

وما التوفيق والبركة والرحمة إلا من الله تعالى!

عثمان نوري طوبَّاش

١/٦/٢٠٠٨ أُسكدار- إسطنبول

مقدمة الطبعة القديمة

الحمد والشكر لله تعالى الذي رزقنا نحن عباده الضعفاء طمأنينة الإيمان!

والصلاة والسلام على فخر الكائنات الذي كان وسيلة لإخراج البشرية من ظلمات الجهل إلى أنوار الإيمان!

نسأل الله العلي القدير أن يهب قلوبنا من النسائم الروحية للصحابة الكرام والأولياء الصالحين الذين سيكونون مرشدين لكافة المؤمنين إلى الصراط المستقيم، وأن يكرم قلوبنا بقطرات ندية فياضة من روحانياتهم الواسعة! آمين.

C

أما بعد:

فلا ريب أن المثنوي الشريف الذي خطَّه مولانا جلال الدين الرومي بمشاعر من العشق والوجد الفياض قبل أكثر من سبعمئة عام قد تربع على عرش القلوب منذ ذاك اليوم كتاباً روحانياً خالداً.

وكما أن الفؤاد لا يبلى ويتفسخ تحت التراب، فإن آثاره كذلك تبقى قائمة إلى الأبد لا تزول. وأهل القلوب يعيشون بيننا ماضين في تقديم خدماتهم لنا وهم في عالم البرزخ، فأعمارهم أطول بكثير من أعمار الذين لا يزالون على قيد الحياة في هذه الدنيا. وحتى إن



تحولت أبدانهم الفانية تراباً فإن آثار قلوبهم تبقى على قيد الحياة إلى يوم القيامة.

إن لقاء الله تعالى بهذا الحظ الروحي الوفير لا يكون إلا للخواص من عباد الله الذين سلموا أمرهم للإرادة الإلهية بفؤاد نبذَ كل المظاهر الدنيوية من أموال وثروات ومتاع وشهرة ومنصب.

وينبغي تناول مولانا وكتاب المثنوي الذي يُعد أثراً من آثار فؤاده انطلاقاً من هذه الصفة.

ويتحدث عبد الرحمن جامي عن مولانا جلال الدين الرومي فيقول:

«ماذا أقول عن أوصاف ذاك الولي الكبير وعلو شأنه؟ إن كتابه المثنوي وحده عالَم روحي لا مثيل له».

والحق أن المثنوي بحر من المعاني والأسرار. وقلما نجد كتاباً مثله يعبر عن حقائق التصوف، ويصف بشكل جميل أخَّاذ رقائقه ومبادئه الروحية. فمولانا يغرس في قلوب قرائه المسائل الصوفية التي يصعب على الفكر البشري استيعابها وإدراكها وفهمها من خلال عبارات روحانية وحكايات مليئة بالعبر والحكم.

يقول شراح المثنوي عند تفسيرهم لابتدائه الكتاب بكلمة (استمع)، بينما ابتداء القرآن الكريم بـ «اِقرأ»، بأن (استمع) تفسير لـ «اِقرأ»، ويجعلون هذا التفسير وفق ما يلي:

«استمع إلى الكلام الإلهي! استمع إلى أسراره! استمع إلى الأسرار الكامنة فيه!».

أي إن المثنوي قطرات الندى المقدمة إلى أهل القلوب من حقائق القرآن الكريم وأسراره.

إن المثنوي عالم قلب مولانا جلال الدين المتحول إلى أبيات شعرية متجسدة في أسطر صفحات الكتاب.

والمثنوي رسالة لطيفة جميلة ينقل فيها مولانا الحقائق العظيمة التي توصَّل إليها في رحلته اللدنية التي ابتدأها مع شمس، ومنظومة بما يتوافق مع حاجات عامة الناس ومداركهم.

والمثنوي صرخة من أعماق قلب مولانا جلال الدين. إنه بهذا البكاء والأنين والتأوهات في حال صراخ دائم لأجل شمس الذي فقده، وتعذر بعده العثور على قلب آخر يفرِّج همه وحزنه.

يعرِّف مولانا كتابه المثنوي بقوله:

«المثنوي طريق نوراني للذين يريدون الوصول إلى الحقيقة، والوقوف على الأسرار الإلهية ومعرفتها».

لقد أخذت مدينة قونيا منه أجواءها، وألوانها، وانسجامها، وتماسكها. إنها تتقلب بفيضه منذ سبعة قرون. وكأن مولانا، والمثنوي، وقونيا عبارات مختلفة لمعنى واحد. فعندما يُذكر أحدهم يخطر الآخران في البال على الفور لشدة ارتباط بعضهم ببعض.



لقد أفرغ مولانا رحمه الله رحلة ومغامرة قلبية عايشها وأحس بها في كتاب بشكل تشخيصي، وقدمه هديةً عظيمة للإنسانية جمعاء. وبإمكاننا تلخيص المثنوي ببيتيه اللذين يقول فيهما:

«إذا كنت تمتلك قلباً، فطفْ بكعبة القلب! فالمعنى الحقيقي للكعبة المبنية من الطين والحجارة هو القلب».

«فرض الحق سبحانه وتعالى الطواف بالكعبة المعروفة والمرئية بصورتها كي ينال العبد كعبة القلب المطهرة المنقاة من كل الأدران والسيئات».

المثنوي كتاب مليء بالحكم والأسرار العميقة. إنه كشْف للإنسان، ولوحة مرسومة بكلمات روح الإنسان. فقد تعمق مولانا في روح الإنسان، وشاهد الوجه الداخلي المخفي للإنسان. فالمثنوي إعلان لهذا الاكتشاف والتشخيص.

ويستعرض مولانا في بيته الآتي سر الخلق وعالمه الداخلي بشكل مختصر وجميل فيقول:

«لقد صرت عبداً، صرت عبداً، صرت عبداً...».

«أنا عبد عاجز، واستحييت لما عجزت عن الوفاء بعبوديتي، وطأطأت رأسي...».

«كل عبد تغمره السعادة والسرور عندما ينال حريته. وأنا يا إلهي سعدت بأني صرت عبداً لك...».



هذه العبارات كافية لإظهار شوق العبودية في قلب مولانا جلال الدين الرومي. والله ﷻ قد بيَّنَ بأن الغاية من خلق الإنسان إنما هي العبودية لذاته العلية، وذلك بقوله في كتابه العزيز:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]

C

إن المثنوي حديث بين مولانا جلال الدين ومريده حسام الدين. فبه يبدأ المثنوي، وبه يستمر. وعندما يفترق أحدهما عن الآخر يتوقف الأخذ والعطاء الروحي؛ وينقطع التدفق. وعندما يلتقيان ويتحدان تمتلئ القلوب، وتبدأ الأبيات بالتدفق واحداً تلو الآخر.

لقد كان مولانا رحمه الله بحال صراخ ورثاء لعدم قدرته على سكب الأسرار كما كان يرغب ويتمنى، وذلك بقوله:

«كتبتُ هذا المثنوي وفقاً لحسام الدين!».

ذلك لأنه فقدَ بحر المحبة الذي كان يمثله شمس. فمن يعلم كم من الأبيات الأخرى التي تفشي المزيد من الأسرار كانت ستظهر إلى الوجود، وكم من النغمات والألحان الشجية التي كانت ستصدر لو أن مولانا كتب المثنوي مع شمس.

١ الذاريات: ٥٦.



وكان فريد الدين عطار الذي كان على نهج مولانا يتألم ويعاني الضيق مثله لأنه لم يجد الصاحب الذي يستطيع فهمه وحمل سره. وكأنه من خلال العبارات الآتية يعبر عن حاله وحال مولانا جلال الدين معاً:

«لقد كنت طائراً خفق بجناحيه من عالم الأسرار كي أجد طريدة فأصطادها وأصطحبها معي، ولكني لم أستطع العثور على من يحمل سري ويؤتمن عليه، فخرجت من الباب الذي جئت منه وغادرت».

C

لقد أورد مولانا في المثنوي المئات من الحكايا والقصص المتداخلة، وكان هدفه أن يستخلص الناس منها العبر والدروس عن طريق المحاكمة والقياس. أي إنه جعل الحوادث المجردة التي يصعب على البشر فهمها بمداركهم العقلية مجسدةً بشخصيات ملموسة. وإلا فإن غايته لم تكن أبداً قصَّ الحكايات على الناس. ويعبر عن ذلك بنفسه فيقول:

«المقصود أن تأخذ العبرة من الحكاية وتشعر بها، وإلا فليس الهدف قص حكاية عليك».

لقد كان مولانا جلال الدين الذي قدم نصائحه ووصاياه ومواعظه من خلال الحكايات يرغب أن يفهم القارئ ويدرك الروح والمعنى الحقيقي الكامن في القصص التي يحكيها، فيقول:



«أيها الأخ، إن القصة تشبه المكيال؛ والمعنى الذي تحتويه يشبه الحبوب التي في المكيال... والعاقل من يأخذ الحبوب ولا يلتفت إلى المكيال!»

«استمع إلى ظاهر الحكاية؛ ولكن لا تنسَ أن تفرز الحبوب عن القش!»

«حاشا أن يكون ما كتبته مجرد قصص وحكايات جافة. تأمل وفكر؛ فهذا حالي وحالك اليوم...».

يتبين مما تقدم أن مولانا قدم في الحكايات الكثير من الرسائل والنصائح، ويرى ضرورة عدم التوقف على ظواهر الأمثلة المطروحة، وإنما الغوص فيها وفهم الفكرة الكامنة في جوهرها.

ويبين مولانا رحمه الله في حكاياته وأبياته أن امتلاك قلب متطهر من الأدران لا يمكن إلا بالخضوع للتربية على يد المرشد الكامل الذي يُعد وأمثاله من ورثة الأنبياء. ويرى بأن العبد إن لم يتجاوز عائق النفس ويتغلب عليها، فليس له الارتقاء بالعلم إلى حالة العرفان، والوصول إلى غاية الخلق ومرتبة الإحسان، واكتشاف جوهر ذاته. ويوضِّح بأنه لا بد للوقاية من آفات النفس ورعوناتها بالنظر إلى النفس على أنها «ليست بشيءٍ» أمام العظمة الإلهية، وأنه لا يمكن الخروج في رحلة المعرفة إلا بالقلب والمحبة الإلهية.

يصف مولانا جلال الدين العلم الذي لا يطبق في الحياة، ولا يتحول إلى عرفان بقوله:

«اعلم أن مَثل الحكمة القولية التي لا تطبق، كمثل ثوب جميل مستعار!»

C

كم نحن بحاجة اليوم إلى الرحمة التي نشرها مولانا جلال الدين قبل ما يزيد عن سبعمئة عام. وما أجمل مناجاته إلى ربه القائمة على إحساسه بالمحبة والرحمة والشفقة بالمخلوقات النابعة من حبه للخالق، وذلك عندما يقول:

«يا رب! إن كان لا يرجو رحمتك إلا الصالحون، فإلى من يلجأ المجرمون؟»

«يا إلهي! إن كنت لا تقبل إلا الخواص من عبادك، فإلى من يذهب المذنبون؟»

C

إن ربنا ﷻ قد جعل مولانا جلال الدين وسيلةً ليكرمنا من بستان قلبه الواسع، فكان هذا الكتاب بين أيديكم.

أسأل الله تعالى أن يرحم أستاذي المرحوم عبد القادر أفندي (يامان داده) الذي بثَّ خلال سنوات دراستي هذه اللذة في روحي بشرحه لنا كتاب المثنوي بدموعه أكثر من كلماتهش.

وأسأل ربنا ﷻ أن يرحم الولي الكبير الأستاذ محمود سامي رمضان أوغلو الذي زاد في قلوبنا من محبة أهل الله، والذي جعل قلوبنا بذكر اسمه غارقة في لذة معنوية.

أيها القراء الكرام:

إن محتوى هذا الكتاب المقدم إليكم «من بستان المثنوي» هو «قربة ماء» و«باقة قرنفل حمراء» مقتطفة من بساتين قلوب أهل الله التي هي النبع الشافي لكل داء.

وأتمنى منكم قراءة الفاتحة أولاً على روح منبع النور والأسرار سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم؛ وعلى أرواح أصحابه الكرام، وأرواح جميع الأولياء الصالحين، وأخص منهم سلطان القلوب مولانا جلال الدين الرومي، ونبع الفيوض عزيز محمود هدائي، والسلسلة الذهبية من مرشدينا الذين انتفعنا بروحانيتهم، وأستاذنا الكريم موسى أفندي.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بحسن الخاتمة!

ومن الله التوفيق... آمين!

عثمان نوري طوبَّاش

وقف عزيز محمود هدائي

١ رمضان ١٤١٦/ ٢١ كانون الثاني/ يناير ١٩٩٦

أُسكدار- إسطنبول



حضرة مولانا وشمس، وليلة العرس

«كنت ميتاً؛ فصرت حياً... كنت باكياً دامع العين؛ فصرت ضاحكاً مسروراً... غصت في بحر العشق؛ فوصلت في النهاية إلى المجال الباقي...».

«دلُّوني على عاشق يفيض بالعشق الإلهي ويتضطرب من فيوضات العشق الإلهي في داخله، ويتحول النار إلى رماد من شدة حرارة قلبه، وتنظر السماوات بدهشة وإعجاب إلى الأنوار التي تطفئ أشعة الشمس، فتنادي: ما شاء الله، ما شاء الله!...».

مولانا جلال الدين الرومي

حضرة مولانا، وشمس، وليلة العرس

بعد أن استقر جلال الدين الرومي مع أسرته في قونيا توجه إلى حلب والشام لإتمام تحصيل العلم، وكان وقتها في الثلاثين من عمره.

ذات يوم وبينما كان يمر في سوق الشام المزدحم ناداه رجل بهيئة غريبة، وقال له:

- «دعني أقبل يدك يا صرَّاف العالَم!..».

وانكب على يدي جلال الدين الرومي وقبلها بحرارة وشوق. ثم اختفى فجأة بين حشود الناس. فحارَ جلال الدين الرومي من هذه الواقعة التي تعرَّضَ لها فجأة ودون سابق إنذار. فبقيت علامة الاستفهام والتعجب مرتسمة على وجهه؛ لقد صار هذا الغامض ومجهول الهوية لغزاً له.

وبعد مرور سنوات، وبينما كان جلال الدين الرومي يخرج من الدرس في مدرسته بمدينة قونيا ويتحدث مع تلامذته التقى مجدداً مع ذاك الغامض الذي كان قد جاءه وقبَّل يده في الشام وتركه في



حيرة من أمره. كان هذا الشخص شمس التبريزي. فانضم هو الآخر إلى حديث جلال الدين الرومي مع تلاميذه، ووجه إليه هذا السؤال العجيب:

- «هل أبو يزيد البسطامي أعظم أم محمد ﷺ؟

دُهش مولانا جلال الدين من هذا السؤال، وصاح قائلاً:

- ما هذا السؤال؟ وهل يقاس نبي عظيم ﷺ مبعوث رحمة للعالمين أجمع، بولي كل بضاعته أنه من أتباع ذاك النبي؟!

فأخذ شمس التبريزي دون أن يفقد هدوءه وسكينته بتوضيح سؤاله، فقال:

- إذاً لماذا قال أبو يزيد البسطامي عند ظهور أول تجلٍ إلهي صغير له: «سبحاني ما أعظم شأني» على الرغم أنه كان يطلب من ربه سبحانه وتعالى أن يقذف به إلى جهنم، ويزيد من حجم بدنه حتى لا يبقى فيها مكان لأي مذنب ومجرم؛ أما النبي عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى ربه بكل خضوع وتذلل بالرغم من التجليات العظيمة، ولا يكتفي بالنعم التي يغدقها الله عليه وإنما يطلب منه المزيد؟

وضع هذا السؤال والتوضيح مولانا جلال الدين عند حدود علم الظاهر الذي أنار به عقله. فوجد أنه ليس من الممكن الإجابة عن هذا السؤال بالبقاء عند هذه الحدود. ودفعه شمس بسلاح

الحال إلى الأمام لتجاوز هذه الحدود والانتقال إلى عالم آخر، هذا العالم هو «العالم اللدني» الذي لا نهاية له ولا حدود. وهكذا فإن شمس يكون قد دفع عن طريق صدمة صاعقة بالإنسان الذي يقف أمامه للخروج في رحلة استكشافية إلى آفاق الأجواء الروحانية التي كانت بالأساس موجودة في كيانه ولكنه غافل عنها.

وبتأثير هذا التحول أو التطور اللحظي المفاجئ رد مولانا جلال الدين على السؤال بسهولة وكأنه يسرد إحدى معلومات العلم الظاهري المحفوظة بشكل مسبق، فقال:

- إن قول أبا يزيد «سبحاني ما أعظم شأني!» هو تعبير عن حالة الإشباع لديه. أي إن عطشه الروحي روي بتجل صغير، وتوقف عن طلب المزيد، فهو كأنه سكرَ من شربة واحدة، مع أن حجم البحر كان لا نهاية له، ولكن وعاء استيعابه وإدراكه بهذا القدر.

أما صدر النبي عليه الصلاة والسلام فكان واسعاً فغدا مظهراً لسر قول الله تعالى ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**﴾[٢] وأحاطت به التجليات من كل جانب. وإن صدره الرحب الواسع سعة الكون لم يكن يعرف الارتواء بشكل من الأشكال. كان إذا انقطع عنه الماء يعطش، وإذا شرب زاد عطشه أكثر. كان في كل لحظة يرتقي من حال إلى

٢ الانشراح: ١.



حال أعلى، وعند كل ارتقاء كان يستغفر ويتوب عن حاله السابق. فقد قال:

«والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» [٣] وفي رواية أخرى مئة مرة[٤]

كان يريد أن يتقرب إلى مولاه في كل لحظة أكثر من التي قبلها، لأن اشتياقه كان أبدياً، والمسافة التي بين العبد وربه كانت هي الأخرى أبدية. لهذا كان يقول ويردد:

«ما عرفناك حق معرفتك، وما عبدناك حق عبادتك»[٤]

إن مهمة شمس تمثلت بالارتقاء بإدراك المُخاطَب وقلبه إلى هذه المرتبة التي لم يكن بمقدوره الوصول إليها من خلال العلم الظاهري. ولهذا صرخ شمس الدين الذي بلغ الغاية السامية بهذا الجواب صرخة عظيمة، وسقط مغشياً عليه. وبذلك تولدت شرارة نورانية بين هذين العلَمَين اللذَين يُعدان من أعلام الروحانية، والتي ستسمر مدى الحياة.

وبعد هذا اللقاء وهذه الحادثة بدأ البحر الروحاني الكامن بين جوانح مولانا جلال الدين الرومي بالتموج والاهتياج بصورة متواصلة. وكأن قلب مولانا في تلك اللحظة قد التهب مثل بحر

---

٣ البخاري، الدعوات، ٣؛ مسلم، الذكر، ٤١.

٤ المناوي، فيض القدير، ٢، ٥٢٠.

من النفط الذي يُقدَح فيه عود ثقاب. لقد أنار شمس التبريزي قلب مولانا بهذه الصورة، إلا أنه بقي واقفاً أمام ألسنة اللهب المرتفعة إلى عنان السماء ليحترق هو الآخر داخلها. فتساوت وتماثلت المدارك والأحاسيس والحظوظ بينهما.

وبعد هذه الحادثة نجد بأن مولانا جلال الدين ذاك المدرس الهادئ الذي كان يمضي حياته بحال من التعبد والزهد قد اضطرب فجأة وأخذ يعيش في جو نابض يلفه الصدق والحماسة والإخلاص. وكانت مهمة شمس التبريزي هي تحريك هذا البحر الروحاني.

يقسم مولانا جلال الدين رحمه الله حياته المحفوفة بالمحبة، والوجد، والاستغراق إلى مراحل بثلاث كلمات، إذ يقول:

«كنت نيئاً، فنضجت، ثم احترقت!»

واسم المرحلة الأخيرة في التصوف هو «الفناء في الله» و»البقاء في الله».

فالعبد في مرحلة «الفناء في الله» يكون قد أفنى وجوده النفساني وأنهاه، وتجاوز كل رغباته وشهواته. وأما في مرحلة «البقاء في الله» فإنه يشعر بتجلي الله في قلبه. والعبد الذي يصل إلى هذا المقام يسطع نور الله في قلبه.

ما هو الإنسان؟.. إنه زبدة التجلي الذي نزل من عالم الحقائق الربانية العظيمة إلى عالم الكثرة هذا، عالم الحقائق الربانية الذي



يعجز الإدراك البشري عن فهمه إلا باللجوء إلى الأسباب والعلل... إنه كونٌ بتجليات مختلفة!.. إنه قرآن حي... ولكنه كائن لم يُكتشَف منه إلا جزء يسير لا يكاد يُذكَر بالمقارنة مع حقيقته الأصلية...

وإنه لمن ألطاف الله وإحسانه أنه يمنح بعض البشر المُصطَفين القدرة على التحليق في آفاق عظمته وتجلياته، ويكرمهم بمرشدين على طريق هذه الرحلة. ويُعد هؤلاء قمماً شامخة يزخر بهم التاريخ البشري، هذه القمم التي عجزت الأحداث والوقائع العاتية والمحاولات الخبيثة عن تغطيتها وحجبها. فها هو شمس التبريزي واحد من هؤلاء، وهو المرشد الذي أخرج مولانا في هذه الرحلة. وبقي مولانا جلال الدين يذكره حتى نهاية عمره عرفاناً ووفاءً لهذا المرشد الأول الذي كان سبباً في إدراكه للعالم اللدني الكامن في روحه. على الرغم من أنه قد تجاوزه وسبقه بمراحل كثيرة، وربما كان شمس بعد هذه الحادثة بمثابة أحد مريديه.

التقى مولانا جلال الدين الرومي بشمس التبريزي في قونيا عندما كان في الأربعين من عمره. ويمكن وصفه قبل هذا اللقاء بالإمام الغزَّالي الثاني.

يقول يونس أمره عن مولانا جلال الدين:

إن مولانا السلطان، عندما ينظر إلينا

فإن نظرته المتألقة تصبح مرآة قلوبنا!

كان مولانا جلال الدين في الشطر الأول من حياته عالماً فقيهاً، ومدرساً، وقانونياً، وله الكثير من التلاميذ والأتباع، وكان صاحب مال وثروة كبيرة. وبعد لقائه بشمس التبريزي لم يصبح فقيهاً أكثر علماً، ولا قانونياً مختلفاً. ولم يتغير علمه الظاهري، وإنما تجاوز كل ذلك بأشواط كثيرة.

فبعد لقاء جلال الدين الرومي بشمس التبريزي ظهر مولانا الأصلي. فقبل لقائه بشمس كان عالماً فحسب؛ وأما بعد اللقاء فقد غدا عالماً عاشقاً يفيض صدره عرفاناً.

يقول مولانا رحمه الله: «ليس هناك معلم كالعشق!»

ويصف حالته قبل اللقاء عندما كان عالماً بقوله: «كنت نيئاً». وأما حالته اللاحقة فيصفها بالكمال والنضوج وبأنه عالِم عاشق.

C

إن أساس الأمر كله يتمثل بالإجابة عن السؤال الآتي: «ما الذي أعطاه شمس لمولانا، وما الذي علمه إياه» والجواب باختصار هو: إن شمساً علمه ودله على سبل الخلاص من أسر العقل، لأن حدود العقل محدودة، وما وراءها تيه ومجهول. وأما حدود القلب فلا نهاية وغير محدودة، وإن ما يهدئه ويسكنه هو الفناء في الله.

لقد عرَّفَ شمس جلال الدين الرومي إلى ذاته وجوهره، وإلى القيم التي يمتلكها ويجهلها، وكسر السلاسل الموضوعة في قدميه.



لأن مولانا كان نسراً مستعداً للتحلق في السماء، فجاء شمس وحلَّ وثاق رجليه، ودله على العالم الآخر من نافذة القلب.

وبعدها بدأ مولانا بالانجذاب إلى التجلي الموجود في شمس والاحتراق به مثل الفراشات التي تحوم حول السراج وتحترق بناره.

يبين مولانا جلال الدين في الديوان الكبير هذه المغامرة التي بدأت مع شمس وفق ما يلي:

قال شمس لمولانا:

- إنك عالم، وقائد، ومرشد؛ أنت صاحب سلطة وجاه!

فقال مولانا لشمس:

- أما بعد الآن فأنا لست عالم العلم الظاهري، ولست قائداً، ولا مرشداً.. أنا سائح غريب فقير في العالم الذي يتجاوز العقل والذي أنارته الشعلةُ التي أوقدتَّها!

فقال شمس:

- ما زال لديك عقل! لذلك فإنك لست من أهل هذه الدار لأنك لم تصبح مجنوناً بعد!

فقال مولانا:

- أما بعد الآن فقد سترتُ عقلي بحجاب قلبي... وصرت مجنوناً. وبهمتك فأنا من أهل هذا العالم!

فقال شمس:

- لديك حساب! فأنت لست في حال سكر! وأنت خارج هذا العالم! فالذي ينير هذا العالم ليس العقل وإنما العشق. إنك لا تستطيع أن ترى أمامك!

فقال مولانا لشمس:

- أما بعد الآن فقد أطفأتُ بهمتك النار. وأحاط بي العشق والسكر من كل جانب.

فقال شمس هذه المرة:

- إنك مشعل لجماعة! ومكانتك عالية!

فرد مولانا:

- أما بعد الآن فقد خمدتْ تلك الشعلة وانطفأت. ولم يعد لدي فرق بينها وبين الحشرات المضيئة التي خمدت ومضاتها! وصرت أسعى إلى المشاعل الأخرى عندما تضيء!

قال شمس:

- إنك لست بميت؛ فأنت ما تزال تحافظ على حياتك الظاهرية! ولا يمكن المرور من هذا الباب إلى الآخر بهذا الحال! ينبغي أن تترك وجودك الفاني بكل ما فيه...

فقال مولانا:

- كان الأمر كما تقول في السابق!.. وأما بعد أن تعرفت عليك فلست حياً بالمعنى الذي يعهده الناس... فقد مت بالالتقاء مع حياة أخرى!



قال شمس:

- ما زال لديك أمور نفسانية! فمقامك ومنصبك ما زالا باقيين، تخلص منهما!

قال مولانا:

- إنني أبحث عن المقام والمنصب في العالم اللدني الذي جذبتني إليه. فقد تخليت عن كل الأشياء التي تخص وجودي السابق؛ لقد تجاوزتها كلها!

شمس:

- لا يمكنني إعطاءك جناحاً! فلديك ذراع وجناح!

مولانا:

- أما بعد الآن فقد كسرت ذراعي وجناحي لكي تصبح ذراعك وجناحك..

ولما توصل شمس إلى قناعة بأنه أنهى مهمته نتيجة لهذا الإقرار الذي حصل عليه، قلَّده جناحاً كي يحلق في الآفاق الأبدية المليئة بالتجليات الإلهية... لأنه لتوقه الشديد للوصال تركه وحيداً في جو الشوق المبارك والفياض بعد أن أشعره بفراق عظيم.

C

فكما أن شمس الإسلام سطعت وقوي سطوعها بدخول عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الإسلام، فكذلك وصلت مهمة شمس التبريزي



إلى الكمال من خلال مولانا جلال الدين. فقد أُضِيءَ شمس الذي لم يكن أحد يعرف إلى تلك اللحظة بأنه شيخ الدنيا بمحبة مولانا، وصار أسطورة تتداولها الألسن. والاحترام والتقدير والتبجيل والمحبة المتبادلة بين هذين المرشدَين الجليلَين الكبيرَين تُعد أجمل تجسيد للحالة التي تكون بين المريد والمرشد الحقيقيَين.

إن الهدية الثمينة التي أعطاها شمس لمولانا ليست إلا المحبة، والشوق، والحرمان. ونجد أجمل نموذج لهذه المحبة والشوق والحسرة في حياة أبي بكر الصديق ﵁، وحياة السيدة فاطمة ﵂:

فقد كان سيدنا أبو بكر ﵁ يعيش حالة وجد واستغراق مختلفة في كل لقاء جديد مع سيدنا رسول الله ﷺ. وحتى عند وجوده بجانب النبي عليه الصلاة والسلام كانت محبته وأشواقه إليه تزداد.

وأما فاطمة الزهراء فقد قالت لما انتقل النبي ﷺ إلى جوار ربه:

مَاذَا عَلى مَنْ شَمَّ تربَةَ أَحْمَدٍ ... أنْ لا يَشُمَّ مَدَى الزَّمَانِ غَوَالِيَا

صُبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِب لَو أَنَّهَا ... صُبَّتْ عَلَى الأيامِ صِرْنَ لَيَالِيَا[٥]

وكذلك فإن مولانا جلال الدين السائر على طريق هذه المحبة والعشق اكتوى واحترق بنار الشوق والحسرة لما فقد شمسه. ونتيجة لهذه الحسرة والشوق ولهيب الفراق ظهر كتاب المثنوي مؤلفاً من ٢٦٠٠٠ بيتاً.

٥ مختصر صحيح البخاري، ٤/ ٤٥.



فالذي قدَّمَ سرَّ الفراق بأجمل وأبهى حلة ذوقية ورثائية هو مولانا جلال الدين الرومي. والمثنوي الذي يبدأ بقوله:

استمع إلى الناي الذي يمثل صاحب المعرفة

واشرب من معين شكوى فراقه!

يعدُّ رسالةَ فراق بغاية الروعة. وغياب شمس فراق دائم لمولانا، لأنه كان القناة التي سرى من خلالها النور المحمدي إلى مولانا.

وقد صارت روحه مدى حياته مجذوبة إلى شمس وباحثة عنه مثل الفراشة التي تنجذب إلى ضوء السراج وتحلق حوله لأن شمساً التبريزي قد وضعه على طريق رحلة قلبية في بحر الروح والمعاني اللامتناهية. لقد صار يكتوي ويحترق بنار العشق مثل مجنون الذي عجز عن الوصول إلى ليلاه.

كان يقدم كلَّ ما يحمله لمن يقول بأن شمس لا يزال على قيد الحياة. وعندما يخبره أحد أصحابه بأن الخبر مجرد كذبة كان يقول:

- لقد أعطيته كل هذا مقابل كذبته، وإني مستعد لتقديم روحي مقابل الحقيقة.

يصف مولانا جلال الدين الرومي معاناة قلبه المحترق بنار الفرقة، فيقول:

«تُرى لمَ يصرخ ويئِن داخلي؟».

«من يعلم بألمي واضطرابي وحرقتي؟».



«كلٌّ يستمع إليَّ حسب طاقته وملكته وميوله. فالإنسان السيء يقيِّمني ويصيغني وفق أحاسيسه ويفهمني على ضوء ذلك. وأما الذي من أهل الحق فإنه يزيد معي روحانيته، وتهتاج أحاسيسه، ويصبح الناي شفاءً له».

يتطلع مولانا في المثنوي إلى تفاعل المستمعين مع صدى الناي للوصول إلى المشاعر والأحاسيس العلوية. حيث يقول في إحدى رباعياته:

«أصغ السمع إلى الناي، وانظر ماذا يقول. إنه يفشي أسرار الله الخفية. إنَه على الرغم من وجهه الضعيف المصفر، وقلبه المفرَّغ، ورأسه المقطوع، وهجران نفس العازف له لا يزال ينادي ويصرخ بلا لسان ولا كلام قائلاً: الله.. الله..».

إن الناي الذي يرمز إلى أهل الحق الذين احترقوا بنار العشق والمحبة هو قصبة أُججت نار العشق في صدرها. ذلك أن الناي قُطع من الشجيرة التي تفرع منها وأبعد عنها، ثم كوي صدره بالنار لفتح الثقوب فيه. وعلِّقت على رأسه وقدمه الحلقات والسلاسل المعدنية، وحتى في ثنايا مفاصله، فأضحى جافاً شاحباً مصفر اللون.

ولهذا فإن الناي يقول بلسان حاله:

«كنت غصناً في شجيرة القصب، حيث كانت ساقي في الأرض وقلبي في الماء. كنت أتمايل هناك بدلال، وأستيقظ على هبوب



النسمات العليلة. ولكن ذات يوم امتدت إلي أياد واقتطعتني من جذعي. ثم جففوا جسدي الطري بنار العشق وأحدثوا فيه الثقوب. لقد جعلوا فيَّ جروحاً نازفة لا تندمل. ثم وضعوني بين يدي صاحب أنفاس سامية. فاخترقت أنفاسه الممزوجة بالعشق اللاهب أحشائي. فأحرق هذا النفس الحار كل ما في داخلي عدا العشق، وحوَّله إلى رماد تذروه الرياح. لقد أذابني في ذاته. فبدأت بالأنين والصراخ والنواح. لقد أفشت هذه الصرخات القادمة من أعماقي كل أسراري.

انقلبت أسراري إلى أصوات. ولكن الذين على أعينهم وآذانهم، وقلوبهم الحجب محرومون من أسراري وبعيدون عنها كل البعد».

وهذا هو حال الإنسان تماماً؛ فقد جيءَ به إلى هذه الدنيا بعد أن كان مكانه في العالم الإلهي، وقُيِّد بالقيود البشرية فاكتوى قلبه بنار الفراق.

ولكن هذه الحقيقة الكامنة في كل إنسان تبرز بحسب التفكر ومستوى الأحاسيس، وتظهر للعلن عندما يصبح الإنسان بمرتبة الإنسان الكامل؛ أي إنها تظهر في ميدان الإدراك.

لذلك فإن الإنسان الكامل يشاهد تجليات الحكم والأسرار الإلهية في كل مكان، وكل شيء يراه أمامه، ثم يغوص فيها. وهل بإمكان الإنسان عندما يرى أسرار الصنع الإلهي وبدائعه أن لا يكتوي ويحترق بلهيب محبة الحق سبحانه وتعالى؟



لهذا فإن مولانا رحمه الله تصيبه حال من الاضطراب والضيق بسبب الذين لا يستطيعون بلوغ مرتبة الإنسان الكامل وبالتالي يعجزون عن إدراك الأسرار الإلهية. وكأنه يقف وسط نار ملتهبة، فيبحث عن منبع مواساة لنفسه داخل الحالة الروحية التي عبر عنها يونس أمره الذي كان يعيش الوضع ذاته، وذلك بقوله:

أصابتني حال من العجب والاستغراب، فلا أحد يعلم بحالي!

أنا أتحدث، وأنا أستمع إلى حديثي، فلا أحد يفهم لغتي!

إن لغتي هي لغة الطير، وإن مدينتي مدينة الأصحاب،

أنا البلبل والأصحاب زهوري، واعلموا بأن زهوري لا تذبلُ أبداً!

ويقول مولانا:

«لقد ضُرِبَ على آذان أهل الكهف بالنوم لأنهم كانوا في مجتمع لا إحساس فيه، فلا يستمعون لكلامهم ولا يفهمون خطابهم. وأوقظوا من جديد عندما جاء مجتمع روحاني».

لقد كان مولانا بالغ الحساسية والحرص في مجال الفهم الصحيح والواضح، حتى إنه لم يتردد عن القول في مقدمة المثنوي:

«لا يُسمَح بمس هذا المثنوي إلا لأصحاب القلوب الطاهرة الرقيقة والذين استأنسوا بالحقيقة».

ذلك أن مولانا شأنه شأن الكثير من السائرين إلى الحقيقة قد عانى وتألم وسئم كثيراً من الذين أساؤوا فهمه ونقلوا كلامه بصورة



مغلوطة وتبرأ منهم. ويقول في معرض التنبيه والتحذير من مثل هؤلاء:

«إنني خادمٌ للقرآن ما دامت هذه الروح في هذا الجسد، وذرة غبار في طريق المصطفى المختارﷺ، ومَن نقلَ عني غير ذلك فإني براء منه ومن قوله...».

C

يصف الولي الكبير ليلة الموت بليلة العرس، أي إنه في تلك الليلة يتخلص من غربة الدنيا، ويبلغ الوصال. فهو يرى الموت أنه حصول الروح على حريتها، ورحلة إلى المستقبل والخلود الحقيقي، ويقول في ذلك:

«لا تظنن يوم موتي وحملي بالتابوت أنني مبال بهذه الدنيا.»

«لا تبكِ وتأسف عليَّ لموتي! ولا تودعني وداع الفراق عندما أوارى الثرى».

«فالقبر مجرد حجاب يكمن خلفه سكينة وسلام الجنة.»

«أرأيت الغروب؟ انظر إلى الشروق أيضاً! هل يحدث للشمس والقمر شيءٌ بسبب الغروب؟».

انظر! أي بذار لا تنتهي إذا ما رُشت على الأرض؟ فلا تضطرب ولا تقلق بظنك أن بذار الإنسان لن تنتهي!»

«لا تظنن أني دفنت تحت التراب! فأسفل قدمي يوجد سبع سماوات».

لا شك أن روح مولانا الذي نطق بمثل هذه الكلمات قد تجاوزت سبع سماوات وفنيت في ربها.

ويقول مولانا جلال الدين في موضع آخر:

«يا أيتها الروح! فيكِ حياة سرية مغطاة بحجاب التراب هذا... فهاهنا يوجد المئات من أصحاب الجمال مثل يوسف مخبوئين في عالم الغيب...».

«عندما تُقدَّم صورة البدن هذه قرباناً للتراب، تبقى صورة الروح تلك...».

«وإن صورة البدن فانية، وصورة الروح باقية...».

«واعلم بأن الموت هو مخاض ولادة الروح في عالم آخر. أي إنه الموت بالنسبة لهذا العالم الفاني، ولكنه في الوقت ذاته ولادة بالنسبة للعالم الباقي والأبدي!..».

«أليس الله من يأخذ الروح! فاعلم إذاً أن مذاق الموت أحلى من العسل عند الخواص من العباد».

«واعلم بأن الموت حتى وإن كان ناراً، فإنه بستان من الزهور لكل من هو خليل الله؛ إنه ماء الحياة الباقية».

«إن الذي يجعل الموت مرعباً وصعباً هو قفص البدن هذا. وعندما تُكسِّر قفص البدن كما تُكسِّر الصدف ستجد بنفسك كيف يشبه الموتُ اللؤلؤَ!..».

C



إن إحدى أهم خصال أهل الله هي احتراقهم بالمحبة الإلهية. يخبرنا مولانا جلال الدين في أحد أبياته بأن نار العشق الملتهبة في روحه لن تخمد وتنطفئ حتى بالموت، إذ يقول:

«افتحْ قبري بعد وفاتي وانظر كيف يتصاعد الدخان من كفني بسبب النار المشتعلة في داخلي!».

لقد ظل مولانا بهذه الحال من العشق المنبعثة من ثنايا هذه الكلمات يبحث طيلة حياته عن العشاق الحقيقيين المحترقين بهذه الصورة. حيث يقول:

«دلُّوني على عاشق يفيض بالعشق الإلهي ويتضطرب من فيوضات العشق الإلهي في داخله، ويتحول النار إلى رماد من شدة حرارة قلبه، وتنظر السماوات بدهشة وإعجاب إلى الأنوار التي تطفئ أشعة الشمس، فتنادي: ما شاء الله، ما شاء الله!...».

يقول الأستاذ محمد أسعد أربيلي رحمه الله الذي يصف في أحد الأبيات المرتبة المعنوية والروحية لمثل هؤلاء من أهل العشق:

«أيمكن غسل شهداء العشق بهذا القدر من النار؟ فالجسد نار، والكفن نار، وحتى الماء العذب الزلال الذي سيغسل به الشهيد نار.».

سئل أحد العاشقين وهو على فراش الموت:

- كيف تضحك وأنت في لحظات الموت؟

فأجاب العاشق:

- إنني أطير... لقد تحول الآن كل جسدي إلى شفاه مبتسمة! إن شفاهي الآن تضحك بابتسامة مختلفة!».

يقول مولانا جلال الدين:

«لا تشبِّه أحداً لا يضحك عند الموت بالشمعة! إذ لا تنبعث روائح العنبر إلا من الذائبين كالشمعة على طريق العشق».

وهكذا؛ فإن مولانا قد هاجر من هذا العالم إلى العالم اللاهوتي وهو يضحك بشفاه الروح، وبلغ ليلة العرس التي ظل مدى عمره يحترق بحسرتها والشوق إليها.

وبينما كان أهله يذرفون الدموع تحوَّلَ تابوت ذاك السائر على طريق الوصل إلى شفتَين توزعان الابتسامات والضحكات كمثل زهرة محترقة بلونها.

يتحدث سلطان عن موكب تشييع جنازة أبيه مولانا جلال الدين في كتابه «ابتداع نامه» فيقول:

«هاجر السلطان العظيم من هذه الدنيا سنة ٦٧٢ هجرية (١٢٧٣ ميلادية). فامتلأت العيون بالدموع، والقلوب بالأنين والحزن، وحزن حتى غير المسلمين عليه. فكل إنسان طاهر كان صديقاً له، وكل الناس كانت تعشقه.

كان الناس يقولون عنه:



«إنه نور النبي عليه الصلاة والسلام وسره. إنه بحر الفضائل الذي لا شواطئ له...».

لم يعرف أحد ذاك اليوم السكينة والهدوء من هول المصيبة، والحرقة عليه. وقال الناس كلهم بألم كبير:

«إنه كان كنزاً حقيقياً، وخُبئ تحت تراب الأرض».

ويروي أحمد الأفلاكي أن نعش مولانا جلال الدين قد جُدد ست مرات بسبب كثرة المشيعين وازدحامهم الشديد. وعلى الرغم من حمل جنازته وقت صلاة الظهر، إلا أنها لم تصل إلى المقبرة إلا بعد صلاة العصر.

وكان الطبيب أكمل الدين يخاطب الناس قائلاً:

«أيها الناس! التزموا الأدب! وقوموا بواجب التشييع بسكينة ووقار واحترام! فمولانا كان سلطان العلماء الحقيقي؛ وها قد رحل عنا...».

لما وقف الشيخ صدر الدين قونوي أمام جثمان مولانا لإقامة صلاة الجنازة عليه حسب وصيته أخذته العبرة وبدأ بالبكاء، وخارت قواه. فأسرع الناس إليه، فأمسكوا بذراعه وساعدوه على السير، وأخذوه جانباً. ثم وقف القاضي سراج الدين مكانه وأمَّ بالناس في صلاة الجنازة.

C

يصور مولانا جلال الدين الرومي حياته التي لخصها بـ«كنت نيئاً، فنضجت، ثم احترقت!»، بعبارة أخرى، فيقول:

"كنت ميتاً؛ فصرت حياً... كنت باكياً دامع العين؛ فصرت ضاحكاً مسروراً... غصت في بحر العشق؛ فوصلت في النهاية إلى المجال الباقي...».

ويقول يونس أمره:

البدن فانٍ، والروح باقية لا تموت،

والذين رحلوا لا يعودون!

إن ماتوا فالأبدان وحدها تموت،

وأما الأرواح فلا تموت!..

يا رب اجعل موتنا وسيلة للسعادة والسرور في دار البقاء! واجعل ليلة موتنا كليلة العرس!

آمين!..







قربة ماء

«يا بني! اعلم أن هذه الدنيا كلها قربة مملوءة بالعلم، والحكمة، والأسرار، والجمال. ولكن اعلم أيضاً بأن كل هذا العلم، والحكمة، والجمال ليس إلا قطرة من فيض الله تعالى».

«لو أن ذاك الأعرابي رأى قطرة من فيض الله، لرمى بجرَّته أرضاً أمام تلك القطرة التي هي في الحقيقة بحر من القدرة، والعظمة، والأسرار الإلهية».

مولانا جلال الدين الرومي



قربة من الماء...

كان هناك أعرابي فقير يسكن في خيمة مع زوجته وسط الصحراء. وذات ليلة أخذت امرأته تشكو من معاناتهم قائلة:

إننا نعيش في فقر مدقع، ونعاني من كل ألوان الحرمان والألم، بينما الكل يمضي عمره بالغنى والرخاء والرفاهية؛ فلا أحد فقير سوانا. ليس لدينا خبز، فإدامنا الحزن والألم. وليس لدينا قربة، فماؤنا الدموع. لباسنا في النهار الشمس، وفراشنا وغطاؤنا في الليل ضوء القمر. نظن من شدة الجوع بأن قرص البدر في الليل رغيف خبز فنقفز إلى السماء. ومن شدة الفقر والحرمان نمتص دماء عروق البعوض الطائر في الهواء. فما الذي سيحدث لنا؟

فأجابها الأعرابي:

يا امرأة! إلى متى ستظلين جارية خلف أموال الدنيا، وباحثة عنها؟ ما الذي بقي من عمرنا في هذه الدنيا؟ فالعاقل لا ينظر إلى قلة رزقه أو كثرته، لأن الرزق ماض زائل.

اعلمي بأن الهموم والكدورات الدنيوية التي تخيم على قلوبنا إنما تظهر لتراكم غبار الطمع، ومن أوحال مستنقع الجشع. إننا نحيا



في ملك الله تعالى، ونقتات بالرزق الذي قسمه لنا. فهل هناك كنز وغنى أجمل وأفضل من القناعة؟ إن التذمر والشكوى بقول هذا كذا، وذاك كذا ليس إلا من وساوس الشيطان ومكائده.

يا امرأة! ليس من شيءٍ أسوأ من الاعتياد على الغنى والوفرة، لأن فراق ما اعتدتي عليه عسير. فالذي يعبد بدنه، أي ينفذ كل الرغبات والأمنيات التي تهفو إليها نفسه يتمسك بالحياة وتحلو الروح في عينيه، ويعاني الأمرَّين عندما يحين موعد تسليمها لبارئها. فكوني مدركة وعارفة بهذا، ولا تصعبي علينا ما نحن مقبلين عليه!

يا امرأة! كنتِ في شبابك أكثر قناعة، وكلما تقدمت في السن ازدتي طمعاً. أتريدين ذهباً، وقد كنتِ من قبل أغلى من الذهب. ولم يكن لزوجك مثيل. فما الذي جرى لك حتى تركت ما كنت عليه، وصرت ترغبين بالأشياء المؤقتة الفانية؟

ولكن امرأته لم تصغِ إلى كل هذا، بل زاد حنقها وغضبها أكثر. وتابعت كلامها قائلة:

يا من لا تنفع إلا بحفظ الشرف! لقد سئمت ومللت من كلماتك البراقة. اخجل من نفسك، انظر إلى حالنا! إنك تحدثني عن القناعة وفوق ذلك تفتخر وتغتر. فإلى متى سيستمر هذا الهراء؟ منذ متى أضأتَ روحك بالقناعة؟ كيف تستطيع أن تنافس السلاطين والأسياد وأنت على وشك أن تقفز إلى الجراد الطائر في الهواء من شدة الجوع؟ لا تحملق بي بنظرات مريبة حتى لا أتكلم عما يسير

في عروقك، وعما يدور في داخلك من نوايا سيئة وخبيثة. لا تقفز علي مثل ذئب غافل! إن رجلاً مثلك من الأجدر أن يكون عديم العقل، أفضل من أن يمتلك مثل هذا العقل المخجل.

فرد عليها زوجها بهدوء وسكينة:

أأنت امرأة، أم كتلة من الكدر والغم؟ أنا أفتخر بفقري. وكفي عن الملامة والتهكم. فمَثَل المال، والملك، والنقود كمثل القبعة، وما بداخل القبعة صلعة جرباء. والغني إنسان غارق بالعيوب حتى شحمة أذنيه، ويسعى إلى سترها بالمال. الفقر ليس بالأمر الذي تعرفينه؛ فلا تنظري باحتقار إلى الفقر الذي عرفه الأنبياء والأولياء بأنه نعمة كبيرة! فأنا أكون بحال الفقر أكثر قرباً إلى ربي، وأنال غنيمة مختلفة تماماً. ليس لدي مطامع تجاه الدنيا، ففي قلبي عالم من القناعة. يا امرأة! دعكِ من الشجار والكدر والنكد! وإن كنتِ لا تستطيعين، فدعيني أنا على الأقل! فليس لدي مجال للشجار والمناكدة. ولتتوقف الحرب هكذا، فقلبي يخفق ويرتجف حتى من السلام. إنْ صَمَتِّي كان بها، وإلا فإني سوف أحمل نفسي وأغادر تاركاً لك البيت بما فيه!

فما إن سمعت المرأة كلمات الفراق من زوجها حتى بدأت بالبكاء، وسالت الدموع من عينيها، وأظهرت الندامة على فعلتها. فتخلت عن أنانيتها وسلكت طريق الفقر، وقالت لزوجها بندم:



أنا لست سيدة، وإنما أنا تراب قدميك. فبدني، وروحي، ووجودي وعدمي كله لك. أريد الموت لأجلك ليس مرة، وإنما مراراً وتكراراً. فأنا بسبب ما قلته لي تخليت عن الروح والبدن معاً.

لمَ تذكر الفراق؟ فها أنا تركت الاعتراض والشكوى جانباً؛ وأعتذر من صميم قلبي وروحي. يبدو أنني أسأت إليك لأني لم أستطع فهم طباعك الملوكية. أما الآن فإني أضع رقبتي بين يديك والندم يعتصر قلبي، فإن شئت ضربتني، وإن شئت رميتني بين قدميك.

ثم أجهشت بالبكاء بصدر متحشرج. ولمع برق قوي بين أمطار دموعها المنهمرة، فتطاير الشرر من ذاك البرق إلى قلب الأعرابي الوفي الذي لا مثيل له. فلم يتحمل البدوي دموع زوجته، وندم على ما قاله لها.

فاقترحت المرأة التي شعرت بهذا الندم على زوجها الفكرة الآتية، إذ قالت:

يوجد في جرتنا ماء المطر، وهو كل ما نملك. فخذ هذه القربة وادخل بها إلى مجلس سلطان السلاطين، وقدمها هدية له، وقل:

ليس لدينا مال وملك غير هذا، وليس هناك أفضل منه في الصحراء... وإن كانت لدى سلطاننا خزائن وكنوز، فليس لديه ماء مثل هذا الماء. إذ إن هذا الماء نادر، وقلما يتم تحصيله...

كانت المرأة المسكينة تستغرق في المدح والثناء على الماء الذي في جرتها، وهي لا تدري بأن نهر دجلة الزلال والعذب يتدفق ويجري وسط بغداد.

وانضم زوجها أيضاً إلى هذا المديح، حيث كان يقول:

ومن يمتلك مثل الهدية؟ حقاً إن قربة الماء هذه لا تليق إلا بالسلاطين!

فلف الأعرابي قربة الماء بقطعة لباد، وأحكم إغلاقها، ثم شدها إلى ظهره وخرج في طريقه متجهاً إلى بغداد. كان طوال الطريق يحرس القربة ويحميها مثل عينه حتى لا تتكسر أو يسرقها اللصوص. وبعد مرور عدة أسابيع وصل إلى بغداد. فظل يسأل عن قصر الخليفة حتى اهتدى إليه. فجاء وطرق الباب. خرج الحراس وسألوه عن مطلبه. فقال البدوي الفقير:

أيها السادة! أنا أعرابي غريب. قدمت من الصحراء وكلي أمل بلطف السلطان وإحسانه. فخذوا هذه الهدية إلى السلطان، وخلصوا هذا الطالب من السلطان من حمل حاجته! إنه ماء عذب فرات. عُبِّئ في الصحراء من مياه الأمطار. والقربة جميلة وجديدة.

في بداية الأمر ضحك رجال الخليفة على هذا الأعرابي صاحب القلب النقي النظيف، ولكن فيما بعد قبلوا هديته المزينة بالنية الصافية الحسنة بكل حرارة وأخذوها منه. كان الأعرابي لا يعرف شيئاً عن نهر دجلة الرقراق الذي يتدفق أسفل القصر.



ولما قُدمت قربة ماء الأعرابي إلى الخليفة سُرَّ كثيراً، وطلب حضور الأعرابي إلى مجلسه. فأكرمه وأحسن إليه، وأعطاه ثياباً جديدة، ثم قال لرجاله:

املؤوا جرته ذهباً، وأعطوه إياها. وإذا ما أراد العودة خذوه بالقارب عبر نهر دجلة. فهو قد جاء إلينا عن طريق الصحراء. فطريق دجلة أقرب مسافة إلى بلده، فليعد منه!

فلما ركب الأعرابي القارب ورأى دجلة أصابته دهشة شديدة. وكان مصدر دهشته الأساسي هو قبول الخليفة لقربة ماء معبأة في الصحراء مع أن مثل هذا النهر الكبير يمر تحته. فتوجه بالشكر إلى الله تعالى من صميم قلبه.

المثنوي:

«يا بني! اعلم أن هذه الدنيا كلها قربة مملوءة بالعلم، والحكمة، والأسرار، والجمال. ولكن اعلم أيضاً بأن كل هذا العلم، والحكمة، والجمال ليس إلا قطرة من دجلة الله تعالى. كان كنزاً مخفياً فأحب أن يُعرَف. ولما امتلأت الخزينة فاضت، فأظهرت نفسها، فجعلت التراب براقاً ومتلألاً أكثر من السماء، فحوَّلَ التراب إلى سلطان يرتدي الحرير. لو أن ذاك الأعرابي رأى قطرة من دجلة الله، لرمى بجرته أرضاً أمام تلك القطرة التي هي في الحقيقة بحر من القدرة، والعظمة، والأسرار الإلهية».

إن الأعرابي يرمز في الحكاية إلى العقل، وأما امرأته فترمز للنفس. فالعقل والنفس في حالة صراع وتنازع مستمر. وكلاهما يستوطنان في مملكة البدن المجبول والمصنوع من التراب. إنهما في عراك مستمر ليل نهار. فالمرأة التي هي رمز للنفس تستعرض احتياجات البدن، أي إنها تريد الشرف، والمكانة، والمنصب، والجاه، والاهتمام، والملبس، واللذيذ من الطعام والشراب وغير ذلك من احتياجات النفس أو البدن. ولكي تجد سبيلاً للوصول إلى حاجاتها تتذلل أحياناً، وتظهر التواضع؛ وأحياناً تمرغ وجهها بالتراب، وتستدر العطف والشفقة؛ وأحياناً تصيبها الغطرسة والتكبر، وتبحث عن الجاه والمكانة العليا.

وأما العقل فبعيد عن أفكار البدن. ليس في فكره إلا محبة الله وعشقه. وهو في حال قلق وحزن وخشية من فقد المحبة.

وأما الخليفة فإنه في الحكاية دجلة علم الله اللامتناهي. والأعرابي الذي جلب قربة من ماء المطر إلى نهر دجلة معذور على فعلته، لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن دجلة. فهو كان يعيش في الصحراء بعيداً عن دجلة بمسافة شاسعة. ولو أنه كان يعلم بأمر دجلة لما حمل تلك القربة عبر تلك الصحراء وجاء بها، وربما لضرب بها على الصخور وحطمها. أي لحاول معرفة شيءٍ عن دجلة من خلال إخضاع ذاته لمحاسبة إلهية بتزكية النفس وتصفية القلب حتى ينال سرَّ «موتوا قبل أن تموتوا».



لم يكن الأعرابي الذي يمثل العقل، والمرأة التي تمثل النفس، يعلمان بأن القيمة واللذة الإلهية الأصلية تكمن في ماء العرفان الموجود في قربة البدن. وهذا الأمر لا يتحقق إلا بنيل حظ من بحر المعرفة.

وباب الخليفة في الحكاية يمثل «باب الرحمة الإلهية».

إن المؤمن مهما كان متعبداً وامتلك قسطاً كبيراً من العلم، والعرفان، والأموال والثروات، ينبغي له عدم الانخداع بهذه المزايا والإمكانات وعدم الوثوق بها. وعليه أن يعلم جيداً بأن كل هذه القيم إنما هي لطف وإحسان من ربه سبحانه وتعالى، وأنها ليست إلا قربة ماء بجانب دجلة.

وقربة الماء التي عانى الأعرابي في سبيل تعبئتها في الصحراء الكثير من المشاق والآلام كانت بالنسبة إليه ماء الحياة. مع أنه لما أريقت في دجلة ضاعت ولم يعد لها أثر، وكأنها لم تكن شيئاً.

إن محاولة ابن آدم الوصول إلى الحقيقة، وفهم النظام والصنع الإلهي من خلال الإمكانات والقدرات البشرية ليست أمام حقيقته الأصلية حتى قطرة من نهر دجلة. وأما عن قربة الماء الواردة في الحكاية فهي معلوماتنا التي هي بمقدار قطرة صغيرة. ولكن لغفلتنا عن دجلة الله اللامتناهية وجهلنا بها، نظن بأن معلوماتنا واسعة وكثيرة. وهذا الظن ليس إلا ظن النملة بأن بيتها الصغير، أو ظن السمكة بأن حوضها هو كون عظيم.

وإنه لضلالة كبيرة ما بعدها ضلالة أن ينخدع الإنسان نتيجة غفلته بانعكاسات مرآة عملاقة يرى نفسه فيها دون التفكير بقوته ومكانته الحقيقية، فيكون كالنملة والسمكة التي ذكرناها في المثال المتقدم.

إلا أن العاشقين الحقيقيين الذين يضربون «قربة وجودهم» بالصخرة يتنقلون بتحطم تلك القربة إلى حال أفضل وأكمل، ويتخلصون من أسر الكائنات التي هي عبارة عن ظلال وسراب عابر.

ذلك لأنه عندما تتحطم قربة الوجود ينسكب الماء الذي بداخلها فتظهر تجليات فريدة.

يقول رسول الله ﷺ:

«سبحانك ما عرفناك حق معرفتك» [٦]

ولم يكن علماء هذه الأمة المنتخبة يترددون في الاعتراف بعجزهم وضعفهم. فذات يوم سأل الخليفة هارون الرشيد الإمام أبا يوسف عن مسألة. فأجاب الإمام أبو يوسف:

- لا أعلم.

فقال أحد رجال الخليفة للإمام أبي يوسف:

- تأخذ معاشاً وتقول لا أعلم!

فرد عليه الإمام:

٦ المناوي، فيض القدير، ٢، ٥٢٠.

- آخذ معاشي حسب علمي. فلو كنت آخذ معاشي حسب جهلي لما كفتني خزائن الدولة...

ويظهر العلامة الإمام الغزالي تواضعه والاعتراف بعجزه بقوله:

«لو قدرت على رمي ما لا أعلم تحت قدمي لبلغت السماء».

فهؤلاء العلماء الكبار لم يترددوا أبداً في الاعتراف بقصور علمهم، ولم يباهوا بعلومهم.

وقد قيل:

«العلم ثلاثة أشبار من دخل في الشبر الأول (يفتخر بالقليل من المعلومات التي حصلها) تكبر، ومن دخل في الشبر الثاني (أمام القدرة والسطوة الإلهية) تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث (عندما يدرك حقيقة علم الله اللامتناهي ويعلم حينها أن لا شيء أمامه) علم أنه ما يعلم».

أليس إيلاء ابن آدم الأهمية للأعمال والأمور التي توافق ميوله والاعتماد عليها بمثابة وضع قربة ماء مقابل دجلة؟

ما نسبة وصول هداية الرحمن إلى قلب تحول إلى عرش للشيطان الذي يحجب القلب كما تحجب الغيوم المتلبدة ضوء الشمس؟ يظن الإنسان بأن هناك أملاً وخيراً في قربة الماء لكونه غافلاً عن دجلة. وفي هذه الحال فإنه يغرق في ظنه ويلقى حتفه.

C

التقى جنيد البغدادي ذات يوم ببائع مثلجات، فناداه البائع قائلاً:

- ساعد إنساناً يذوب رأسماله!

فلما سمع جنيد هذه الكلمات غشي عليه وسقط أرضاً.

إذا لم يُستبدَل رأسمال الدنيا برأسمال الآخرة فإن الجهود والمساعي المبذولة في الدنيا تصبح من نصيب الشياطين؛ والنتيجة هي ضلال وخسران أليم. وجنون الإسراف والتبذير وفقر الرحمة بلاءٌ في الدنيا وعذاب في الآخرة. وإن صحائف أيامنا الماضية مطوية ومغلقة، ولا مجال أبداً لإدخال تعديل أو تغيير فيها. وأما وجود أيامنا المستقبلية ففيه شبهة. وبالتالي فليس بين أيدينا إلا اللحظة الحالية، فإذا استطعنا جعل عرق جباهنا وقلوبنا في اللحظة الحالية بذوراً لبستان حياتنا، فإن آخرتنا تصبح- بإذن الله تعالى- قصوراً من زجاج. وكما قال الشيخ سعدي:

«وجه الأرض مائدة الرب العامة».

فيُغدق الرزق على جميع المخلوقات في هذه الدنيا تجلياً من تجليات صفة «الرحمن»، حيث يتم إطعامها، وسقايتها، وإكساؤها دون مقابل. ولا يُفرَّق في ذلك بين صديق وعدو، أو مطيع وعاصي. فرحمة الله ﷻ محيطة بالمخلوقات جميعاً.

إن ضم الأم وليدها إلى صدرها واحتضانها بمنتهى الحنان والرفق واللطف حتى وإن كانت هذه الأم قنفذة ذات أشواك، وقبول

دعاء المظلوم حتى وإن كان كافراً، هو من مقتضيات هذه الرحمة الواسعة التي أحاطت بكل شيءٍ. وبدائع صنع الله المنتشرة في الكون والتي تحمل عدداً لا نهاية له من الحكم والعبر من شأنها جعل الإنسان الذي لم تفسد طبيعته وفطرته الأصلية بالنفسانيات متحلياً بأنبل المشاعر وأرقاها مثل: السمو، والصفوة، والرقة، والخشية.

وأما المائدة الخاصة فهي الآخرة وهي تجلٍّ لصفة «الرحيم»، إذ الانتفاع بها مقتصر على المؤمنين فحسب.

ويوجد على هذه المائدة الخاصة أعظم النعم التي يمكن أن يحظى بها البشر وهي «الجنة» و «رؤية جمال الله»، حيث يرى الناس الحق سبحانه وتعالى كما يرون البدر في كبد السماء. ولأن الإنسان يعتبر تجلياً كاملاً لكل أسماء الله الحسنى، فإنه بذلك يُعد نموذجاً مصغراً للعالم الكبير. فبنيته المصنوعة من التراب تمثل الوجه الخارجي للوجود، وهي بنية فانية. وأما وجوده الحقيقي فهو مخزن خفي للأسرار والأنوار والحقيقة الإلهية. وهذا هو صفة التكريم التي يتمتع بها الإنسان. وإن نيل نصيب من بحر المعرفة الملائمة لغاية الخلق مرتبط بهذا الوجود الحقيقي.

لقد سار حلاج المنصور أيضاً على طريق إلغاء وجوده الفاني داخل بحر الأسرار مثل الفراشة التي تهوى ضوء السراج وتلتصق به بالرغم من أن ثمنه الاحتراق؛ فأحرقَ ذاته بالتجليات الإلهية. ولما سمت روحه وامتلأت بالفيوض ضعفت نفسه وتقلصت

حتى وصلت إلى مرحلة الاضمحلال والانتهاء. واغترب عن ذاته، وعمل على الخلاص منها. فلم يتحمل التجليات الكثيفة، فثمل وسكر، وقال:

- أيها الأصحاب؛ اقتلوني! لأن حياتي الأبدية في موتي.

إن الأمر الوحيد الذي جرحه وآلمه أثناء رجمه بالحجارة هو رمي أحد أصحابه بوردة قرنفل حمراء عليه، فثقل عليه حتى مثل هذا التبسم الدنيوي البسيط.

يمكن وصف هذه الحالة بعبارة أخرى وهي: وصول العبد إلى الخلود والأبدية المتمثل بخضوع الوجود الفاني للوجود الإلهي وذوبانه فيه.

فكما أن وجود القطرة التي تسقط في البحر يضيع ويتلاشى في الماء، فكذلك الإنسان الذي يغوص في البحر لا يبصر ولا يرى شيئاً سوى الماء.

وقد جاء مثال عن هذه الحالة في الحديث النبوي، حيث قال رسول الله ﷺ:

«مَن سرَّهُ أن ينظرَ إلى شهيدٍ يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحةَ بن عُبَيْدِ اللَّه»[٧]

لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشام كان يركب على ناقة بالتناوب مع خادمه، وعندما اقترب من المدينة جاء دور الخادم

٧ الترمذي، مناقب الصحابة، ٣٧٣٩.

فأمره بالركوب، وسار هو بجانبه. فدخل المدينة راجلاً والخادم راكب. فظن الناس أن الخادم هو الخليفة.

C

يقول مولانا جلال الدين:

«ما دام أن الفقر مرآة الجود والكرم؛ فاعلم بأن النفخ على المرآة مضر».

أي إن كل صوت أو نفس يخرج من الفم لرد الفقير والغريب يؤذي قلبه ويجرحه. وكأنه يتشكل على قلبه ضباب كثيف مثل المرآة التي يتجمع على سطحها البخار عند النفخ عليها من قريب. فيفقدها تألقها ولمعانها، وبالتالي لا تُظهر كرم الكريم وجوده. وتزيد من حجم أعمالنا وصدقاتنا في أعيننا، فتخدعنا وتضللنا، وتبعث فينا التباهي. ولأننا نغفل عن دجلة ومالكه فإن قربة ماء تتحول في أعيننا إلى بحر عظيم لا شاطئ له.

إن رغباتنا الدنيوية لا تنتهي ولا تنقضي أبداً. ونعتقد بأن كل ما نمتلكه حق طبيعي لنا ولا ينازعنا فيه أحد. وعندما يُطلَب منا تقديم تضحية بالمال نحتد ويتغير سلوكنا وكأنه طُلب شيءٌ من ملكنا. فتتلطخ مرآة الأمانة والسخاء البراقة واللامعة. مع أن الحق ﷻ يقول:

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[8]

---

٨ الضحى: ٩- ١٠.



ويقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«إن الأسخياء والكرام يبحثون عن الفقراء والضعفاء ويطلبونهم، كما يبحث أصحاب الجمال عن مرآة صافية براقة لامعة. فوجوه أصحاب الجمال تظهر جميلة في المرآة، ويظهر جمال الإحسان والإيمان بالفقراء والمحرومين وأبناء السبيل».

إن أصحاب الجمال يصبحون أسرى المرآة لمشاهدة حسنهم وبهاء جمالهم. حتى إنهم لا يفوِّتون على أنفسهم النظر إلى لوحات الزجاج المظللة خلفيتها وهم سائرون في الطرقات ليشاهدوا جمالهم. وأما أصحاب الكرم والسخاء الذين يُعدون أهل الجمال الروحي والأصلي فيشاهدون أنفسهم في مرآة قلوب الفقراء والمحرومين والمحتاجين.

يقول مولانا رحمه الله في موضع آخر:

«الفقراء مرايا الرحمة الإلهية والكرم الرباني. وإن الذين مع الحق سبحانه وتعالى والفانون فيه بحالة سخاء وكرم دائمة».

C

روي في تفسير الخازن أن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

«أتى صبي إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: يا رسول الله إن أمي تستكسيك درعاً (أي تطلب منك قميصاً)، ولم يكن لرسول الله عليه الصلاة والسلام إلا قميصه الذي يلبسه



فقال للصبي: من ساعة إلى ساعة يظهر كذا فعد إلينا وقتاً آخر. فعاد الصبي إلى أمه. فقالت له: قل له: إن أمي تستكسيك الدرع (القميص) الذي عليك. فجاء إلى رسول الله ﷺ وأخبره بذلك. فدخل رسول الله عليه الصلاة والسلام داره، ونزع قميصه وأعطاه، وقعد عرياناً. فأذن بلال بالصلاة، وانتظره. فلم يخرج. فشغل قلوب أصحابه فدخل عليه بعضهم فرآه عرياناً» [٩]

C

الثروة أمانة. ولا يمكن التلذذ بها وتحقيق السعادة إلا من خلال الإحساس بآلام المحرومين والمحتاجين، وفتح نافذة الرحمة والشفقة لهم في قلوبنا.

يقول مولانا جلال الدين:

«كن كالشمس في الرحمة والشفقة!

وكن كالليل في ستر عيوب الآخرين!

وكن كنبع الماء المتدفق في الكرم والسخاء!

وكن كالميت في الحدة والغضب!

وكن كالتراب في التواضع ولين الجانب!

إما أن تبدو كما تكون؛ أو تكون كما تبدو!..».

---

٩ تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) ١-٤ ، جـ٣، ص ١٢٨.

ينبغي أن نعلم جيداً بأن الإنسان مهما حاول تجميل صورته وإخفاء وجهه الداخلي، فلا بد من أن يبدو ما بداخله على حقيقته، إذ أن كل إناء «قربة» ينضح بما فيه. فما أكثر الآنية التي قيل بأنها تفيض بالمحبة والعشق، ثم في النهاية تدفقت منها مياه الغفلة والضلال. وكذلك ما أكثر الذين كانت تلهج ألسنتهم بالحديث عن ماء الحياة الأبدية، ثم تبين بأنهم لم يتذوقوا منه حتى شربة واحدة، ولم يُشرِبوا أحداً. وكم كان هناك من العباد الخواص الذين تفانوا بالخدمة وأخفوا أنفسهم حتى ظن الناس بأنهم آنية خاوية فارغة، ثم أصبحت قطرة واحدة في قلوبهم بحراً عميقاً لا شطآن له، وجعلهم الله كماء الكوثر للعاشقين العطشى.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا جميعاً في الدنيا بقطرات من مثل ماء الكوثر وماء التسنيم هذا، وأن يجعلنا من أهل القلوب الصادقين المخلصين والمقبولين عنده!

آمين!..





مِن مرآة القلب

كما أننا بحاجة إلى المرآة لمشاهدة مظهرنا الخارجي، فإننا كذلك نحتاج إلى فيوض وليٍّ وإرشاداته لتشخيص عالمنا الداخلي، وشخصيتنا، وطباعنا ومداواتها، أي إننا بحاجة إلى مرآة قلب تربينا وتعرِّفنا إلى عالمنا الداخلي.



من مرآة القلب

ذات يوم قال الرسامون الصينيون:

- نحن أكثر براعة واحترافاً من الرسامين الأتراك.

فاعترض الرسامون الأتراك، وردوا على هذا الادعاء بقولهم:

- كلا؛ بل نحن الأفضل. فنحن أكثر براعة وإبداعاً.

وصل خبر هذا الجدل والتنافس إلى مسامع السلطان العثماني، فقرر إجراء اختبار للرسامين، وقال للفريقين:

- دعوا هذا الخلاف والمشاحنة والتنافس بينكم جانباً، وليرسم كل فريق منكم لوحة فنية!

فقبل الطرفان عرض السلطان، واستجابوا لأمره. إلا أن الرسامين الصينيين وضعوا ستاراً سميكاً وسط الغرفة التي يرسمون فيها كي لا يستطيع أحد استراق النظر إلى لوحتهم وتقليدها. وطلبوا من السلطان ألواناً مختلفة من الدهان والأصبغة.

وأما الرسامون الأتراك فلم يطلبوا شيئاً كثيراً. ولم يأخذوا من الأدوات إلا ما يلزم لإزالة اللطخات والتشوهات الموجودة على الحائط، ويجليه ويلمعه. وكانوا يرجحون عدم التلوين والإقلال منه



على التلوين الكثير، لأنهم كانوا مدركين فضل عدم التلوين. كانوا يعلمون بأن هذه الأصبغة المتعددة الألوان ستبهت وتصبح عديمة اللون. فالمعرفة ليست بكثرة الألوان، ولكن المعرفة بظهور البهتان وانعدام اللون؛ فالغيوم في السماء، ومياه البحار والمحيطات لا لون لها. فالذي يعطيها ألوانها ويغيرها من لون إلى آخر هو الشمس التي في كبد السماء.

ولما انتهى الرسامون من أعمالهم دخل السلطان أولاً إلى غرفة الصينيين، وأعجبته رسومهم. وأخذت الألوان وجمال الأشكال بمجامع لبه وقلبه.

وعندما جاء إلى غرفة الرسامين الأتراك، طلب هؤلاء رفع الستار المضروب في الغرفة. ولما أزيح الستار ظهرت على الحائط الذي كان الرسامون الأتراك قد جلوه ولمعوه ليتحول إلى مرآة صافية براقة، لوحة فنية بغاية الروعة والجمال تجذب إليها الأرواح والقلوب. كان المنظر البادي على الحائط هو بالأساس انعكاس للرسوم والأشكال التي رسمها الصينيون، ولكنه كان يبدو أكثر جمالاً وبريقاً من الأصل. فأُدهش السلطان أمام هذا المشهد الأخاذ، وكرم الرسامين الأتراك.

وهكذا فقد اعتبر الرسامون الأتراك أكثر إبداعاً وفناً، مع أنهم لم يفعلوا شيئاً سوى عكس رسوم الصينيين المزركشة بشتى الألوان على الحائط الذي صقلوه وجلوه ليتحول إلى مرآة عاكسة.

المثنوي:

«اعلم أيها الولد! أن أهل التصوف كالرسامين الأتراك، لا يهتمون بحفظ ولا كتاب، ولا إظهار براعة. أي إنهم لم يحصروا أنفسهم داخل محتوى العلوم الظاهرية ويمكثوا هناك، وإنما تجاوزوا عائق الصورة.

إنهم صقلوا قلوبهم وجلوها فصارت مثل المرآة المصقولة والمطهرة من كل أشكال الغبار والصدأ. لذلك ينعكس الجمال الحقيقي في مرآة قلوبهم بأصفى وأنقى صورة. فالتجلي يظهر في مثل هذه القلوب السليمة، في القلوب الصوفية الواصلة إلى الحق سبحانه وتعالى.

وإن ما أزالوه من قلوبهم للوصول بها إلى هذا الصفاء واللمعان هو مختلف رغباتهم الدنيوية مثل الطمع والجشع، والحقد، والحسد، والكبر، والعجب، والشهوة، والحرص، والبخل وغيرها.

أمر الله تعالى موسى عليه السلام قائلاً:

﴿**وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ...**﴾[10]

فأطاع موسى عليه السلام أمر ربه، وبدت يده بيضاء تشع نوراً كالشمس الساطعة. لأن عالم الغيب الذي لا حد له ولا صورة انعكس في مرآة قلب موسى عليه السلام. أي إن موسى عليه السلام لما وضع يده على قلبه

١٠ النمل: ١٢.



متجاهلاً كل شيءٍ ما عدا رؤية الصنعة الإلهية، تحولت يده إلى ضوء أبيض لامع بأنوار التجليات.

إن صورة عالم الغيب اللامتناهية واللامحدودة المنعكسة على قلب موسى عليه السلام لا تُستوعَب في السماوات، ولا في الأرض، ولا في البحار والمحيطات، فهذه المواضع محدودة ومعدودة، ولا يمكن للمحدود أن يستوعب اللامحدود. لذلك فإن الذات والصفات اللامحدودة لا يمكن أن تنعكس إلا في مرآة قلب مطهر من شتى الأدران والأوساخ الدنيوية. فمرآة القلب غير محدودة أيضاً مثلها مثل الجمال والأسرار الإلهية المنعكسة فيها. ومرآة القلب الفياض بالتجليات الإلهية هي المكان الذي يعكس اللامتناهي واللامحدود.

إن الذين صُقِلَت قلوبهم بمحبة الله يرون فيها كل لحظة انعكاساً لجمال مختلف؛ ويشهدون في كل آن تجلياً من تجليات قدرة الله تعالى اللامعدودة. أي إنهم يكتشفون حقيقة «أحسن تقويم» المكتنزة في أنفسهم. ذلك لأنه لا توجد عندهم الروائح والألوان المجازية التي أضفيناها على الجماليات، فهم قد تجاوزوا الألوان والروائح الدنيوية.

لقد وصلوا إلى معرفة الله، وتركوا صورة العلوم الدنيوية وقشورها، ورفعوا راية «عين اليقين»، ووصلوا نتيجة ذلك إلى مرتبة «حق اليقين». وشاهدوا من هناك اللامحدودية واللانهائية الإلهية».

C

يقول رسول الله ﷺ:

«أخاف على أمتي ثلاثاً: ضلالة الأهواء، واتباع الشهوات في البطون والفروج، والغفلة بعد المعرفة»[١١]

العلم كتابي، أي موجود بين صفحات الكتب، وأما العرفان فشكله الكامل والمشخص والمطبق على أرض الواقع. لهذا فإن الذين لا يحوِّلون العلم إلى عرفان ولا يعملون الصالحات معرضون لخطر النضوب والضحالة والجفاف.

عندما يتم النظر إلى الكون بعيون القلب تظهر غاياته ومقاصده الدقيقة وحكمه وأسراره بكل جلاء ووضوح. ويدرك المرء بأن العالم معرض للعبر والعظات، وأن هذه الدنيا بكل أحوالها وتقلباتها مدرسة إيمانية مليئة بالامتحانات.

إن الذين يضيعون صفتهم الإنسانية الراقية والطاهرة بأباطيل وأوهام في هذا العالم الخاضع للتربية والإدارة الإلهية هم أيتام الحياة ومحرومو السعادة. إنهم يهوون في وديان الشهوة ويضيعون بين تشعباتها ومتاهاتها.

يقول الله ﷻ للتأكيد على حقيقة الآخرة وضرورته:

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾[١٢]

١١ راموز الأحاديث: رقم الحديث، ٣٣٠١.

١٢ النبأ: ٤– ٥.

إن التجليات الإلهية مثل إرسال الأنبياء، وإيصالهم البشر إلى الكمال بلسانهم، وعلمهم، وإرشادهم، وأخلاقهم، تُعدُّ من مظاهر الكرم واللطف الإلهي بالإنسان.

وعندما ينظر الإنسان إلى ذاته وإلى محيطه نظرة استنتاجية وإدراكية فإنه يدرك في الحال بأن:

«العيش بغفلة عن القدرة والقوة الإلهية الجلية والظاهرة ضرب من الضلال والباطل والعبث».

وكل صاحب عقل وإدراك سليم متفكر بعواقب الأمور يفهم بكل سهولة بأن وضع حد لرغباته وشهواته وتمنياته اللامتناهية، ولحبه للفانين، ثم توجيه محبته للمقاصد الإلهية، إنما هو من ضرورات غاية الخلق.

إن العبارات التي تتضمنها اللوحات المعلقة على أبواب التكايا والزوايا مثل «كن سمحاً ولطيفاً أيها الإنسان»، «سيمضي هذا أيضاً»، «الأدب، الأدب» وفي النهاية «لا شيء» تُعد من أعجب التنبيهات والإشارات إلى الحقيقة.

إن عبارة «كن سمحاً ولطيفاً» تقول للإنسان «لا تؤذي أي مخلوق! ولا تحمل ضغينة على أي مخلوق آذاكَ!»، وهذا هو أحد أوصاف القلب السليم.

ويعبر الشاعر عن ذلك بقوله:



ألا أيها العاشق في بستان الدنيا، هذا هو مقصود الإنس والجن:

أن لا تؤذي أحداً من الخلق ولا تتأذى من أحد!..

أي كأنه يقول:

«اخرج من عالم الأسباب؛ وارضَ بالمراد الإلهي».

ولكن ينبغي أن نوضح هنا بأن السماحة واللطافة تكون بشأن الأمور التي يتسامح الله تعالى بها ويعفو عنها، وإلا فإنه لا مهادنة ولا سماحة مع الفسق والفجور! ذلك أن مثل هذا الفعل نكران لجميل الرب الموجب للعذاب الإلهي.

C

وعبارة «سيمضي هذا أيضاً» تنادي العبد قائلة:

«إن الهموم والمسرات التي تصيبك ما هي إلا ضيوف عندك، وإياك أن تظن بأنها دائمة المقام لديك! فلا تحزن للهموم والأكدار الفانية، فإنها مؤقتة. ولا تفرحنَّ بالمسرات الفانية فإنها زائلة ولا بقاء لها. أي إنك دار ضيافة، وإن الهموم والمسرات زائرة لديك أياماً ثم منصرفة.

وأما الأشياء الموجودة في دار الضيافة التي تسبب الكدر والغم، فإنها ليست لك وحدك. وإنما هي للذين يأتون من بعدك أيضاً، فكأنها ملك انتقالي. وبالتالي فإنها لا تستحق الغرق في بحر الهموم والكدر لأجلها!..».



يقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«يا سائراً إلى الحق! كن مسروراً إن أصابتك هموم وأكدار! فهي أرضية اللقاء المجهزة غداً. لأن الإنسان إذا ما نزلت عليه الهموم والكدورات يتذكر الحق سبحانه وتعالى ويلجأ إليه».

«الغم والكدر كنز ثمين. وكذلك مرضك والمصائب التي تحل بك، والشدائد التي تعترض طريقك، فكلها كنوز».

«مَثل الغم والكدر كمثَل رياح روحانية وألطاف إلهية تهب على مرآة القلب فتزيل ما عليها من غبار ورواسب؛ فإياك وتشبيهها بعواصف هوجاء مدمرة!».

«لا أحد يتذكرني على طريق المحبة هذا إلا الغم والهم، فألف تحية للهموم والأكدار!..».

لقد أدرك أحد الشعراء هذا السر، وأراد أن يبين بأن كل ما يأتي من المحبوب يحمل نعمة مختلفة، وأن امتحان الألم والاضطراب والمعاناة بالإشارة إلى الحكم والأسرار التي يحملها حتى الغم والكدر، إنما هو أداة للتمييز غداً بين أهل المحبة الحقيقية الذين فنوا فيه، وبين المحبين المزيفين الذين كل رأسمالهم المظاهر والكلام الفارغ، فقال:

إن جفاء المحبوب وفاء، وليس جفاء.

ومن يقول بأن المحبوب مجافٍ فليس من أهل الوفاء!..

لأن ألوان الهموم والآلام التي تبدو بين الناس قهراً، هي في أعين المحبين لطف إلهي عظيم. والقلوب الحزينة والمغمومة تتذكر الحق سبحانه وتعالى أكثر، فهي تتغذى من نبع التسليم، والله سبحانه وتعالى يغدق عليهم جزاءً لهم بألطاف فريدة، ويُسِرُّ قلوبهم.

وبناء على هذه الحقيقة ينبه مولانا جلال الدين السالكين طريق العرفان بقوله:

«أيها البلبل! إلى متى ستظل نائحاً بسبب الشتاء؟ أيها البلبل! أتظن أن الحديث عن الجفاء دونما توقف ارتواءٌ ومواساة؟ إن كان قلبك متعلقاً بغد حقاً، فتيقظْ وافتح عينيك واشكر؛ وتحدث عن الوفاء! دعك من الشوك، وتحدث عن الورد! تجاوز أوصاف جذور شجيرة الورد وأغصانها، وانظر إلى ذاتها! لمَ أنت منكب على الانشغال بهذا الألم الفاني؛ أفليس المكان الذي ترغب بالوصول إليه ما وراء كل هذا؟!».

C

إن عبارة «الأدب، الأدب» تدعو العبد إلى الالتزام بالأدب من كل النواحي.

فالأدب قمة هرم الأخلاق، وهو أحد غايات التصوف ومقاصده. هذه الغاية المتمثلة بالارتقاء بالإنسان الخام الفطري إلى مرتبة الإنسان الكامل من خلال مقام الإحسان، وجعله متأدباً مع الله تعالى، وهذا يُعد أعلى وأسمى مراتب الأدب. وأما الأدب



الثاني فيكون مع رسول اللهﷺ؛ فالله ﷻ يأمر المؤمنين في سورة الحجرات وغيرها بالالتزام بالأدب مع رسول الله ﷺ.

ويمتد هذا التأدب ليشمل الأستاذ، والوالدين، والمؤمنين وسائر المخلوقات.

يقول سفيان الثوري رحمه الله:

«حسن الأدب يطفئ غضب الرب ﷻ».

ويقول ابن عباس رضي الله عنهما:

«رأس الأدب طاعة أوامر الله واجتناب نواهيه في الشدة والرخاء».

ويقول أيضاً:

«ثلاث خصالٍ من كن فيه لا يُحرَم: حسن الأدب، ومجالسة أهل الأدب، وتركُ الأذى».

ويقول أحد الشعراء عن الأدب:

الأدب تاج من نور الهدى، فخذه وضعه على رأسك وكن مطمئناً من كل بلاء!..

ويتحدث يونس أمرَه عن هذه الحقيقة فيقول:

بحثت بين أهل القلوب وسألت عن أحسن المناقب

فوجدت أن كل منقبة مقبولة إلا الأدب، إلا الأدب..

لهذا فإن بعضاً من أهل الله يعرِّف التصوف بأنه الأدب.

والحادثة التي جرت مع حاتم الأصم خير نموذج في هذا المضمار:

يُروَى أنه جاءت امرأة إلى حاتم وسألته عن مسألة، وبينما هي تحدثه وتشرح له مسألتها خرج منها صوت، فخجلت واضطربت، وأطبق عليها صمت عجيب... فقال لها حاتم بوقار وهدوء وكأنه لم يشعر أو يسمع بشيءٍ:

- ارفعي صوتك، فأنا لا أسمع ما تقولين. فأوهمها أنه أصم!

فسرت المرأة بذلك وعادت إليها الروح من جديد، إذ حسبت أنه لم يسمع الصوت الذي خرج منها.

فلُقِّبَ حاتم الذي لم يُعرف له مثيل بين الأمم في أدب التعامل والمعاشرة بـ«الأصم». فهذا هو الأدب واللطف الإسلامي الحقيقي...

وبقي حاتم بعد هذه الحادثة وحتى وفاة تلك المرأة يبدو بين الناس وكأنه أصم لا يسمع. ولكنه بعد وفاة المرأة قال للناس:

- إن أذناي تسمعان؛ فخاطبوني بصوت منخفض!.

هناك الكثير من أهل الله من أمثال حاتم الذين صاروا نماذج لتجسد أدب رسول الله ﷺ في شخصياتهم الفريدة.

يقول ابن عطاء الله السكندري عن التأدب:

«من وجد أدب الصالحين، كان بساطه بساط كرامة. ومن وجد أدب الأولياء، كان بساطه بساط حال من حالات الولاية. ومن وجد



أدب الأنبياء، كان بساطه بساط القرب من الله تعالى. ومن حُرِمَ الأدب، فقد حُرِمَ الخير كله».

ويقول مولانا جلال الدين:

«من لم ينل حظاً من الأدب فليس بإنسان، لأن الفرق بين الحيوان والإنسان هو في الأدب. فافتح عينيك وانظر بتمعن إلى القرآن الكريم كتاب الله! ستجد أن آياته كلها أدب».

C

وأما عبارة «لا شيء»، فهي كلمة تدل على التخلي عن الذات والأنانية، لأن الغوص في الأسرار الإلهية وأخذ نصيب منها يبدأ بالتخلي عن الرغبات والأهواء النفسانية. وبالتالي فإن نقطة بدء النضج الروحي تكون بعد الوصول إلى الشعور ب «لا شيء».

ومن غايات التصوف أيضاً أن يعرف العبد صغر ذاته وانعدامها «فناءها» أمام العظمة والنظام والملكوت الإلهي، ويشاهد قدرة ربه. والله سبحانه وتعالى يذكِّر عباده بهذه الحقيقة بين الحين والآخر من خلال امتحانات وابتلاءات مختلفة. حتى إنه أذاق نبيه سليمان عليه السلام الذي أتاه ملكاً ومالاً عظيماً لم يؤته أحداً غيره طعمَ العجز والضعف بتركه على عرشه بلا روح مدة من الزمن. يخاطب الله تعالى الإنسان في كتابه العزيز فيقول:

﴿... وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾[13]

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾[14]

فالفناء يكمن بتفكر الإنسان بهاتين الآيتين وإدراكه لهما. وإلا فإن الإنسان سوف يقع ضحية لمصيدة نفسه التي بين جوانحه، لذلك لن يُنجي ذاته من الانزلاق إلى حماقة ادعاء الألوهية كما فعل نمرود وفرعون. ولذلك تُعد حال الفناء ذات أهمية عظيمة في التصوف.

يعرض أبو يزيد البسطامي حال فنائه بهذا الدعاء:

«إلهي! ارفع ذاتي من بين الآخرين، ولتفنى فيك ذاتي! فإن كنتُ معك فأنا مع الكل. وإن كنت مع الكل فلا أكون معك؛ وهو أكبر قصور لي على طريقك».

جاء الشيخ عزيز محمود هدائي إلى محمود أُفتاده لينتسب إليه ويكون طالباً عنده، ولأن عزيز محمود كان يشغل وظيفة قضائية مرموقة، فقد رأى أُفتاده ضرورة إشعاره بفنائه وصغر شأن ذاته قبل كل شيء، فكلَّفه ببيع الأكباد في سوق مدينة بورصة، إضافة إلى تكليفه بمهمة تنظيف بيت خلاء التكية. وهكذا فقد وصل القاضي محمود إلى مرتبة من الكمال استطاع بها توجيه السلاطين وإرشادهم، حتى لقب من قبل أستاذه باسم «هدائي».

---

١٣ مريم: ٩.

١٤ النحل: ٥٣.

بعد أن وصل الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي يُعد من كبار أولياء الله الصالحين إلى مرتبة الكمال في العلم الظاهري، اختلى بنفسه في خرائب بغداد مدة طويلة من أجل الوصول إلى مرحلة الفناء والإحساس بانعدام شأن ذاته.

ولكي يصل سلطان الأولياء شاه نقشبند إلى حال الفناء والانعدام التي هي نقيض الكبر والغرور فقد خدم خلال السنوات السبعة الأولى لانتسابه الحيوانات المريضة، وقضى سبعة سنوات بعدها في خدمة المرضى من البشر، واشتغل سبع سنوات أخرى بتنظيف الطرقات التي يمر بها الناس والحيوانات.

يتحدث شاه نقشبند عن عملية تزكية نفسه التي مر بها خلال خضوعه للتربية على يد أمير كُلال، فيقول:

وفي أوائل الطلب والجذبة لقيتُ رجلاً من أحباب الله هو أمير كلال. فأمرني بالاشتغال بجبر الخواطر، وذمّة العاجزين والضعفاء والمنكسرين الذين لا يكترث بهم أحد من الناس مع المحافظة على تمام المسكنة، والتواضع والانكسار.

فامتثلت أمره وصرفت في ذلك أياماً كثيرة.

ثم بعد ذلك أمرني بخدمة الحيوانات، ومداواة أمراضها، ومداواة جروحها وقروحها بنفسي مع الإخلاص في ذلك والتذلل.

فنهضت بأعباء هذه الخدمة كما أمرني، حتى إذا لاقاني في الطريق كلب وقفت حتى يمر هو أولاً لئلا أتقدم عليه، ولم أزل كذلك سبع سنين.

ثم بعد ذلك أمرني أن أشتغل بخدمة كلاب هذه الحضرة بالصدق، والخضوع، وأطلب منهم الإمداد، وقال لي:

- إنك ستصل إلى كلب منهم تنال بخدمته سعادة عظيمة.

فاغتنمت نعمة هذه الخدمة ولم آل جهداً بأدائها حسب إشارته، ورغبة ببشارته. حتى وصلت مرة إلى كلب حصل لي من لقائه أعظم حال، فوقفت بين يديه، واستولى عليَّ بكاء شديد. وكأنه كان مثل الكلب قطمير الذي أخذ من فيض أهل الكهف...

وبينما أنا في بكاء شديد استلقى الكلب على ظهره، ورفع قوائمه الأربع نحو السماء. فسمعت له صوتاً حزيناً، وتأوهاً وحنيناً، فرفعت يدي تواضعاً وانكساراً وجعلت أقول:

آمين! حتى سكت وانقلب.

وخرجت يوماً من تلك الأيام إلى بعض الجهات فوجدت حرباء قد استغرقت في رية جمال الشمس، فاعتراني من مشاهدتها وجد. فوقفت على أتم هيئة من الأدب والاحترام، ورفعت يدي. فرجعت من استغراقها، واستلقت على ظهرها، وتوجهت إلى السماء، وأنا أقول: آمين!



ثم أمرني بعد ذلك بإماطة الأذى عن الطريق. فثابرت على ذلك سبع سنين، بحيث لا يرى أبداً كمي أو ذيلي خالياً من تراب السبل أو أحجارها.

وهكذا كل ما أمرني به ذلك العزيز فعلته بصدق طوية، وإخلاص نية، ووجدت منه النتائج النفيسة في نفسي، والترقي التام في أحوالي.[15]

وقد عاش الإمام الغزالي بحالة «فناء» لمدة طويلة من أجل نيل القرب من ربه ﷻ على الرغم من أنه كان الرائد في كل العلوم في عصره.

ويتضمن خطاب الله تبارك وتعالى الذي تفضل على أهل الإيمان في عصر النبي بالنصر في بدر حين قال:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[16]

إشارةً إلى الفناء وعجز الإنسان التام.

إن القدرة التي يمتلكها الإنسان هي ضمن إطار التقدير الإلهي، لذلك أُمِرَ بقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله العظيم».

١٥ الحدائق الوردية، ٥٤٥- ٥٤٧.

١٦ الأنفال: ١٧.

لأن كل شيء تمتلكه الكائنات التي جاءت إلى هذا الوجود بفضل الله وكرمه بينما لم يكن شيء موجوداً في الأزل، إنما هو من عند الرب سبحانه وتعالى. لهذا فإن الإرادة الكلية تحيط بكل الوقائع والحوادث والمخلوقات وتحتويها، وهذه الإرادة والقوة والسلطة عائدة للخالق الأصلي. وقد مُنح الإنسان إرادة جزئية لأنه موجود في هذه الدنيا بقصد الامتحان والابتلاء، وزود بالقدرة على الاختيار بين الخير والشر ليستطيع خوض غمار هذا الامتحان.

يقول مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله:

«ما هذا التكبر والاستعلاء الذي يصدر من بعضنا على الآخر؟ أفلسنا جميعاً في نهاية الأمر واقفون على باب قصر من القصور؟ ألا يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[١٧]؟!».

ويقول يونس أمره في معرض بيانه لحقيقة المعرفة:

العلم معرفة، العلم معرفة الذات.

فإن تعرف ذاتك، فلمَ القراءة؟!.

C

---

١٧ فاطر: ١٥.

يقول رسول الله ﷺ:

«إنكم لو عرفتم الله حق المعرفة لمشيتم على البحور، ولزالت بدعائكم الجبال، ولو أنكم خفتم الله كحق الخوف، لعلمتم العلم الذي ليس معه جهل،...» [١٨]

C

يتحدث الإمام الغزالي عن نفسه عندما بلغ مبلغاً كبيراً في العلم، فيقول:

«كنت منشغلاً بالعلوم العقلية والشرعية، وليَ تلاميذ كثر. ثم لاحظت أحوالي؛ فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب. ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت؛ فتيقنت أني على شفا جُرُف هار، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال. فقلت لنفسي:

لم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل! فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريباً من ستة. جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على

١٨ المروزي، تعظيم قدر الصلاة، جـ٢، ص٨٠٨، رقم ٨٠٢



لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطيباً لقلوب المختلفة إلي، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب. ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهَّل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد.

لم يعد لي الشغل إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به. إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضَاء به».

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

«**من ازداد علماً ولم يزدد في الدنيا زهداً، لم يزدد من الله إلا بعداً**» [١٩]

١٩ السيوطي، الجامع الصغير، ٢، ١٦٩/ ١٢١٧١.

لهذا فإن مولانا يشبِّه أقوال ومواعظ من ليسوا من أهل العرفان، أي الذين لا تقترن أقوالهم بالأعمال الصالحة بالثوب الجميل المستعار.

C

وسئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ...﴾[٢٠]

قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟

قال رسول الله ﷺ:

«**نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح**».

فقالوا: فهل لذلك من أمارة يعرف بها؟

قال ﷺ:

«**الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الموت**».[٢١]

وروي عن زيد بن حارثة رضي الله عنه أنه قال:

«عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها».[٢٢]

---

٢٠ الأنعام: ١٢٥.

٢١ الطبري، التفسير، ٨، ٣٧.

٢٢ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٥٧.

وسئل سهل بن عبد الله التستري: من الصوفي؟ فقال:

«من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنده الذهب والمدر».

C

ومن نصائح الإمام الغزالي:

«إنفاق النعم في سبيل الله شكر؛ وإنفاقها فيما لا يحب كفران للنعمة».

«البلاء لا يكون إلا ذنباً أو كفراً. وأما المصائب ليست بلاءً، إذ إن فيها خيراً كثيراً لا تعرفها».

«إذا أردت التحدث ففكِّر... وإن كنت ستُسأَل إن صمتتَ فتحدث، وإلا فاصمت».

«العاقل ينبغي أن يقول لنفسه: إن رأس مالي هو عمري. ولا يمكن للنَفَس الذي يخرج مني أن يعود، فالأنفاس معدودة، وتتناقص. فهل هناك ضرر وخسران أشد من عدم صرفها في الاستقامة».

«احفظ أعضاءك من الحرام كما لو كنت تموت غداً».

«إياك وقول (سوف أتوب لاحقاً، وأعمل صالحاً)، فالموت قد يأتيك قبل التوبة، فتقعد نادماً متحسراً. وإن كنت تظن بأن التوبة في الغد أسهل من اليوم فأنت مخطئ متوهم».



«من منعته تجارته عن تجارة الآخرة فهو شقي وتعيس، وهو كمن استبدل الفخار بالذهب».

C

ويقول الإمام الغزالي في معرض بيانه عدم استطاعة الإنسان معرفة ذاته بنفسه:

«الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً يقال فلان حسن الخَلق والخُلق أي حسن الباطن والظاهر، فيُراد بالخَلق الصورة الظاهرة، والهيئة أي التي تُدرك بالحواس الخارجية.

ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة، وهي الوجه المجهول للإنسان. ولا تظهر طبيعتها إلا بالطباع والسجايا. ومهما حاول الإنسان إخفاء حقيقتها وإظهارها بشكل مختلف في الخارج، فسوف يأتي يوم ويظهر وجهه الداخلي».

كما أننا بحاجة إلى مرآة لرؤية وفهم وإدراك مظهرنا الخارجي، فإننا كذلك بحاجة إلى تعاليم وفيوض وليّ لتشخيص عالمنا الباطني، وطباعنا، وخصالنا ومداواتها بالشكل الأمثل، أي إننا بحاجة إلى مرآة قلبٍ تُربينا، وتعرفنا إلى ذاتنا وعالمنا الباطني.

وإن أراد عبد معرفة فيما إذا كان مقبولاً في نظر الحق ﷻ أم لا ينبغي له النظر إلى ذاته وإلى قلبه. فالله قريب إلى العبد بقدر ما يحس به في قلبه ويشاهد قدرة وعظمة الرب المتجلية في ألوان الجمال التي خلقها وينجذب إليها ويعشقها.

ولهذا ينبغي للعبد في كل أحواله إيلاء اهتمام لتزكية النفس، وتصفية القلب حتى تظهر تجليات الجمال والأنوار التي سوف تحرق الأهواء والشهوات الكامنة في قلبه.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾[٢٣].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها﴾[٢٤]

يقول رسول الله ﷺ:

«المؤمن مرآة المؤمن»[٢٥].

فأهل الله يصبحون بالنسبة إلينا مرايا مصقولة نظيفة، ونقية من كل الشوائب والغبار، لتشاهد أرواحنا ذاتها فيها. أي إن السالكين في درب الحقيقة يشاهدون في وجود هؤلاء جوهرَهم ووجودهم الحقيقي. وهذه المشاهدة ليست بالمشاهدة المادية الملموسة، وإنما مرآة القلب هذه ما وراء أبعاد المادة، فالإنسان يرى فيها أسرار عالمه الباطني. أي إن هذه المرآة ليست مرآة العالم الظاهري، وإنما مرآة العالم الباطني الداخلي. فلا ينعكس فيها الشكل والصورة، وإنما ينعكس فيها نور الحق سبحانه وتعالى. لذلك فإن الذين

---

٢٣ الأعلى: ١٤.

٢٤ الشمس: ٩.

٢٥ البخاري، الأدب المفرد، ٢٣٨؛ أبو داوود، الأدب، ٤٩/ ٤٩١٨.

ينالون فيوضاً من مرايا القلب تسري في دواخلهم سعادة لا مثيل لها، ويشعرون بجمال مختلف، ويسبِّحون الله بأحاسيس مختلفة. إنهم يغيبون عن وعيهم ويحلِّقون في عالم آخر، يودعون أنفاسهم ولا يجدون في قلوبهم إلا الحق سبحانه، إنهم يفنون في الحق.

ولأجل ذلك هناك ضرورة للارتباط بمرشد كامل والتخلق بأخلاقه للوصول إلى الكمال. فلا يمكن الوصول إلى السر الذي وصفه يونس أمره بقوله:

«الشريعة والطريقة طريق للسالكين، لكي يدخلوا إلى الحقيقة والمعرفة».

إلا من خلال دلالة المرشد الكامل.

C

ويبيِّن مولانا جلال الدين أهمية وضرورة الخضوع لتربية أحد الأولياء الذين هم ورثة الأنبياء من أجل تجاوز عائق النفس، والوصول إلى الحقيقة والمعرفة، وذلك بقوله:

«كيف يمكن تهذيب مقبض سكين من دون وجود سكين آخر؟ فاذهب واعرض جراحك على جرّاح قلب، فإنك لا تستطيع مداوتها بنفسك...».

«تعلَّم واسأل عن صحة الأحاسيس والأفكار الدنيوية من الطبيب، وتعلَّمْ صحة الأحاسيس الإلهية التي تعلو وترتقي بالإنسان إلى المرشد الكامل».



«ضع أُصبُعك على عينيك، فهل تستطيع رؤية شيء من الدنيا؟ لا شك أن هذا لا يعني أن العالم غير موجود. إن العيب والقصور ليس في العالم، وإنما في الأصبعين اللتين هما مثل شرور النفس».

«عليك أولاً رفع إصبعيك عن عينيك، ثم انظر إلى ما تريد. فالإنسان عبارة عن عين، وأما الباقي فهو جسد. ولا تُطلَق العين إلا على ما يرى الصاحب الحقيقي».

«أصلح شأن نفسك قبل أن تقرأ آيات القرآن الكريم وأحاديث رسول الله ﷺ. وإن كنت لا تشتم الروائح الطيبة والعطرة المنبعثة من بستان الورود، ففتش عن القصور والعيب في قلبك وأنفك، وليس في البستان...».

«لا يفهم معاني القرآن إلا من أشعل النيران في أهوائه وحوَّلها إلى رماد، ثم جلس أمام القرآن بكل تذلل وخشوع وحضور قلب...».

ويبين مولانا بأن سر التمكن من الوصول إلى مرتبة الفناء يكمن في التسليم المطلق للرب ﷻ، فيقول:

«إن مياه البحر تحمل الميت المستسلم لها بكليته على رأسها. وأما الحي الذي بين جوانحه أدنى قدر من التردد والاضطراب فأنى له النجاة من بين براثن البحر؟ وأنت أيها الإنسان إذا مت بالتحرر من صفاتك البشرية وفق سر الحديث النبوي «**موتوا قبل أن تموتوا**»، فإن بحر الأسرار سوف يحملك على رأسه ويجول بك حيثما شئت».



إن غاية خلق الإنسان هي معرفة ربه والخضوع بالعبودية له. وسِرُّ التمكن من الغوص في أعماق الحقيقة والأشياء يبدأ بالحصول ولو على قطرة من بحر المعرفة.

ويُعد الابتعاد عن نجمة الدنيا الفانية، والتخلي عن سائر أشكال الحب العابر الزائل ضرورة ملحة لبلوغ العبودية الحقيقية. وقد كان توجه إبراهيم بن أدهم إلى طريق التقوى وسلوكه نتيجة لتنبيه إلهي:

فذات ليلة وبينما كان إبراهيم بن أدهم نائماً على عرشه حدثت ضجة كبيرة فوق سطح القصر، وبدأت أصوات صرخات رجال ترتفع وتملأ المكان. فاستيقظ إبراهيم من نومه مفزوعاً، فهرع إلى البلاط وصرخ بأعلى صوته:

- من هناك؟ ماذا تفعلون فوق سطح القصر في منتصف الليل؟

فتناهى إلى مسامعه صوتٌ من بعيد:

- إننا نبحث عن إبل لنا ضلت يا سيدي!

فصرخ إبراهيم بن أدهم قائلاً:

- يا لكم من حمقى؛ هل حدث أن تفقَّد امرؤ إبله فوق سطوح المنازل والقصور؟!

فجاءه رد يتضمن الكثير من المعاني العميقة ويحمل طابع الإرشاد، إذ قيل:



- يا إبراهيم بن أدهم! ما نحن في حالنا هذا إلا مقتدين بك، فأنت الذي تسعى إلى الفناء في حب الله في الوقت الذي أنت فيه جالس على عرشك، مرتدياً تاجاً مرصعاً بالذهب، وثياباً من الحرير، وبيدك السوط الذي تكوي به ظهور القوم. إنك تعلم بأنه لا يمكن البحث عن إبل فوق السطوح، ولكن أفلا تعلم أيضاً بأنه لا يمكن البحث عن الله بهذه الحال؟!.

لقد تركت هذه الحادثة أثراً بالغاً في إبراهيم بن أدهم وزادت من حال الاضطراب الروحي التي كانت قد انتابته منذ فترة طويلة، وتركته في حيرة من أمره. ولكن إبراهيم لم يتخلَّ تماماً عن حياته القديمة.

إلا أن الإشارة الثانية التي جاءته أثناء خروجه في رحلة الصيد المعتادة جعلته سالكاً حقيقياً على طريق الحق:

إذ خرج إبراهيم بن أدهم ذات يوم في رحلة صيد كما هي عادته. وبينما يسير هو وحاشيته إذ ظهر ظبي من أمامهم، فجعل حصانه يجري خلفه حتى ابتعد عن جنوده بمسافة كبيرة. وصار العرق يتصبب من الحصان، إلا أن إبراهيم كان مصراً على اصطياد الظبي، فلم يتوقف عن حث حصانه على الجري خلفه ولو للحظة. وظل كذلك حتى حاصر الظبي واقترب من الإمساك به، وفجأة سمع هاتفاً وكأنه بلسان الظبي يناديه:

- يا إبراهيم! ما لهذا خلقت. أخلقك الله من العدم لتصطادني؟ وما الذي تكسبه من اصطيادي؟ ما الذي تحصله غير إزهاق روح؟.



أخذت هذه الكلمات بمجامع قلب إبراهيم، فتوقف وقفز من على ظهر حصانه على الأرض. ثم بدأ يجري هائماً على وجهه. وبعد مدة وجد نفسه وسط صحراء واسعة، فنظر حوله فلم يجد سوى راعياً يرعى بدوابه. فأسرع إليه وقال له متوسلاً:

- خذ ما علي من ألبسة الملك، ومجوهراتي، وحصاني وأعطني عباءتك! ولا تخبر أحداً بالأمر!

فأعطاه الراعي العباءة وعلامات الدهشة والحيرة بادية على وجهه، فارتداها إبراهيم بن أدهم في الحال وغاب عن الأنظار. وأخذ الراعي يقول لنفسه: «لا بد أن السلطان قد جُنَّ». والواقع أن إبراهيم بن أدهم لم يكن قد جن، وإنما عاد إليه عقله. فهو خرج لاصطياد ظبي، ولكن الله تعالى اصطاده بالظبي.

C

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهمنا جميعنا بالإصغاء إلى نصائح مولانا جلال الدين بقلوبنا، وأخذ العبر والعظات من أمثاله، والتخلق بأخلاقه! آمين.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«مَثَل أهل العرفان كمثل الدليل، ينفعون السائرين على الطريق. ولكن لا نفع للدليل لمن لم يسلكوا الطريق، كما أن أولئك الغافلون لا يعرفون قدر الدليل!».

«الطبيب يعطي الشفاء للمرضى، والمرضى الذي يئنون ويتقلبون من الألم يعرفون ذلك جيداً. ولكن أنى لميت إدراك قيمة الطبيب وأهميته؟».

«العمر يمضي بالنسبة للمتعلقين بالمستقبل بالأمل والرجاء، وأما بالنسبة للغافلين فإنه يفنى بالصراع، والصخب، والتعب والإجهاد».

«فاعقل أيها الإنسان، واعتبر أن عمرك هو اليوم الذي أنت فيه!.. وانظر مع أي الأحباب تمضي هذا اليوم؟»

«إن هذا العمر العاجز يمضي ويتناقص مع كل نفس وأنت إما مشغول بملء جيبك، أو صندوقك بالدراهم، وإما منشغل بتدبير الطعام والشراب».

«الموت يتخطفنا واحداً بعد الآخر، ومن شدة هيبته يرتجف العاقلون وتصفر وجوههم...».

«الموت يتربص على الطريق، والإنسان منشغل بالمتع والشهوات...».

«الموت كامن بين الحاجب والعين، إنه أقرب إلينا حتى من تذكرنا له... ولكن لا أدري أين ذهب عقل الذي غاص في الغفلة؟..».

C



يبين الشيخ غالب في أحد أبياته بأن الإنسان جوهر العالم والكون المصغر الذي هو التجلي الفعلي للأسماء الإلهية، وأن في قلبه مرآة القلب التي تجمع وتجذب إليها أعماق العالم السرية. فيقول:

«أيها الإنسان انظر إلى نفسك بعين القلب باستحسان، فأنت جوهر العالم وبؤبؤ عين الكون».

ولكن الإنسان على الرغم من أنه صفوة العالم إلا أنه يصبح إذا ما اتبع أهواءه ورغباته النفسانية أسفل سافلين، ويسقط في الذل والهوان، ويفقد كرامته وشرفه الإنساني. ويقول مولانا جلال الدين في هذا الشأن:

«يا أيها البلبل في بستان القلب! إنك ترتكب خطأ وحماقة كبيرة إذا ما حاولت تقليد طباع البوم! يا شتلة الورد في البستان! إنك تظلمين نفسك وتحطين من قدرها إذا ما حاولت مجاراة الشوك!»

اللهم أنر قلوبنا وعيوننا في هذا الدنيا بمشاهدة تجليات الحقيقة وأسرار العالمين في مرآة القلب، لنتشرف برؤية جمالك في العالم الأخروي!. آمين!..





إنك تجرح ليلى

«لولا العشق فمن أين للكون أن يكون؟ لولا العشق فمن أين للخبز أن يصير، ويطعمك نفسه، ويدخل إلى بدنك ويصبح أنت؟».

«اعلم بأن الخبز إنما بالعشق أعطاك نفسه، وتحول أنت بالفناء فيك».

مولانا جلال الدين الرومي

إنه مثل النهر عندما يصل إلى البحر ويصب فيه، فتنتفي منه صفة النهر ويأخذ لون البحر، وانسجامه، وشكله، ويصبح قطرة منه...



إنك تجرح ليلى

ذات يوم مرض مجنون وصار طريح الفراش من ألم الفراق. فدعا القوم طبيباً لعلاجه ومداواته. فقال الطبيب:

- ليس من علاج لمرضه سوى إراقة الدم من جسده!. ثم ربط يد مجنون من أجل إجراء الحجامة. ولما أخذ المشرط بيده وأوشك على قطع عرقه صرخ مجنون قائلاً:

- دعك من الحجامة أيها الطبيب! خذ أجرك وانصرف! ولا يهمني إن مت من هذا المرض. ما نفع هذا البدن الذي أصابه الوهن والضعف، فليمت؟!

فقال الطبيب وعلامة الدهشة تعلو وجهه:

- إنك لا تخشى السباع الضارية في البراري، فلم تخاف من مشرط الحجامة؟

فأجابه مجنون قائلاً:

أنا لا أخشى المشرط... فالجميع يعلم بأن صبري وجلدي صار أقوى من الجبل الأصم الذي يتحدى الصخور والعواصف العاتية! أنا الإنسان الذي لا يخشى من شيءٍ، ولا يمتلك من أموال هذه الدنيا حتى مثقال ذرة. وإن جسدي الفاني هذا لا يجد الراحة إن لم



يُجرَح! فالجراح مرهم لعشقي؛ وأنا أهيم على وجهي في كل مكان لأتلقى الجراح...

ولكن جسدي مليء بليلى؛ فليس في داخلي كائن سوى ليلى! إن بدني هذا الذي يماثل الصدف مليء بصفات تلك اللؤلؤة. فيا أيها الطبيب إنك بتمرير المشرط في جسدي تضرب به ليلى، وإني لأخشى أن تجرح ليلى...

فالخواص من عباد الله يعلمون تمام العلم بأن لا فرق بيني وبين ليلى.

المثنوي:

«لولا العشق فمن أين للكون أن يكون؟ لولا العشق فمن أين للخبز أن يصير، ويطعمك نفسه، ويدخل إلى بدنك ويصبح أنت؟ اعلم بأن الخبز إنما بالعشق أعطاك نفسه، وصار أنت بالفناء فيك».

«العشق يبعث الحياة حتى في الخبز الميت، فيضم روحه الفانية إليك، ويوصلها للخلود».

«واعلم بأن الإنسان الذي لم يمتلئ قلبه بالعشق والمحبة الإلهية بائس وتعيس؛ ولعله أقل مرتبة من الحيوانات. لأنه حتى كلب أهل الكهف بحث عن أهل العشق، فوجدهم، ووصل إلى الصفاء الروحي، ونال الجنة بالفناء في العباد الخواص».

C



ويقول يونس أمْره متمنياً نيل حظ من العشق اللاهب بين جوانح مجنون:

أنا مجنون ليلى،
أنا متيم الرحمن،
قد أجن،
لرؤية وجه ليلى!.

وأما الشاعر فضولي فيرغب بأن يبلغ في العشق مرتبة أعلى من مجنون ليلى، فيقول:

في داخلي استعداد للعشق أكثر من مجنون،
أنا العاشق الصادق وليس لمجنون إلا الاسم والشهرة!.

إن الذين ينظرون بعين البصيرة يجدون بأن كل الأشياء والكائنات المتناثرة في الكون إنما هي مظاهر للعشق والمحبة. إنهم يرون بأن كافة الكائنات إنما ظهرت من العشق والمحبة. فلو لم تكن المحبة الأبدية لما وُجد الكون. ويعلم العارفون بأن ظهور الكائنات إنما هو نتيجة لتلك المحبة الأبدية، لذلك فإن هذا الكون أُهدي لنور الوجود سيدنا محمد المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

وقد جاء في الحديث القدسي:

«كنت كنزاً مخفياً فأحببتُ أن أُعرَف، فخلقت الخلق لأُعرَف»[٢٦]

---

٢٦ راجع: إسماعيل حقي بورصوي، الكنز المخفي؛ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ١٣٢.



يتبين من هذه العبارة بأن الكون وكافة الكائنات وُجدت وظهرت بالمحبة الإلهية. فالله ﷻ قد خلق الكون وما فيه كدليل على كماله وصنعه. وصار وجودُ الإنسان الذي يُعدُّ بديع الصنع الإلهي المظهرَ الكامل للعشق والمحبة.

يقول يونس أمره عن العشق :

العشق إمامنا نحن أهل القلوب،

ووجه المحبوب قبلة الصلاة الدائمة...

فعشاق الحق أبدانهم مملوءة بالمحبوب الحقيقي.

ويعبر يونس أمره عن هذا اللغز المعقد فيقول:

رُكبت بلحم وعظم،

فظهر ما يقال له يونس!..

وفي الحقيقة يعلم أصحاب القلب السليم الذين هم الخواص من عباد الله بأنه لا فرق بين العاشق الحق وبين المعشوق الحقيقي. ويُعد حال يعقوب وابنه يوسف عليهما السلام مثال لهذا، إذ لما رأى يعقوب عليه السلام خصائصه ومزاياه في ابنه يوسف عليه السلام، مال إليه أكثر من أبنائه الآخرين. وقد حصلت وحدة الحال في هذه المحبة لدرجة أن يعقوب عليه السلام بدأ في مرحلة لاحقة يشتم رائحة قميص يوسف لما جيء به إليه من مصر وهو لا يزال موجوداً في أرض كنعان والقميص في مصر. ولم يكن أحد غيره يشعر بتلك الرائحة



الطيبة. واعتبر القوم أن قول يعقوب «إني لأجد ريح يوسف» نتيجة لتقدمه في السن وتعلقه بأوهامه القديمة.

لأن قميص يوسف كان أمانة مؤقتة بين يدي أخيه، وكان الأخ مكلفاً بأخذ القميص وتسليمه ليعقوب عليه السلام. أي كان ذلك القميص بين يد الأخ كمثل جارية لها شأن هام بين يدي رجل. ولم تكن لذاك الرجل، وإنما يأخذها من البائع إلى المشتري.

C

لقد خلق الله عزّ وجلّ جميع المخلوقات أزواجاً وجعل الوحدة منحصرة بذاته العلية دون سواه. وإن هذه الزوجية التي لم تكتشفها العلوم الطبيعية التجريبية إلا في وقت قريب أخبرتنا عنها الآيات القرآنية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، فكان ذلك هديةً علميةً للبشر.

وقد أُخضِعَ هذا الكون المنظم والممهد بعناية ودقة تفوق إدراك البشر لقانون زوجي عجيب وخاص يشمل ويتناسب مع طبيعة كل الموجودات القائمة فيه وذلك من الذرات، والحبوب، والخلايا، والنباتات، والحيوانات، والجمادات، والإنسان، وحتى الإلكترونات، والبروتونات المتناهية في الصغر وغيرها مما لا علم لنا به.

حيث يقول الله عزّ وجلّ:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢٧]

---

٢٧ يس: ٣٦.



ولكن قانون الزوجية الذي يحتوي على أدق وأجلى مظاهر التناغم والانسجام بلغ ذروة كماله في الإنسان.

فيبين الله تبارك وتعالى بأن هناك الكثير من الأسرار والحكم والآيات الخفية في مؤسسة الأسرة لمن يتفكر ويتدبر:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢٨]

فالتقاء إنسانَين غريبَين عن بعضهما بقصد الزواج بتقدير وتدبير خفي، وعلاقات ومشاعر المحبة والرحمة والأنس التي تتأجج وتنمو بينهما تتضمن مظاهر من القدرة الإلهية التي تستحق التوقف عندها والتفكير فيها ملياً. إن العلاقات والتوجهات والروابط المتبادلة بين الأحياء والجمادات، والأضداد والمترادفات داخل منظومة المخلوقات كلها تُظهر الميل للتوحد والتماثل لديها. أي إنها أثر من آثار الوحدة، لأن أصل الكل ذاته. فالميل للانتقال من عالم الكثرة إلى عالم الوحدة من جديد موجود في طبيعة الأشياء.

تجد الكائنات كمالها في الإنسان، وتكون نسبة الكمال فيه بقدر المحبة الموجودة في كيانه.

واستشعار الأزواج بوجود الله ﷻ بجسمانيتهم وروحانيتهم يقودهم من خلال الرابطة والمحبة الإلهية إلى الأسرار والرحلة

٢٨ الروم: ٢١.



الحقيقية المتجهة إلى الحق سبحانه وتعالى. ويمكنهم من الغوص في حكم وعبر وأسرار الخلق.

عادت ليلى بعد سنوات إلى مجنون، إلا أن مجنوناً لم يحفل ولم يهتم بها. فقالت ليلى:

- أليس أنت الذي هام على وجهه في البراري والصحارى لأجلي؟

فرد عليها مجنون:

- لقد خرجت ليلى الظل والمؤقتة من البين وذابت.

لقد صارت ليلى التي كانت غاية حياة مجنون خطوةً على طريق المحبة الإلهية. ولما وجد مجنون أن مكان الحقيقة التي بحث عنها قائم في عالم المحبة الإلهية انتهى دور ليلى في حياته.

إن ليلى التي وردت في حكايات المثنوي والتي تحولت في النهاية إلى المحبة الإلهية هي رمز العشق الإلهي.

وبعبارة أخرى؛ إن ليلى هي أفق المحبة الإلهية الذي يصيب القلوب بالجنون، وينهي الإرادة المادية.

ومن هذا المنطلق فإن مغامرات المحبة التي تبدأ ب «ليلات» تجد سكنها وطمأنينتها في المولى ﷻ.

إن ليلى هي في النهاية إنسانة عادية وقد بقيت كذلك. وأما عاشقها قيس فقد صار مجنوناً وتحول إلى أسطورة تتداولها الألسن.



ولكن من يدري إلى أي حال سيؤول العاشق إن كان معشوقه ليس بليلى، وإنما كان معشوقه سبب وجود الكون وحبيب الله.

دعونا نتبين هذا الأمر من خلال بعض الأمثلة. ولنبدأ بمنقبة عن مولانا.

C

عُين زوج غورجو خاتون التي كانت مريدة لمولانا جلال الدين أميراً على ولاية قيصري. فأرسلت غورجو خاتون رسام ونقاش القصر السلجوقي المشهور عين الدولة إلى مولانا ليرسمه بشكل سري ويأتيها بالرسم. فدخل الرسام على مجلس مولانا وبين له الأمر بكل غفلة. فتبسم مولانا وقال له:

- نفذ ما أُمِرْت به وأُرسِلت من أجله!

فجلس الرسام وبدأ بالرسم. ولكنه كلما انتهى من رسمه لاحظ بأن الصورة التي أفرغها على لوحته تختلف كلية عن الوجه الذي أمامه، ولا علاقة لها به ألبتة، فكان يبدأ بالرسم من جديد. وبذلك فقد شاهد خلال الرسم أن مولانا قد تغير شكله عشرين مرة. فأدرك عجزه، واضطر للتخلي عن تنفيذ المهمة التي جاء من أجلها. ثم انكب على يدي مولانا. لأن فنه قد ضاع داخل خطوطه ورسومه.

أيقظت هذه الحادثة الرسام، وغاص بحالة من الحيرة والدهشة، والاختلاج في تفكير عميق، وصار سائحاً في عالم الأنفس.



وتدفقت كلمات من لسان الرسام الذي تحول إلى مجنون في هذه الحالة، وهذه الكلمات هي:

إن كان هذا حال ولي من أولياء الدين، فمن يعلم كيف كان حال نبي هذا الدين؟

C

عاش الإمام مالك رحمه الله في شعور الاحترام للنبي ﷺ. فلم يركب ظهر دابة في المدينة المنورة، ولم يقض فيها حاجة. وكان يتحدث بصوت منخفض عندما كان إماماً في الروضة. ولما رفع خليفة عصره أبو جعفر المنصور صوته فيها، قال له:

- يا خليفة المسلمين! أخفض صوتك في هذا المكان! فقد نزل التحذير الإلهي على من هم أفضل منك. ثم قرأ قول الله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[٢٩]

وكذلك فإن الإمام مالك قد عفا عن والي المدينة الذي ظلمه واعتدى عليه، وتنازل عن حقه وسامحه، وقال:

«إني لأستحي أن أقف في المحشر مدعياً على رجل من أحفاد رسول الله ﷺ».

---

٢٩ الحجرات: ٢.



ويعبر الشاعر الأذربيجاني فضولي عن حبه للنبي ﷺ بقوله:

أيا أيتها العين لا تسكبي الدموع على النيران الملتهبة في قلبي!

الماء لا ينفع مع هذه النيران، فهي لا تنطفئ أبداً.

وقد صنع السلطان أحمد خان الأول مجسماً لأثر نعل رسول الله ﷺ، وعلَّقه على عمامته ليستلهم منه الفيوض، وعبَّر عن مشاعر التعظيم التي تتأجج بين جوانحه بقوله:

«لا عجب أن أحمل على رأسي أثر قدم سلطان الأنبياء مثل تاجي، فصاحبه زهرة بستان النبوة».

واعتبر السلطان ياووز سليم خان أن ولياً يوصله إلى حقيقة رسول الله ﷺ خيرٌ من الدنيا وما فيها، وعبر عن أهمية القرب من أهل الله وأحباب رسوله وشوقه إليهم بقوله:

«السعي للجلوس على عرش سلطنة العالم الظاهري مجرد صراع فارغ لا طائل منه؛ أما الارتباط بمرشد كامل أعلى من المقامات، وخير من الدنيا وثرواتها».

ويقول مولانا جلال الدين في هذا الشأن:

«المحبة تصفي المياه العكرة. والمحبة الحقيقية تحيي القلوب الميتة، وتجعل حتى السلاطين عبيداً».

ويُعد أحمد يسوي من كبار السائرين على طريق المحبة، وعلَماً من أعلام الوجد والعشق. حيث حفر حجرة صغيرة تحت الأرض



عندما بلغ الثلاثة والستين عاماً وقضى فيها السنوات الأخيرة من حياته بالعبادة، وهو القائل:

«لا تلزمني الحياة فوق الأرض بعد هذا العمر».

ولما سمع أويس القرني بخبر كسر أحد أسنان النبي عليه الصلاة والسلام في معركة أحد اقتلع كافة أسنانه لأنه لم يكن يعرف أي من أسنان رسول الله ﷺ قد كسر، وتخلص بكل سرور من حمل ذاك السن المجهول الذي من شأنه إفساد لذة وحدة الحال التي يعيشها.

وفي معركة أحد استشهد زوج إحدى نساء بني دينار وأخوها وأبوها. ولما وصلها خبر استشهادهم قالت لمن جاءها بالخبر:

- أرني رسول الله ﷺ حتى أنظر إليه! فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت :

- كل مصيبة بعدك جلل ـ أي صغيرة - يا رسول الله...!.

وكانت الصحابية خنساء تعيش قبل الإسلام حياة مليئة بالحزن والاضطراب لما نزل بها من المصائب بمقتل إخوتها، ولما أسلمت امتلأ قلبها بالسكينة والطمأنينة بمحبة الله ورسوله. ولما جاءها خبر استشهاد أبنائها الأربعة في معركة القادسية قالت بثبات ووجد إيماني كبير:

«الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم جمعياً في سبيل الله، ونصرة دينه، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته».



وقالت السلطانة زوجة السلطان محمود الثاني ووالدة السلطان عبد المجيد:

وُجد محمد من المحبة، وما نفع المحبة من غير محمد؟.

مشيرة إلى أن غذاء الروح لا يكون إلا من محبة رسول الله ﷺ.

وكانت الدموع تتساقط كاللآلئ من عيني شيخي المرحوم يامان داده لدى شرحه لأبيات المثنوي، وعندما كان يقول:

«أدمي القلب وتلونتُ باللون الأحمر القاني من الشوق إليك يا رسول الله.

لا أدري كيف احتملت هذا الهجران يا رسول الله!.

إن لم يُسرّ الأزل يبكي الفراق والوصل،

فأدخل السرور إلى قلبي فإني احترقت يا رسول الله!».

كانت تنفرج أساريره ويشع وجهه نوراً مثل البدر في الليلة الظلماء.

C

لقد كان الأنبياء والأولياء على مر التاريخ مصدراً للارتقاء بالإيمان وتكامله، ومثالاً لنضوج المشاعر القدسية الكامنة في الفطرة الإنسانية.

ويصل الإنسان إلى هذا النضوج نتيجة للأنس والألفة الروحية ووحدة الحال مع أهل الحق، ويحصل على شهادة سر الخلود المزينة بالكمال الإلهي.



يمكن للإنسان تحقيق وحدة الحال مع رسول الله ﷺ ومع واحد من أهل الله الذي يقوده إليه من خلال التأسي برسول الله ﷺ وأهل الحق، وجعل نفسه مرآة عاكسة له.

كان أكثر الناس شعوراً وإحساساً برسول الله ﷺ في داخله ونيلاً للحقيقة المحمدية هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وقد قضى طيلة حياته بلوعة وحرقة هذه المحبة. إذ عاش أجمل وأفضل حالة وحدة الحال مع رسول الله ﷺ. يقول الإمام البخاري:

«إن أبا بكر الصديق رضي الله عنه شكا من عدم غياب رسول الله عن عينيه حتى في خلائه، لشدة تعلقه به».

وتأكيداً على هذا التعلق الشديد والحالة الروحانية التي كانت بين أبي بكر والنبي عليه الصلاة والسلام، فقد قال رسول الله ﷺ لما كان على فراش الموت:

«سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد، غير خوخة أبي بكر» [30]

C

أصابت الشيخ عبيد الله أحرار حال من قشعريرة البرد والرجفان، فأشعل من كان حوله ناراً في محاولة منهم لتدفئته وتهدئته. وفي تلك اللحظة دخل عليهم أحد مريديه والذي كان في وحدة حال معه وهو يرتجف، إذ كان قد صُبَّ عليه ماء بارد. فأسرع الحضور إلى تنشيفه

٣٠ البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٣، المساجد، ٨٠.



وتدفئته. فلما هدأ وسرى الدفء في جسد المريد، توقفت فجأة حالة الرجفان والقشعريرة التي كانت قد انتابت عبيد الله أحرار.

وكان أبو يزيد البسطامي قد بلغ مبلغاً عظيماً في رقة المشاعر والأحاسيس من المحبة الإلهية، لدرجة أنه كان يشعر باضطراب وآلام المخلوقات جميعها ويتألم لألمها.

فقربنا بقدر أُنسنا وأُلفتنا، إذ عندما يغني البلبل لا يتردد من الجبل المقابل صدى صوت آخر.

سئل علي بن أبي طالب عن كثرة محبته لأحد الناس، فقال:

«بلى! وهو يحبني بقدر محبتي له».

أي إن وحدة الحال ليست شيئاً مغايراً للوحدة المادية، فهي مثل الأواني المتداخلة والمتلاصقة ببعضها. ويحدث ذلك بالرابطة.

والرابطة في التصوف هي إبقاء المحبة في حالة من الحيوية الدائمة. وهذه المحبة تكون لله، ولرسوله، وللعباد الصالحين. ويجعل الإمام الغزالي «التحيات» التي نقرأها في الصلاة مثالاً لهذه المحبة. فيقول مبيناً بأن حضور القلب شرط في الصلاة:

«يلزم عند قول (أيها النبي ورحمة الله) في الجلسة الأولى والأخيرة في الصلاة تخيل النبي عليه الصلاة والسلام في القلب!».

والحق أن التحيات في الصلاة تُعد أجمل تعبير عن الاستفادة من المحبة.

ينبغي للمؤمن المصلي بذل جهده لنيل حظ من روحانية «التحيات». فالجملة الأولى من التحيات:

«التَّحيَّاتُ للهِ والصَّلَواتُ والطَّيِّبَاتُ».

هي حمد وثناء وتعظيم رسول الله في ليلة المعراج لربه سبحانه وتعالى. فهذه الكلمات المباركة هي العبارة التي ألهم الله بها قلب رسوله الكريم في ليلة المعراج عندما قرّبه إليه وأمره بالتحدث.

وأما الجملة الثانية:

«السَّلاَمُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ»

هي تكريم خاص من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ.

وأما الجملة الثالثة:

«السَّلاَمُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ»

فهي رد رسول الله ﷺ على سلام الله ﷻ. وقد أدخل النبي عليه الصلاة والسلام في هذا السلام الصالحين من أمته بمقتضى رحمته وشفقته الواسعة.

أعجب جبريل عليه السلام بهذا الحديث الجميل فنطق بالشهادة قائلاً:

«أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُه»

تبين هذه الشهادة المكانة العظيمة لمقام التوحيد والعبودية، ومن جهة أخرى تفيد بضرورة الصلاة على النبي ﷺ في كل مرة يُذكَر اسمه.



والحاصل؛ إن دعاء «التحيات» المتكون من كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ، وجبريل عليه السلام لطف وبركة إلهية لأمة محمد ﷺ، وعناية ربانية خاصة بها. لذلك فإن انتفاعنا من روحانية هذا الدعاء عند قراءته يكون بمقدار نضجنا القلبي.

أي ينبغي للعبد الابتعاد عن الغفلة والتوجه إلى الله تعالى بهذه العبارات بقلب ممتلئ بالتعظيم لله تعالى ومحفوف بروحانية رسول الله ﷺ وجبريل عليه السلام، وبذلك يسعى لأن ينال نصيباً من سر الحديث النبوي «الصلاة معراج المؤمن».[٣١]

ولا بد هنا من الإشارة إلى الأمر الآتي: وهو أن المحافظة على الخشوع وحضور القلب من بداية الصلاة وحتى نهايتها بالمعنى الكامل أمر صعب وشاق، ولا يستطيع تحقيقه إلا كبار أولياء الله وبشق الأنفس. ولكن علينا أن نعلم بأن نسبة الأمل بقبول الصلاة بالنسبة للمصلي متوقفة على نسبة الخشوع، وذلك بأي ركن من أركان الصلاة كان. ولذلك ينبغي للمصلين بذل غاية جهدهم للالتزام بالخشوع في الصلاة قدر المستطاع، لأن الخطاب الإلهي شديد في هذا الشأن، حيث يقول الله تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٣٢]

---

٣١ السيوطي، شرح ابن ماجه، ١، ٣١٣.

٣٢ الماعون: ٤- ٥.

فالصلاة الحقيقية هي الصلاة التي تؤدَّى بخشوع. حيث جاء في الآية القرآنية:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ. الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[33]

حتى إن الخشوع يشمل ويحيط بكافة نواحي حياة المؤمن. لذلك فإن مولانا جلال الدين يفسر قول الله تعالى في سورة المعارج:

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾[34]

«إن حياتهم وحالهم بعد الصلاة كما هي في الصلاة».

ولا بد للوصول إلى هذه الحالة من التخلق بأخلاق النبي ﷺ السامية وتحقيق وحدة الحال معه من خلال رابطة قلبية صادقة ومخلصة.

لا شك أن الإنسان عندما يشعر تجاه رسول الله بأحاسيس روحانية، ويفرغ روحه من كافة الصلات والأمور المتعلقة بالعالم الخارجي، فإنه يكون وقتها على طريق وحدة الحال معه، وأكملَ رشده.

لم يستطع أحد وصفه بشكل تام، ولم يعرف أحد طبيعة خلقه. وحتى جبريل عليه السلام قال عندما وصل معه ليلة المعراج إلى سدرة المنتهى:

---

٣٣ المؤمنون: ١ - ٢.

٣٤ المعارج: ٢٣.



- تقدم يا محمد فإلى هنا ينتهي عروجي، فما منّا إلا له مقام معلوم!

وكان كل صحابي من الصحابة الكرام يغترف من نبع النبي عليه الصلاة والسلام ويحس به بقدر استعداده وطاقته، ويشاهده من نافذة وجده.

تقول أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«كنت أخيط في السحر فسقطت مني الإبرة فطلبتها فلم أقدر عليها، فدخل رسول الله ﷺ فتبينت الإبرة بشعاع نور وجهه...».

ويقول مولانا جلال الدين:

«خُلق العالَمان من أجل قلب واحد. فأمعنوا التفكير بمعنى حديث: (لولاك لولاك ما خلقت الأفلاك!)».[35]

اللهم اجعلنا من أهل المحبة الذين امتلأت قلوبهم بالحكم والأسرار الإلهية، وارزقنا صحبة عبادك الصادقين في الدنيا والآخرة!..

آمين!

---

٣٥ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ص، ١٦٤/ ٢١٢٣.







حارس حي ليلى

لما رأى سلطانُ العصر ليلى أصابته الحيرة والدهشة، فقال:

«هل أنت ليلى التي سلبت عقل مجنون وجعلته هائماً على وجهه في البراري؟ ما أرى فرقاً بينك وبين بنات جنسك!..».

فردت عليه ليلى:

«اصمت! فلا يحق لك التكلم لأنك لست المجنون!..».

«اصمت فأنت لست المجنون! ليلى مجرد جسم في عين من لم ينالوا العشق وينهلوا من معينه!..».

مولانا جلال الدين الرومي



حارس حي ليلى

ذات مرة كان مجنون الذي هام على وجهه في البراري والصحاري بسبب عشق ليلى يحتضن كلباً أجرباً يسيل اللعاب من فمه، ويقبل عينيه ويمسح بيده على جسمه بكل لطف وحنان. فصرخ به أحد المارة قائلاً:

- أيها المجنون الأبله! ما الذي تفعله؟ لمَ تحضن هذا الحيوان الحقير وتقبله؟

فرد عليه مجنون:

- كيف لك أن تفهم ما أفعله وأنت لا ترى من هذا الحيوان سوى صورته، وشكله، وجسمه؟ ادخل إلى الأعماق ولا تقف على الشاطئ، ادخل إلى عالم الروح وانظر إليه بعيني!

أتدري ما الذي يمتاز به هذا الكلب؟! إن في هذا الكلب سراً إلهياً عجزتُ عن إدراكه وفهمه. لقد خبأ الله في قلبه كنز المحبة والوفاء لصاحبه. انظر حولك؛ لقد رحل الجميع عن الديار إلا هو، فقد سكن في حي ليلى وصار حارساً له!

لا تقل إنه كلب فحسب، وإنما انظر إلى همته. إنه بالنسبة لقلبي قطمير ذو الوجه المبارك. إنه عالم سروري وحزني، إني لا أستبدل



شعرة منه بقطيع من السباع. ستعرف فضله إذا نظرت إلى قلبه، وروحه، وعرفانه! فحتى التراب الذي وطأته أقدام الكلب الذي سكن ديار ليلى عزيز على قلبي...

المثنوي:

«وأنكم إن تجاوزتم الصورة والشكل أيها الرفاق، وتخلصتم من النفس ودخلتم عالم الروح، فستجدون فيه الجنة ورياض في رياض».

«أيها السالك! عندما تحطم صورة الذات المليئة بالوهم، والوسوسة، والكبر، أي عندما تتخلص من نفسك التي هي أم كل الأصنام، فإنك تكون قد تعلمت أن تحطم كل الأصنام في داخلك».

«وبعد ذلك تستطيع أن تحطم كل صورة، وصنم، وتكون مثل حيدر تقتلع باب خيبر، ومثل إبراهيم الخليل تحوِّلُ النار إلى بستان ورود».

C

وردت في المثنوي حكاية أخرى لليلى:

لما رأى سلطانُ العصر ليلى أصابته الحيرة والدهشة، فقال:

«هل أنت ليلى التي سلبت عقل مجنون وجعلته هائماً على وجهه في البراري؟ ما أرى فرقاً بينك وبين بنات جنسك!».

فردت عليه ليلى:

- «اصمت! فلا يحق لك التكلم لأنك لست المجنون!».



لم يكن جمال ليلى بالنسبة للناظرين إليها من الخارج أكثر من جمال غيرها من الفتيات. وكان جنون قيس بحبها بسبب رؤيته جمالها الداخلي. ولأن السلطان لم ينظر إلى ليلى بعين مجنون فإنه عجز عن رؤية أسرار المحبة الكامنة فيها. فكان يجب لرؤية هذه الأسرار التغافل عن جمال ليلى الخارجي، والتركيز على الجمال الإلهي المتقد في داخلها.

وقد حارَ البلهاء من الناس الذين يجهلون هذه الحقيقة من حال مجنون، وقالوا له:

- أيها المجنون! دعك من ليلى؛ فإن حسنها ليس طاغياً، إن جمالها أمر عادي. فهناك مئات الآلاف من الفاتنات الأجمل منها، وكأنهن الأقمار في مدينتنا.

فأجابهم مجنون بقوله:

- إن الجسم المادي والصورة والشكل كالوعاء، والحسن والجمال فيض إلهي فيها. إنكم ترون ظاهر الوعاء، ولا تدرون شيئاً عما في داخله! فالجمال الذي بداخله مثل قاصرات الطرف في الخيام، فلا تنظرن إلى غير سيدهن، ولا تبدين لأحد سواه».

لذلك يقول الشيخ سعدي الشيرازي ـ رحمه الله ـ:

«ينبغي النظر إلى حسن وجمال ليلى من نافذة قلب مجنون».

فمهما قيل عن قيس المجنون، فإنه يظل صاحب عقل حقيقي قد فني في المحبة الإلهية، لأنه ما أكثر الذين يُعتقد بأنهم شعلة من



الذكاء والعقل الراجح، ثم ننظر فنجد بأنهم محرومون من القدرة على التفريق بين الشر والخير، فمصير مثل هؤلاء البؤس والتعاسة في الدارين. وانطلاقاً من ذلك يقول مولانا جلال الدين:

«لا تقل عن عاقل العشق مجنوناً! لا تقل عمن دخل مع الروح في الرداء ذاته كذاباً! لا تسمي البحر الذي لا قرار ولا شطآن له كأساً! فهو يعرف اسمه بنفسه!».

تعد الكلمات الآتية التي قالها يونس أمره وهو في قمة العشق الإلهي الذي كوى وأحرق قلبه أجمل تعبير عن جنونه في العشق:

أمشي على الطرقات مترنحاً،
وقد لون العشق جسدي وروحي بلون الدم.
لست عاقلاً ولا مجنوناً،
فتعال وانظر ماذا فعل بي العشق؟
أهبُّ أحياناً مثل الرياح،
وأتموج أحياناً كالسيول؛
فتعال وانظر ماذا فعل بي العشق؟

C

علينا أن نعرف بأن حكايات ليلى التي مر ذكرها عبارة عن تشبيه مجازي. فليلى هي رمز العشق الإلهي، وأفق المحبة الإلهية.

فرؤية ليلى ومشاهدة هويتها الحقيقية متوقفة على التحول إلى عاشق صادق ومخلص مثل مجنون. وإلا فإن الأشياء المشاهدة



ليست سوى صور وأشكال لا أكثر. فليلى ليست إلا مجرد جسم بالنسبة لمن ينل حظاً من ذاك العشق.

يعبر مولانا عن هذه الحقيقة بقوله:

«إن كل نعمة ومحنة تبدو للبعض جنة، وللبعض الآخر جهنماً...».

«وإن في كل الكائنات التي تراها- سواء أكان إنساناً، أم حيواناً، أم نباتاً أم جماداً- غذاءً وسماً. ولكن ليس باستطاعة الجميع رؤية ذلك!»

«الوعاء ظاهر أمام الجميع، ولكن الإكسير الذي فيه مخفي؛ ولا يعلم به إلا من تذوقه».

«كانت صورة يوسف تشبه كأساً. ولما شرب أبوه من كأس المحبةَ التي تبعث في الإنسان الروح، فرح وطرب. وأما إخوة يوسف فقد شربوا من كأس السمّ فازدادوا بغضاً وحسداً وحقداً على يوسف».

«وأما زليخة فقد شربت من كأس يوسف إكسيراً مختلفاً، فتجرعت بالعشق الدنيوي مسكراً مختلفاً».

«إن شراب المحبة الموجود داخل الوعاء من عالم الغيب، وأما الوعاء فهو من هذا العالم. فالوعاء ظاهر، وأما محتواه فشديد الخفاء؛ ولا يبدو إلا لأهله».



«وإن هذا الشراب العذب الطيب لا يذيق نفسه لمن لم ينالوا نصيباً من العشق، والمحبة، والأسرار الإلهية. فالذين امتلأت قلوبهم بالفساد والشهوات والأهواء لا ينالون هذا السر المعنوي أبداً، ولكن هذا السر ظاهر وبيّن لمن استأنسوا بالعشق وذابوا به مثل البدر في الليلة الظلماء».

C

لما اتخذ الله ﷻ إبراهيم عليه السلام خليلاً، قالت الملائكة:

«يا رب! كيف لإبراهيم أن يكون خليلك؟ فله نفس، ومال، وولد؛ وإن قلبه ميال لكل ذلك...».

ثم شهدوا هذا الامتحان والابتلاء الكبير الذي تعرض له سيدنا إبراهيم عليه السلام:

فلما قُذف إبراهيم عليه السلام بالمنجنيق في النار اضطربت الملائكة. واستأذن بعضها من الله تعالى لمساعدة إبراهيم عليه السلام. ولما سألت الملائكة إبراهيم إن كان له مطلب، قال لهم:

- لا تدخلوا بين الخليل وخليله!

ثم بعد ذلك جاء جبريل عليه السلام، وسأله:

- هل لك حاجة بي؟

فقال إبراهيم عليه السلام:

- لا حاجة لي بك. فهو حسبي ونعم الوكيل!



ونتيجة لهذا التسليم العظيم الذي أبداه خليل الله وتوكله التام على ربه وحده، أمر الله تعالى النار قبل أن يسقط فيها، فقال:

﴿...**يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ**﴾[٣٦]

وبهذا الأمر الإلهي تحوّل المكان الملتهب بالنار الذي سقط فيه إبراهيم عليه السلام إلى جنة. وبدأ يتدفق من هناك نبع ماء عذب فرات.

ولما اقتاد إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل لتقديمه قرباناً تنفيذاً للعهد الذي قطعه على نفسه لله تعالى اضطربت الملائكة، ثم قالت:

- إن نبياً يقتاد معه نبياً لتقديمه أضحية وقرباناً!

وأما إسماعيل عليه السلام فقد قال لأبيه إبراهيم عليه السلام:

- يا أبتي افعل ما تُؤمَر، ستجدني إن شاء الله من الصابرين. اذبحني بسكين مشحوذ ليسهل علي خروج الروح... ولا تنظر إلى وجهي عند ذبحي كي لا تأخذك عاطفة الأبوة فتمتنع عن تنفيذ أمر ربك. وإن ما يحزنني هو أن لا تنسى مدى عمرك ألم وحسرة ابنك الذي ذبحته بيدك.

وبينما كان الأب والابن في بحر التسليم لله تعالى، وقد مضيا لتنفيذ أمر ربهما إذ بجبريل عليه السلام ينزل إليهما فيعطل صفة القطع في السكين، ويأتيهما بكبش من الجنة.

---

٣٦ الأنبياء: ٦٩.



أكرم الله تعالى إبراهيمَ عليه السلام بقطيع كبير من الغنم يصعب عدّه وإحصاؤه. فجاء جبريل عليه السلام بهيئة إنسان وسأله:

- لمن هذا القطيع؟ وهل تبيعني بعضاً منه؟

فقال إبراهيم عليه السلام:

- هذا القطيع لربي. وهو أمانة بين يدي. فإن ذكرته مرة خذ ثلثه؛ وإن ذكرته ثلاثاً فخذه كله!.

فقال جبريل عليه السلام:

«سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّنا وَرَبُّ الْمَلائِكَةِ وَالرُّوحِ».

فقال إبراهيم عليه السلام:

- إليك كله!

قال جبريل عليه السلام:

- أنا لست بإنسان، وإنما ملك، فلا أستطيع أخذه.

فقال إبراهيم عليه السلام:

- إن كنت ملكاً، فأنا خليل الله. ولا أعود عمّا أعطيت.

ثم باع إبراهيم عليه السلام القطيع كله، فاشترى بثمنه أرضاً ووقفه لله عز وجل.

لقد امتُحِن إبراهيم عليه السلام بروحه، وولده، وماله. وخضع لأمر ربه عز وجل بتسليم عظيم، ووصل إلى العبودية المطلقة، وصار خليل الله.

C



لقد قال جنيد البغدادي استلهاماً من هذا الإكرام الإلهي الذي أكرم به سيدنا إبراهيم عليه السلام:

«لو أن بيني وبين الله تعالى بحر من نار لألقيت بنفسي فيه لشدة اشتياقي إلى ربي».

يبين مولانا هذا الأمر بقوله:

«الدخول إلى نار في سبيل الله وارد. ولكن قبل الإلقاء بالنفس في النار، على الإنسان البحث في نفسه عما إذا كان قد حقق الحالة الإبراهيمية أم لا! لأن النار لا تعرفك وإنما تعرف إبراهيم وأمثاله فلا تحرقهم!».

C

يقول مولانا ـ رحمه الله -:

«إن القرآن الكريم هو أحوال الأنبياء وأوصافهم. فعندما تتلو وتطبق القرآن الكريم بخشوع تتخيل نفسك مع الأنبياء والأولياء! وعندما تقرأ قصص الأنبياء يصبح قفص البدن ضيقاً على طائر الروح».

«فنحن لم نتخلص من قفص البدن إلا بهذه الطريقة. وليس من سبيل للخلاص من ذلك القفص إلى هذا الطريق، أي طريق التوحيد».

إن المقصود بتحطيم الصورة هو اتباع أمر: «موتوا قبل أن تموتوا». فالذين يموتون قبل الموت يفتحون أعينهم على ربيع



الحقيقة، ويتحررون من الصور. ويجدون الحياة في حقيقة رسول الله ﷺ. حيث جاء في القرآن الكريم:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[٣٧]

فرسول الله ﷺ سبب لخلق الأشياء. والغاية هي نيل نصيب من هذه الرحمة الإلهية، والفناء في الله ورسوله.

لهذا فإن الإمام مالك رحمه الله تعالى لم يكن يركب على دابة في المدينة المنورة، ولم ينتعل حذاءً احتراماً وإجلالاً للتراب الذي وطأه رسول الله ﷺ. وعندما كان يأتيه أحدٌ للسؤال عن حديث النبي ﷺ، كان يتوضأ، ثم يضع عمامته، ويتطيب، ويجلس في مكان مرتفع، وبعدها يأذن له بالدخول. فكان يحضر نفسه لروحانية رسول الله ﷺ، ويظهر عظيم الأدب لنقل ورواية أحاديثه المباركة.

وفي العهد العثماني كان موكب الصرة المتوجه إلى المدينة المنورة يخيم قبل الدخول إليها في مكان قريب منها، ثم يعدون أنفسهم للدخول إلى أجواء المدينة الروحية، ثم بعد الاستخارة وتلقي الإشارة المعنوية كانوا يقتربون من حضرة رسول الله ﷺ، ويؤدون واجب الزيارة.

وكذلك كان الولاة العثمانيون المكلفون بإدارة شؤون المدينة

٣٧ الأنبياء: ١٠٧.

المنورة، كانوا يركنون عرباتهم بعيداً عن المدينة، ويدخلون إلى حضرة رسول الله ﷺ سيراً على الأقدام تأدباً معه.

ولما كان السلطان العثماني عبد العزيز مغشياً عليه على فراش المرض، قيل له:

- لقد جاءتك رسالة من المدينة المنورة!

فرفع رأسه على الفور وقال:

- أعينوني على الوقوف، أريد أن أستمع إليه واقفاً على قدمي! فليس من الأدب الاستماع إلى مطالب من هم بجوار رسول الله ﷺ وأنا ممدد على الأرض!

يُعد هذا المشهد من أجمل مظاهر محبة السلاطين العثمانيين للمدينة والمنورة ولرسول الله ﷺ.

وكانت والدة السلطان عبد المجيد تأمر بحمل الماء العذب من الشام على ظهور الجمال إلى الحرمَين لسقاية الحجيج منه.

وفي عام / ١٦٧٨م / خرج الشاعر نابي في رحلة الحج مع رجال الدولة. فلما اقتربت القافلة من المدينة المنورة لم يتمكن الشاعر من النوم لشدة شوقه وحماسه. ورأى أثناء نوم الناس أن أحد الأعيان قد مد في غفلة منه رجله باتجاه المدينة المنورة. فتأثر نابي من هذا المشهد كثيراً، وبدأ بكتابة أبياته المشهورة في مدح النبي ﷺ:



«إياكم وترك الأدب في هذا المكان فإنه محل نظر الله، ومقام حبيب الله النبي محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام وبلدته».

«يا نابي! ادخل المقام مراعياً مبادئ الأدب! فإن هذا مقام مبارك حيث تطوف فيه الملائكة كالفراشات وحيث قبَّل جميع الأنبياء عتبته بتأدب!».

C

ويبين سليمان جلبي في إحدى قصائده بأن الشمس التي تضيء العالم كله قد انجذبت إلى رسول الله ﷺ وصارت تدور حوله كالفراشة التي تحلق حول السراج. أي إنه حتى الجمادات قد أصبحت عاشقة للنبي عليه الصلاة والسلام.

إن المؤمنين الذين يتحلون بهذه الروح الرقيقة والحس المرهف اعتبروا بأن التحليق حول روحانية رسول الله ﷺ كالفراشات والفناء في سبيله للوصول إلى الحقيقة المحمدية من أعظم النعم الدنيوية، فنالوا بذلك رضا الله سبحانه وتعالى.

C

نورد فيما يأتي مثالاً للمحبة التي كانت قائمة بين رسول الله ﷺ وجعفر الطيار:

لما عاد جعفر رضي الله عنه من الحبشة إلى المدينة المنورة، وعلم بخروج النبي عليه الصلاة والسلام إلى غزوة خيبر سارع إلى اللحاق



به والانضمام إليه. ولدى وصوله إليه تلقَّاه رسول الله ﷺ، فلما نظر جعفر إليه حجل كالطفل الصغير، أي يعني مشى على رجل واحدة فرحاً برؤية رسول الله ﷺ وإعظاماً له، فعانقه رسول الله ﷺ وقبَّل بين عينيه وقال:

«ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً بقدوم جعفر، أم بفتح خيبر؟»[٣٨]

وقال رسول الله ﷺ لجعفر رضي الله عنه:

«أشبهت خَلْقي وخُلُقي»[٣٩]

وكان جعفر رضي الله عنه أحد أمراء الجيش الذين عينهم النبي ﷺ في معركة مؤتة، وكان ترتيبه الثاني بعد زيد رضي الله عنه. ولما استشهد زيد حمل الراية عنه. فطعن خلال سير المعركة وفقد على إثرها كلتا ذراعيه. ولكي لا تسقط راية رسول الله ﷺ أخذ يضمها إلى صدره بالجزء المتبقي من ذراعيه المقطوعتين. كان رسول الله ﷺ يرى هذا المشهد الحزين وهو في المدينة المنورة، ويخبر من حوله بعينين دامعتين بإصابة واستشهاد الذي جعل روحه فداء لله ورسوله، وقال:

«إن الله أبدله جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء»[٤٠]

ثم مسح بيديه على رأس أبناء جعفر وقال: «أبناء ذي الجناحين».

---

٣٨ ابن هشام، ٣/ ٤١٤.

٣٩ البخاري، المغازي، ٤٣؛ مسلم، الجهاد، ٩٠/ ١٧٨٣.

٤٠ إبراهيم جانان، شرح وترجمة الكتب الستة، منشورات آكجاغ، ١٢/ ٤٨٩.

كان جعفر ﵁ متيماً بحب الله ورسوله، وصار مظهراً لتكريم وتقدير كبير من الله ورسوله، فغاص في أعماق الروحانيات، ووفِّقَ للتضحية بروحه على ذاك الطريق لينال في النهاية رضا خالقه.

C

كأن مولانا جلال الدين يتحدث في أبياته الآتية عن جعفر ﵁ وأمثاله، حيث يقول:

«إن مدى أبصار الأنبياء والأولياء ونطاقها أوسع من البحر، فتبدو لهم الدنيا والآخرة مثل شعرة».

«وإن دخلت آلاف السماوات في تلك الأبصار فإنها تبقى كنبع بجانب البحر».

«لقد تجاوزت تلك الأعين كل شيءٍ في هذا العالم المحسوس، وأشرفت على عالم الغيب، فصارت مظهراً للتجليات والفيوضات».

«ولو نزلت قطرة دمع من تلك العيون السامية والمقدسة لتلقفها جبريل ؑ».

«ولمسح بتلك القطرة على جناحه بإذن من ذاك النبي أو الولي صاحب مذهب العشق الجميل».

عندما أراد المسلمون الخروج إلى غزوة تبوك جاء إلى النبي ﷺ سبعة من فقراء الصحابة طالبين منه ما يركبونه من دواب للخروج مع الجيش، ولما قيل لهم:



- ليس هناك من دواب..

رجعوا وهم يبكون. فلقيت هذه الدموع الطاهرة المتساقطة في سبيل الله تعالى القبولَ الإلهي، ونزلت فيهم الآية الكريمة:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾[٤١]

فقدَّمَ لهم ابن عمر، والعباس، وعثمان ﷺ ما يركبونه والطعام، واصطحبوهم معهم في تلك الغزوة.

يقول الله تعالى في الآية الآتية:

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ...﴾[٤٢]

فإن مَثل من ينكب على الدنيا ويغوص فيها كمثل من ينخدع في الصحراء بالسراب ويبحث عما يواسيه في الأوهام والخيالات.

وجاء في الحديث الشريف:

«**الدنيا حرام على أهل الآخرة، والآخرة حرام على أهل الدنيا، ...**»[٤٣]

C

---

٤١ التوبة: ٩٢.

٤٢ الحديد: ٢٠.

٤٣ علي المتقي، كنز العمال، رقم: ٦٠٧١.

ذات مرة أتي إلى رسول الله ﷺ بأسرى الحرب. فذهبت السيدة فاطمة رضي الله عنها إلى أبيها النبي عليه الصلاة والسلام وطلبت منه خادماً يقوم بأعمالها. ولكن رسول الله ﷺ وجه ابنته التي هي أحب الناس إليه في الدنيا، إلى السعادة الأبدية قائلاً:

«اتقي الله يا فاطمة، وأدي فريضة ربك، واعملي عمل أهلك، فإذا أخذت مضجعك فسبحي ثلاثا وثلاثين، واحمدي ثلاثا وثلاثين، وكبري أربعا وثلاثين، فتلك مائة، فهي خير لك من خادم».

فقالت السيدة فاطمة رضي الله عنها بكل رضا وتسليم:

- رضيت عن الله عز وجل وعن رسوله ﷺ!.

فلم يعط النبي ﷺ خادماً لابنته التي لم يحب أحداً مثلها.[44]

وجاء في رواية أخرى أن السيدة فاطمة رضي الله عنها قد جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام واشتكت ما تلقى من أثر الرحى، وجلب الماء في يدها، وطلبت منه خادماً. فقال رسول الله ﷺ:

«والله لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم، ولكني أبيعهم وأنفق عليهم أثمانهم».[45]

واليوم؛ ما مدى إحساسنا بمبدأ الأخوة الإسلامية تجاه إخواننا في الدين الذين يتعرضون لمختلف أشكال الظلم والاضطهاد،

---

44 أبو داود، الخراج، ١٩- ٢٠/ ٢٩٨٨.

45 أحمد، مسند، جـ ١/ ١٠٦/ ٨٣٨.



ويئنون في العراء من الجوع، والعطش، والبرد، والحر، وما مدى اشتراكنا في آلامهم ومعاناتهم، وما مدى التضحية التي نقوم بها لأجلهم سواء بالمال أو النفس؟

كم مرة وكم من الفقراء الذين تقاسمنا معهم طعامنا وشرابنا؟ كم من المرضى والمساكين الذين ساهمنا في مداواة دائهم وجروحهم؟ وكم من المضطربين الذين ساهمنا في تسكين آلامهم واضطرابهم؟ وكم من المهمومين الذين واسيناهم وأدخلنا البهجة والسرور في قلوبهم بابتسامة وجوهنا؟ وكم سعينا وجهدنا بقلب شفوق لتخليص التائهين عن طريق الهداية من تيههم وضلالهم؟ لـِمَ نحيا في هذه الدنيا؟ هل نفكر بأسرار قدومنا إليها، وبرحلة مغادرتنا عنها؟ كيف ستستقبلنا أيامنا القادمة؟ كم ساعة في اليوم نعيش في عالم القلب؟ هل تسبب لنا حالتنا التي نحن فيها تأنيب الضمير والوجدان؟

يا رب! اجعلنا جميعاً من عبادك الخواص الذين تمتلئ قلوبهم بالعشق والمحبة الحقيقية، وارزقنا نصيباً من إيثار النبي ﷺ!.

آمين!..

E





الكذب الذي في المرآة

«أيها السالك! انظر إلى النقش الأخير في المرآة! فكِّر بالقبح الكامن في شيخوخة الجميل، وبالخراب الذي سيؤول إليه البناء الجديد، ولا تنخدعن بالكذب الذي يبدو في المرآة!..».

«أنت يا من تُعجَب وتؤخَذ بجمال الربيع وتهفو نفسك لروائحه الفواحة! القِ نظرة أيضاً إلى اصفرار الخريف وبرده!..».

مولانا جلال الدين الرومي

الكذب الذي في المرآة

إن الدنيا دار امتحان وابتلاء؛ ففي الوهلة الأولى تنبعث منها روائح طبية وزكية، فتبعث في النفس الراحة والحيوية والنشاط. ولكنها مصيدة وكمين، فهي نفق مظلم للذين لم يتجاوزوا عائق النفس. إنها مثل السراب الذي يبدو من بعيد ماء، أو مثل التفاحة المطلية بالحلوى التي يهواها الأطفال، ففي ظاهرها تبدو الألوان الزاهية والجذابة، ويوحي مظهرها بالحلاوة، ولكن داخلها ليس إلا عبارة عن حموضة وعفونة. إنها تسحر عاشقها وتذهب بعقله وتوقعه في وديان الجهالة والسفاهة. والذين ينخدعون بظاهرها يضيعون عالمهم الأبدي، والنتيجة ندامة عظيمة لا نهاية لها.

والإنسان نموذج مصغر لهذا العالم الكبير الفسيح، فهو عالم مصغر. فقد شُرِّفَت بُنيته التي تبدو في الظاهر صغيرة وبسيطة بـ«خلافة الله» في الأرض. فالإنسان إذا تغذى بالأغذية المعنوية والروحانية فإنه يصبح أشرف المخلوقات في الوجود، وأما إن وقع أسيراً بين براثن النفس فإنه سوف يهوي في التعاسة والشقاء الأبدي الذي يُعد أشد أشكال الإفلاس والخسران. ويعبر مولانا – رحمه الله – عن هذا الأمر بعبارة جميلة، فيقول:

«السيد هو أمير نفسه؛ وأما العبد فهو أسيرها».



يستحيل على الإنسان دون وجود الإيمان في قلبه الاستعداد لرحلة الحياة الحقيقية، والعيش في الدنيا محافظاً على شرفه وكرامته الإنسانية. ولا ريب أننا سوف نشاهد المعاصي التي نقترفها في الدنيا نتيجة الغفلة على شاشة الآخرة. فليلة الموت التي يطل صباحها على المحشر هي عاقبة الجميع دون استثناء. والذي يبدو في ساحة دنيا الاعتبار أن كل شيءٍ عائد للبدن محكوم بالذبول، وإن الأيام الماضية تُقيَّد في حساب الآخرة.

إذا لم يتوصل العقل المحاصر بين مجهولَين عظيمَين هما «القدوم إلى الدنيا والرحيل عنها» إلى حكم ذو قيمة حقيقة بشأن الدنيا، ولم يتم تنظيم الأحوال والتصرفات والأعمال وفقاً لهذه الحكم الحقيقية، فلن يكون بالإمكان القيام برحلة معنوية من عالم الظلال النسبية إلى عالم الحقائق.

إن زمان ومكان العمل الذي هو مدار الكسب هو في هذا العالم. وإن وجوب صرف هذا الزمن المحدود في أفضل الأعمال جلي وواضح ولا يحتاج إلى كثير من البحث والنقاش. فالزمن مثل الصابون المبلل بالماء في اليد، إذ من العسير أو من المستحيل الاحتفاظ به، فهو يذوب بشكل مستمر ويجعل المكان زلقاً أيضاً. الزمن مثل السيف الحاد، يحتاج إلى مهارة للتحكم به والسيطرة عليه. فاستخدامه الحسن يكون باختيار الخير، وتقديم الأهم، وتأخير الثانوي وغير المهم. وهذا هو ما يقتضيه كل عقل وصل إلى الحقيقة.



وقد قال العارفون في إشارة إلى هذه الحقيقة:

«هلك المسوفون».

إن أمر الإنسان عجيب؛ حيث أن أكثر ما يخدع في هذه الدنيا التي يعيش فيها ضيفاً لمدة قصيرة نفسَه. فعلى الرغم من مشاهدته الجنازات يومياً وهي تُنقَل إلى المقابر، إلا أنه يرى الموت بعيداً عنه. ويعتقد بأنه مالك دائم للأمانات الفانية التي بين يديه، مع أنها معرضة للفقدان والضياع في أي لحظة. والحال أن الإنسان عندما دخل إلى الدنيا من باب إلباس روحه بلباس الجسد مسافر على طريق الموت. وإن ذلك الطريق مكان إعداد، إلا أنه لا يتذكر هذا أبداً. فذات يوم سوف تتعرى الروح من الجسد، وتُودع للقيام برحلة أخرى في القبر الذي يُعد بوابة الآخرة.

يقول الله ﷻ:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[46]

يُنصح الإنسان في هذه الآية المباركة بأجمل وأحسن صورة. فالصفة المميزة للدنيا هي عدم الوفاء، إذ إنها تسترد سريعاً ما أعطته وقدمته للإنسان. ترفعه يوماً، وتضعه في اليوم التالي حتى توصله إلى القاع. إنها كالظل كلما أردت الاقتراب منه يهرب منك، وإن هربت فلا يدعك. وإنك بينما تنهمك بنيل الأشياء التي تجري

---

٤٦ يس: ٦٨.



خلفها وتخطط للحصول عليها في اليوم أو الغد تتفاجأ في لحظة ما بأن العمر قد انتهى. فإذا أعطي القلب للدنيا، فإنها تصبح مارداً شريراً متوحشاً يفترس الإنسان بين الحين والآخر ويطرحه أرضاً، ولا تتوقف وساوسه وإزعاجاته. إن الدنيا بعيدة عن الوفاء، فسرعان ما تضحي بمن وثق وتعلق بها.

والزمن بالنسبة لمن تجاوزوا عائق النفس نعمة قيمة عظيمة لدرجة لا يمكن مقارنتها بأي شيءٍ آخر أبداً. فالله سبحانه وتعالى يبدأ سورة العصر بالقسم بالزمن، حيث يقول: (وَالْعَصْرِ). وكل شيءٍ يمكن أن يذهب ويعود، أو يمكن تعويضه، أو شراؤه، إلا الزمن؛ فإنه غير قابل للاسترجاع أو التعويض أبداً!

تأتي إضاعة الوقت وتمضيته بأمور فارغة لا طائل منها على رأس أسباب الندامة. فالذي يعلم أنه ميت، لا يجري خلف ملذات الدنيا الفانية، والذي يعلم بأنه على طريق سفر في رحلة مؤقتة لا ينخدع بوسائل اللهو والترفيه الموضوعة على طريقه، ولا يبالي بها. لأنها أشياء عائدة لبيت الضيافة الدنيوية وثابتة فيها بصورة لا تنتزع منها أبداً. فما فائدة كل هذه النعم الفانية إن جمعها الشخص في يده وعاش بسعادة وراحة وطمأنينة حتى ولو لمدة ألف عام طالما أنه سيدعها في النهاية ويغادر؟ أوليس المكان الذي سيأوي إليه هذا الإنسان في نهاية حياته هو حفرة صغيرة مظلمة موحشة في باطن الأرض، وخالية من أي مظهر من مظاهر النعيم؟!.



قد يرغب الإنسان بحياة خالدة لا موت فيها، أو بشباب لا شيخوخة فيه، وهذه الرغبة نابعة من فطرته، إلا أنه لا يستطيع نيل ذلك إلا من خلال التغلب على عائق النفس، والتخلص من أسر الأشياء الفانية المخادعة، ثم الخضوع والتوجه التام للحق ﷻ.

لقد عرف أحد العارفين هذا العالم الذي يُعد كصالة تُعرض فيها مختلف أشكال الحكم والعبر والعظات بأنه «مشاهدة البدائع الإلهية بالنسبة للعقلاء، وشهوة وطعام بالنسبة للحمقى».

فالحياة الدنيا القائمة على اتباع النفس مليئة بالمكائد والدسائس والأحابيل الموردة إلى الهلاك.

C

يبين مولانا جلال الدين مراحل شباب الإنسان، وحيويته، وعنفوانه، وما يعقبها من مفاجآت ومغامرات عارضة، من خلال الأمثلة الآتية:

«أنت يا من تُعجب وتُؤخذ بجمال الربيع وتهفو نفسك لروائحه الفواحة! ألق نظرة أيضاً إلى اصفرار الخريف وبرده!».

«وعندما ترى ولادة الشمس الجميلة وقت الشروق، تذكّر أفولها وموتها وقت الغروب».

«وعندما ترى القمر بدراً منيراً في كبد السماء، فكِّرْ بحسرته وشوقه وحنينه في نهاية الشهر إلى حال البدر».



«فهذا حال الإنسان تماماً، حيث أن كماله وجماله محكوم بالزوال المحتوم».

«إنك تنظر فتجد أن الطفل الصغير الجميل قد صار بجماله محبوب الناس كلهم. ثم بعد مدة من الزمن تراه قد صار شيخاً خرفاً وتحول إلى سخرية وأضحوكة للجميع».

«إن كانت الأجساد الجميلة تسحرك، ففكر بذاك البدن المتحول إلى حقل قطن بعد الشيخوخة».

«يا من يسيل لعابك على أطايب الطعام ولذيذها! قم فاذهب إلى الخلاء، وانظر إلى عاقبتها!».

«وقل للنجاسة: أين تلك الرائحة الطيبة الزكية والشهية التي كانت تفوح منك وأنت في الأطباق».

«ستجيبك بقولها: كانت تلك الأشياء التي ذكرتها براعم. وكنت أنا مصيدة منصوبة، فعندما جئت وسقطت في المصيدة ذابت البراعم، وذبلت، وانكفأت على نفسها».

«كم من أيادٍ ماهرة أدهشت بفنونها وجمال أعمالها العقول، ثم ذبلت في النهاية وصارت مرتجفة عاجزة حتى عن الإمساك بقلم».

«وإنك تنظر فتجد أن العين الجميلة اللامعة وثاقبة النظر اليوم، قد غارت بعد حين بين الأجفان وذبلت، وبدأ يسيل منها الدمع باستمرار».



«وكذلك تجد أن الجندي المغوار الذي يمتلك قوة السباع اليوم، قد أصابه الضعف بعد حين حتى صار يُغلب من عاجز ليس له من القوة بمقدار قوة الفأرة».

«وتجد فناناً ذو موهبة فريدة اليوم، قد أصابه في النهاية العجز حتى صار لا ينفع لشيء».

«وكذلك تجد اليوم خصلة شعر سابلة تنبعث منها رائحة تأخذ بالألباب، قد تحولت بعد حين في مرحلة الشيخوخة إلى حالة أسوأ من وبر الحمار».

«انظر إلى الأحوال الجميلة والمبهرة الأولى لكل هذه الأشياء! ثم شاهد كيف أنها ذبلت وخفتت وصارت بحالة يرثى لها».

«فهذا عالم قد نصب لك مصيدة، وما أكثر الأرواح الساذجة التي خدعها بهذه الوسيلة وسبب لها الشقاء».

«اعتبر أن هذا شأن كل جزء من هذا العالم وتأمل في حاله السابق واللاحق وقارن بينهما».

«فكل إنسان يكون قريباً من الله تعالى بقدر ما ينجو من أسر النفس ويتخلص من خداع الظلال الزائفة».

«انظر إلى وجه كل جميل نضر مثل القمر مفاخر بجماله! ولكن كما نظرت إلى أول جماله انظر أيضاً إلى نهايته، كي لا تقع في الحماقة مثل الشيطان الذي نظر بعين واحدة، أي كي لا ترى الجانب الدنيوي للشيء فقط، ولا ترى الجانب الأخروي...».



«فالشيطان قد رأى طين آدم عليه السلام، وعجز عن رؤية علو شأنه ومنزلته. فشاهد الطين الذي يخص هذه الدنيا، إلا أنه عمي عن رؤية روحانيته العائدة للعالم الآخر. والجانب الذي لم يعرفه الشيطان هو كون الإنسان خليفة الله».

«أيها الإنسان! يصدر من الدنيا صوتان متضادان. فقلبك مستعد لتلقي أي الصوتين؟».

«فأما أحدهما فهو حال المتقربين إلى الله تعالى؛ وأما الآخر فهو حال المخدوعين».

«وإن قبلت أحد الصوتين، فإنك حتى لن تسمع الآخر».

«لأن المحب يصبح وكأنه أعمى وأصم أمام كل الأشياء التي تناقض ما يحبه».

«أيها السالك! انظر إلى النقش الأخير في المرآة! فكر بالقبح الكامن في شيخوخة الجميل، وبالخراب الذي سيؤول إليه البناء الجديد، ولا تنخدعن بالكذب الذي يبدو في المرآة!.».

«ما أسعد ذاك الذي سمع الصوت الذي يسمعه جنود الحق سبحانه وتعالى قبل الجميع».

إن الصوتين المتناقضين اللذين أشار إليهما مولانا هما: الميل للدنيا، والنفور من الدنيا. فإذا استمعت إلى أحدهما واستجبت له، فسوف تُحرم من نقيضه. وقد قيل:

«الدنيا والآخرة كضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى!» .

أي إن استقر في القلب صوت النداء إلى الدنيا، فإن نصيحة الآخرة لن تؤثر على ذاك القلب. ولكن إن استقر في القلب صوت نداء الآخرة، فإنه سوف يشيح بوجهه وسمعه عن صوت نداء الدنيا.

إذا تلوث قلب برائحة الميل نحو الدنيا، فإن تطهيره وتنقيته منها بغاية الصعوبة. فكما أن تنظيف الوعاء الفخاري من الرائحة الكريهة التي تسربت إليه يحتاج إلى رميه في النار وحرقه؛ فكذلك تنظيف وتطهير الأخلاق السيئة، حيث أن مكانها نار جهنم.

يقدم الشيخ فريد الدين العطار ـ رحمه الله ـ توصيات جميلة للوصول إلى عالم الروحانية، فيقول:

«ليس هناك قول بعد القرآن الكريم، وأحاديث النبي ﷺ خير وأفضل من أقوال عباد الله الخواص. فقولهم قلبي ولدني، وليس كسبي. ولذا يقال عنهم ورثة الأنبياء. وإن القلوب التي تستمع إلى كلمات أولئك العباد الخواص تمتلئ بالفيوض، وتزداد غيرتها، وتبدأ الأسرار بالانكشاف لها. وتتخلص من وساوس الشيطان والأهواء والشهوات الدنيوية.

إن لبعض الأولياء صفات آدم عليه السلام؛ ولبعضهم صفات إبراهيم عليه السلام، وللبعض منهم صفات موسى عليه السلام؛ والبعض منهم ذو مشرب محمدي. وكذلك فإن بعض هؤلاء الأولياء أهل المعرفة، والبعض



الآخر أهل القلب والمحبة، والبعض أهل المعاملة، والبعض أهل التوحيد، والبعض لا صفة لهم أي أنهم مخفيون ومتماهون...».

C

يصور المرشد الكامل الكبير عزيز محمود هدائي الذي كان يشرف على إرشاد وتوجيه السلاطين العثمانيين، وأطلعهم على الأسرار الغيبية في مرآة القلب، يصور حال هذه الدنيا وماهيتها فيقول:

من يتوقع منكِ الوفاء،
ألست الدنيا الكاذبة؟
ألستِ أنتِ من أخذ محمداً المصطفى ﷺ؟
إليك عني أيتها الدنيا يا عديمة الوفاء،
فأنت امرأة عجوز شمطاء؛
ألست أنت التي تركت خلفها مئات الآلاف من الرجال؟
ألست أنت الدنيا التي تغتال جوهر الناس،
وتملأ عيونهم بالتراب،
وتبتسم في وجه أهل الغفلة؟
ألست أنت الدنيا الخربة التي لا مقام لأحد فيها،
سواء كان ملكاً أو عبداً؟
ألست أنت الدنيا المختلسة السارقة التي تجعل البعض يصرخ ألماً،
والبعض باكياً،

وفي النهاية تدعي الناس عراياً؟

ألست أنت الدنيا المتقلبة التي دأبها الكذب،

والغدر بمن والاها ووثق بها؟

ويقول يونس أمره:

أعطني مثالاً على ما لا تكون نهايته الخراب!

وأرني مالاً لم يبق وراء صاحبه!

وفي السياق ذاته يبين الأستاذ المرحوم نجيب فاضل أن الغاية الأصلية هي الاستعداد للآخرة، فيقول:

الصراف الخسيس البخيل يخيط لنفسه صرة مختلفة؛

فاجمع أنت العملة الصالحة في المقبرة!..

ألا يرى ويعتبر الإنسان بأن حيوية ونضارة كل كائن فانٍ تُطحن على الدوام في رحى الزمن! إذ يُعد التوجه في هذه الدنيا نحو عيش حياة نفسانية والتعلق بالملهيات الدنيوية الزائلة بشكل متحرر من الآخرة أعظم غبن وانخداع يتعرض له الإنسان فيما يتعلق بمستقبله الأبدي!

إن حياة الغفلة هي عبارة عن لهو ولعب في الطفولة، وشهوة في المراهقة والشباب، وغفلة عند البلوغ والنضوج، وندامة وتأسف وحسرة على ما فات في الشيخوخة. إن الموت الذي يهرب منه المتكبر الشقي الذي يأبى الذكر بلسانه وقلبه، المحروم من الرحمة،



والذي لا يريد الإحساس والشعور بآلام ومعاناة المضطربين والمكروبين يتربص به في كل آن ولحظة. إنه لمن العبث والخسران والضياع الكبير والمحزن البحث عن السعادة والبهجة في الدنيا من خلال الانكباب على زينتها، والانغماس في الملذات والمتع الفانية حتى آخر رمق من الحياة بشكل متحرر عن الآخرة.

إن الإنسان بشكل عام أسير لأكاذيب المرآة القائمة ضمن الآلاف من مظاهر ومباهج الحياة. فإذا لم تكن هذه الدنيا التي تستمر بخيانتها وعدم وفائها كل لحظة من خلال هذه الأكاذيب مكانَ غبن وخداع، فما هي إذاً؟..

ويعكس يونس أمره بشكل جميل أحوال الذي حطوا الرحال في هذا المكان المخادع ثم رحلوا عنها، فيقول:

ماذا سيقول الذين سكنوا في هذه الدنيا الكاذبة ثم رحلوا عنها،

وما الذي سيخبرون به!..

ما الذي سيقولونه،

وما الذي سيخبرون به،

وقد نبتت فوقهم مختلف الأعشاب والنباتات!

فالبعض قد نبتت فوق رأسه الأشجار،

والبعض غطت على رأسه الأعشاب،

منهم البريء،

ومنهم الأبطال،

فما الذي سيقولونه،

وما الذي سيخبرون به!

لقد غاصت الأجساد اللطيفة في التراب،

وصمتت ألسنتها الحلوة،

فلا تنسوا هؤلاء من الدعاء،

فما الذي سيقولونه،

وما الذي سيخبرون به!

منهم في الرابعة ومنهم في الخامسة،

والبعض لا تاج فوق رأسه،

منهم في السادسة ومنهم في السابعة من عمره،

فما الذي سيقولونه،

وما الذي سيخبرون به!

البعض تجار والبعض شيوخ،

ومن الصعب تجرع شراب الأجل!

منهم ذوو لحية بيضاء ومنهم المرشد الكامل،

فما الذي سيقولونه،

وما الذي سيخبرون به!



يقول يونس أمره: انظر إلى تصريف التقادير،

وإلى الرموش والحواجب المتساقطة،

وعلى حجارة الشواهد عند جهة الرؤوس،

فما الذي سيقولونه، وما الذي سيخبرون به!

اللهم احفظنا وجنبنا عاقبة الذين غاصوا في الدنيا وأهلكوا أنفسهم! يا أرحم الراحمين!..آمين!..

E



المحبة والكراهية

«أيها الإنسان! لا تنخدعن بالمباهج ومظاهر الأبهة المتناثرة في هذا العالم! ولا تخف حتى وإن قُطع جسدك بالمنشار في النوم! لأن هذه الدنيا ما هي إلا حلم عابر!».

«إن الأنبياء وورثتهم شموس مغطاة بالصورة البشرية. فالجؤوا إليهم واحتموا بهم ليخلصوكم من النفس المساومة والمعادية لكم».

مولانا جلال الدين الرومي



المحبة والكراهية

ليس في الوجود شيءٌ مؤثر من ناحية الارتقاء بالحياة البشرية أو الهبوط بها مثل المحبة والكراهية. فمحبة من يليق بها، وكراهية من يستحقها ترتقي بالحياة وتسمو بها إلى أعلى الدرجات، أما الحالة المعاكسة لذلك، فتهبط بالحياة إلى أسفل السافلين.

خاف فرعون من دعوة التوحيد التي جاء بها موسى عليه السلام وارتعدت فرائصه بسبب قلقه على ضياع وفقدان ملكه، فجمع سحرة مصر وسط هالة من الاضطراب ودعا موسى عليه السلام إلى المبارزة. فقال السحرة:

- يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى؟ مبدين بذلك احتراماً لموسى عليه السلام ولطفاً في التعامل معه.

فقال لهم موسى عليه السلام:

- بل ألقوا أنتم!

فألقى السحرة على الأرض بعض الحبال والعصي، وذلك أمام أنظار فرعون، وأهل مصر المتجمهرين حولهم. فبدت تلك العصي والحبال وكأنها تتحرك وتتلوى مثل الثعابين. ثم جاء الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام فألقى عصاه على الأرض. فتحولت العصا إلى



حية عظيمة والتقفت كل حبال السحرة وعصيهم وابتلعتها. فأدرك السحرة بأن ما حدث أمامهم ليس من صنع البشر ولا ضمن حدود علمهم، وإنما هو معجزة إلهية بلا ريب. لأن الأمر لو كان سحراً لبقيت العصي والحبال الملقاة في مكانها على الأرض عند انتهاء أثر السحر. ولكن هنا لم يحدث شيء من ذلك، حيث أُبطل سحر السحرة، وفي الوقت ذاته اختفت الحبال والعصي نهائياً. فلما رأى السحرة هذه المعجزة خروا سجداً وقالوا:

- آمنا برب موسى وهارون!..

فغضب فرعون غضباً شديداً، وقال:

﴿... آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾

فتحدى السحرة الذين تجاوزوا المخاوف البشرية فرعون وقالوا:

﴿... لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[٤٧]

---

٤٧ وردت هذه القصة في القرآن الكريم في سورة الأعراف: الآيات، ١٠٦- ١٢٦؛ وكذلك في سورة طه: الآيات، ٥٧- ٧٣.

ويتابع مولانا جلال الدين كلام السحرة بلسان حالهم، فيقول:

«يا فرعون! لا ضير لنا من ظلمك وضربتك. فإن لطف الحق غالب على قهر من سواه».

«لو أنك تعلم سرنا أيها الأعمى، وأيها المضل! فإنك في الحقيقة تخلصنا بتعذيبك وقتلك لنا من ألمنا يا أعمى القلب، وننتقل بذلك إلى الحياة الحقيقية الأبدية».

«لقد وهبنا الحق ملكاً وسلطنة أعظم من ملكك، وإن ملكك لا يساوي شيئاً بجانبه. ملكنا دائم وملكك زائل. لذا فإننا نقول كما قال حبيب النجار: «يا ليت قومي يعلمون».

«فأطل برأسك، وانظر إلى الملك الحي الجليل يا فرعون، يا من صرت مغروراً بمصر ونهر النيل».

«يا فرعون! إنك لو تركت هذه الخرقة النجسة، أي تخليت عن طين البدن الذي هو قفص الروح، فإنك تجعل نهر النيل غارقاً في سيل الروح!».

«يا فرعون! هيا انفض يدك عن مصر؛ ففي وسط مصر الروح مئة قُطر ومصر».

«إنك تقول للناس (أنا ربكم الأعلى) وأنت غافل عن ماهية هذين الاسمين! فمتى يكون الرب مرتعداً من عابده؟ ومتى يكون العارف بذاته في قيد الجسم والروح؟ والآن فإن تلك ال(أنا) التي



تخصنا قد نجت من أنانيتها، ومن تلك (الأنا) المليئة بالعناء والبلاء، وتلك ال(أنا) التي كانت شؤماً عليك كانت بالنسبة لنا دولة محتومة من السعادة الأبدية».

«فلو لم تكن لك ال(أنا) المنتقمة، فمتى كنت تجلب لنا هذا الإقبال والسعد؟»

«والشكر لله أننا نخلص من هذه الدنيا الفانية، ودار الغرور...».

«وإن مشنقة قتلنا هي بُراق رحلتنا إلى السماء إلى ربنا. وإن دار ملكك غرور وغفلة».

«وهذه حياة مستترة وخفية في صورة الموت، وما أنت فيه موت خفي في غلاف حياة!».

ثم يصور مولانا رحمه الله الوجه الباطني لهذه الحادثة فيقول:

«لقد توعد الطاغية والظالم فرعون اللعين السحرة بالعقاب بسبب إيمانهم، فقال: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ولأصلبنكم في جذوع الشجر، ولن أعفيكم من هذا العقاب!».

«وكان فرعون يظن حينها بأن السحرة لا يزالون مقيمين على نفس الوهم والخوف والوسواس والظن؛ وأنهم كانوا يرتعدون هلعاً من الأوهام وتهديدات النفس».

«ولكن فرعون لم يكن يدري بأن أولئك السحرة قد تخلصوا من مشاعر الخوف، ورأوا الأسرار والحقائق الإلهية».



«فلم يعد ينفع معهم التهديد والعقاب والتعذيب مهما كان شديداً، فهم قد ميزوا بين ظلالهم وذواتهم، وهم مسرعون نشطاء متحملون مرحون، وصاروا من أهل البصيرة والعرفان».

أي إنهم أدركوا بأن الروح هي الأصل، وأما الجسد فهو مجرد ظل، فضحوا بذلك الظل ووصلوا إلى مقام «الفناء».

«أيها الإنسان! إن هذه الدنيا عبارة عن حلم. فلا تتوقف على المباهج وألوان الملذات فيها، ولا تنخدعن بها! فإذا بترت يدك في هذا الحلم فلا تبتئس ولا تخف! فهذه الدنيا حلم نائم».

ويقول يونس أمره في التجائه إلى الله تعالى:

إن هذه الدنيا في نظر العارفين خيال وحلم،

ومن أعطاك ذاته فقد تجاوز هذا الحلم والخيال!.

C

يتبين مما تقدم بأن التعظيم والاحترام الذي أبداه السحرة تجاه موسى عليه السلام وإن كان قليلاً قد هداهم إلى الإيمان، ثم إنهم بعد ذلك بحال من العرفان والثبات رفضوا الحياة الدنيا التي ليست إلا عبارة عن حلم ودفعوها بعيداً بكلتا يديهم، مفضلين عليها حياة السعادة الأبدية. وأما عاقبة فرعون فقد كانت رحلة إلى جهنم داخل أعماق البحر الأحمر، ولم يخلف وراءه إلا بدنه الذي صار رمزاً للظلم وعاقبته.



يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن العقلاء يبكون قليلاً في البدء، وفي النهاية يضحكون كثيراً. وأما الحمقى فإنهم يغرقون بالضحك في البدء، ثم يضربون رؤوسهم بالصخور وهم يبكون. فيا أيها الإنسان! كن حكيماً وصاحب فراسة لترى عاقبة الأمر منذ بدايته، كي لا تحترق بنار الندامة يوم الحساب والجزاء!».

إن أساس الحياة هو الأفكار والخيالات والأحاسيس التي تكسب التصرفات والأعمال وجودها. والإنسان مجبول على التجاذب والتأرجح بين المحبة والكراهية. والأنبياء والأولياء هم شموس على طريق الحياة والحقيقة لهداية الإنسان إلى السعادة الدنيوية والأخروية، فهم يبعثون الحياة في أدمغة البشر الميتة، كما يبعث الربيع الحياة في الأرض بعد موتها؛ فيملؤون القلوب الخاوية بالفيوضات ويوجهونها إلى الحق سبحانه وتعالى. وبذلك يتحقق التوجه إلى غاية الخلق، والسلام الطمأنينة والسكينة التي تحتاجها البشرية.

كان الله تعالى موجوداً وحده في الأزل، ثم وُجد عالم الكائنات «عالم الكثرة» هذا بسبب المحبة. وتم اختيار الإنس والجن من بين الكائنات لإخضاعه للامتحان والابتلاء. وزود هذان المخلوقان بقابلية المحبة والتطلع إليها وطلبها، هذه المحبة التي لا تتحقق وتُحصَّل إلا بمحبة الله. فالعامل المؤثر الذي يبعث الطمأنينة والسكينة بين جوانح الإنسان والجن في عالم الغربة الذي جاؤوا



إليه، ويخفف من آلامهم واضطرابهم هو المحبة التي تتحقق بمحبة الله ﷻ. يقول مولانا رحمه الله:

«إن الأنبياء وورثتهم شموس مغطاة بالصورة البشرية. فالجؤوا إليهم واحتموا بهم ليخلصوكم من النفس المساومة والمعادية لكم!».

جاء درويش إلى أبي يزيد البسطامي، وقال له:

- دلني على عمل أتقرب به إلى ربي ﷻ.

فقال أبو يزيد:

- أحبب أولياء الله تعالى ليحبوك! فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه في اليوم ثلاثمئة وستين مرة، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك!.

أرسل نبي الله سليمان عليه السلام كتاباً إلى بلقيس ملكة سبأ يدعوها فيه إلى الإيمان. وكانت بلقيس وقتها من أهل الأوثان، فلما قرأت كتاب سليمان، قالت:

- يا أيها الملأ إني أُلقي إلي كتاب! إنه من سليمان! وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ـ يبدأ باسم الله ـ .

قال بعض العلماء:

- إن بلقيساً شُرِّفَت بالإيمان بسبب احترامها وتعظيمها لكتاب سليمان عليه السلام.

C



ذات يوم كان بشر الحافي يسير على الطريق وهو سكران، فوجد قصاصة ورق مكتوب عليها كلمة التوحيد. فأبى عليه قلبه أن تبقى تلك الكلمة المقدسة على الطريق تطؤها الأرجل، فانحنى إليها وحملها بكل احترام وتبجيل وأخذ يمسحها وينظفها من الأوساخ المتراكمة فوقها، ثم عطرها بأطيب عطر، ثم أخذها وعلقها في أفضل مكان في داره. فكان هذا سبباً لإكرام الله تعالى له بالهداية والولاية.

كان الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله عنه أحد أقرباء أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها. وكان هذا الصحابي كريماً، جواداً شفوقاً، ومحباً للخير والإحسان. فكان في الجاهلية يشتري الفتيات التي يريد آباؤهن وأدهن فينقذهن من الموت، ثم يحميهن ويربيهن. ولما جاء الإسلام وأسلم حكيم بن حزام سأل النبي ﷺ ما إن كان يُثاب على أعمال الخير التي عملها في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ:

«**أسلمت على ما أسلفت لك من الخير**».[٤٨]

أي كانت تلك الأعمال سبباً لتشريفك بالإسلام.

ينبغي أن نعلم بأن حكم وأسرار الكون لا تنمو وتزدهر إلا في القلوب الحقيقية. وقد كان أحد أهم أسباب طول عمر الدولة العثمانية الذي امتد لأكثر من ستة قرون، والذي لم تحظ به أي دولة أخرى هو إيلاؤهم الأهمية الكبيرة للجوانب الروحانية.

٤٨ البخاري، الزكاة، ٢٤، الأدب، ١٦؛ مسلم، الإيمان، ١٩٤– ١٩٦.



ومن أبهى مظاهر هذا الاهتمام ما قام به السلطان عثمان غازي، والسلطان ياوز سليم خان.

فهناك رواية مشهورة تقول بأن السلطان عثمان غازي نزل ضيفاً في أحد البيوت، ولما رأى القرآن الكريم في الغرفة التي أقام فيها لم يمد قدميه طيلة الليل احتراماً وتعظيماً.

وأما السلطان ياووز سليم خان فقد جلب الأمانات المقدسة إلى إسطنبول وسط هالة كبيرة من التعظيم والتبجيل، وعين أربعين حافظاً استمروا لسنوات طويلة ودون انقطاع بتلاوة القرآن الكريم بجوار هذه الأمانات.

لقد رفع الله تعالى من شأن الذين يعظمونه، ويحترمون أنبياءه وأولياءه، وجعلهم مصدر رحمة للمجتمع الذي يعيشون فيه. حيث أن الله ﷻ لم ينزل العذاب والبلاء حتى على مشركي مكة طيلة مدة مكوث النبي عليه الصلاة والسلام فيهم. ويبين الحق ﷻ هذا الأمر في سورة الأنفال، حيث يقول:

﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ...**﴾[49]

ولكن لما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة المنورة بدأ في مكة جفاف وجدب عظيم، حتى أن المشركين أصبحوا عاجزين عن رفع رؤوسهم إلى السماء من شدة الجوع والضعف الذي أصابهم.

---

٤٩ الأنفال: ٣٣.



وكانوا يرون السماء كغيمة بيضاء وكأن عمىً قد أصاب أعينهم. فأرسلوا رسلاً إلى المدينة المنورة وسط حالة من اليأس والعجز طالبين من النبي ﷺ العون والمساعدة لرفع البلاء الذي حل بهم.

إن هذه التجليات التي تحمل طبيعة تحذيرية وتنبيهية تكون وسيلة للهداية للذين لديهم الاستعداد والأرضية السليمة، وإلا فإنها تصبح سبباً للشقاء في الدارين للذين لا يمتلكون الاستعداد المطلوب.

ولعل الحادثة الآتية تحمل الكثير من العبر في هذا الشأن:

«جاء جبلة ملك الدولة الغسانية إلى المدينة المنورة في عهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ودخل الإسلام. ثم أحرم من أجل أداء فريضة الحج. وأثناء الطواف حول الكعبة داس أعرابي على طرف ثوبه، فغضب جبلة وصفع وجه الأعرابي. فذهب الأعرابي إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه واشتكى على جبلة. فأرسل عمر في طلب جبلة وقال له: إما أن تدفع لخصمك الدية وترضيه! وإما أن يقتص منك فيصفع وجهك! فقال جلبة: أيقتص مني وأنا ملك وهو سوقة! فقال عمر رضي الله عنه: يا جبلة، إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تفضله بشيء إلا بالتقوى والعافية! فرد جبلة قائلاً: أمهلني إلى الغد يا أمير المؤمنين!.

فمنعه غروره وعجبه حتى عن قبول دفع بضعة دراهم لذاك الأعرابي الضعيف. فجمع جبلة قومه في الليل وفر بهم إلى بلاد



الروم. وارتد عن دينه، ومات بعد مدة. لقد أبعده كبره وغروره عن طريق الإسلام المنير، فخُدع بالأهواء والرغبات النفسانية، وبذلك حكم على نفسه بنار جهنم الأبدية».

وهناك مثال آخر شبيه بالحادثة التي ذكرناه:

لقد مزق كسرى فارس كتاب رسول اللهﷺ الذي يدعوه فيه إلى الإسلام، وأساء الأدب معه. فمزق الله تعالى ملكه ودمره شر تدمير. وصار ملكه الذي تحول إلى خراب عبرة عبر التاريخ.

C

يقول مولانا جلال الدين الرومي عن الذين ابتعدوا عن حقيقة الأنبياء والأولياء، ولم يتلقوا منهم الفيوض، وحُرموا من أسرارهم الإلهية فعجزوا عن اختراق الشكل والمضي إلى ما وراءه:

«إنك تضع قلباً ذابلاً فاسداً على سرير خشبي وتسوقه إلى الحضرة الإلهية!».

«فيقول الله تعالى لك:

«أيها الوقح المتجرئ! هل تظن أن المقبرة هنا حتى تجلب إلي قلباً ميتاً؟!».

«اذهب واجلب إلي قلباً حياً نابضاً بالأسرار الإلهية، فمن خلاله تخضرُّ الدنيا وتتحول إلى بستان...».

ولذلك يقول يونس أمره:



أنا لم آت من أجل الخصام، وإنما جئت من أجل الحب؛

إن منزل الأصحاب في القلوب، فجئت من أجل إعمار القلوب....

يشير مولانا رحمه الله إلى أهمية التربية الروحية للإنسان من أجل تحصيل هذه المشاعر الرقيقة والحساسة، ويكرر ذلك في مواضع كثيرة. فعلى سبيل المثال يقول في أحد المواضع:

«إذا حاول صغير طائر لم يكتمل نمو جناحيه الطيرانَ، فإنه يسقط أرضاً، ويصبح لقمة سهلة لحيوان مفترس... وإن حاول عندما يكتمل جناحاه فإنه يطير في السماء ويرتفع دون أدنى عناء أو خطر...».

وفي موضع آخر يبين بأن الارتقاء المادي مجرد حقيقة هندسية، وأنه لا يمثل شيئاً بجانب النضوج والارتقاء الروحي، فيقول:

«للسماوات ارتفاع وارتقاء صوري. ولكن الارتقاء المعنوي والسمو الحقيقي مقتصر على الأرواح الطاهرة النقية...».

«فصورة الارتقاء في الأجسام. وإن الأجسام عبارة عن أسماء بجانب المعنى والروح...».

اللهم أنر قلوبنا بنور القرآن الكريم، ولا تحرمها من محبة حبيبك وأوليائك الصالحين!..

آمين!..

E





بركة الرحمة

«إن كنت تريدنا وتريد رضانا، فاعلم بأن ذلك لا يكون إلا بكسب قلب!».

«فابذل وجودك وكل ما لديك من أموال وأملاك لتبني قلباً! ابنهِ كي ينير لك ظلمة القبر الحالكة».

مولانا جلال الدين الرومي



بركة الرحمة

إن أولى ثمرات الإيمان هي الرحمة، فالقلب البعيد عن الرحمة لا يُعد حياً. والبسملة والفاتحة التي هي رأس كل خير تبدأ باسمَي الله تعالى الرحمن والرحيم. وكذلك فإن قصص حياة الأنبياء والأولياء مليئة بمناقب الرحمة.

إن إحدى النتائج الطبيعية للتخلق بأخلاق الله تعالى هي امتلاك قلب واسع رحب فياض بالرحمة. يقول مولانا جلال الدين رحمه الله بأن الوصول إلى حقيقة العبادات وخاصة الحج يكون عن طريق مثل هذا القلب، ويبين ذلك من خلال الحكاية الآتية:

«كان شيخ الأمة أبو يزيد البسطامي يسعى نحو مكة قاصداً الحج والعمرة، وكان من عادته عندما يذهب إلى كل مدينة أن يبدأ بتفقد الأعزاء، وكان يطوف متسائلاً: من في هذه البلدة متكئ على أركان البصيرة؟».

«فهو كان يؤمن بأنه عندما تمضي في السفر ينبغي أن تجد أولاً أهل الحق».



«لأن الله تعالى يقول:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥٠]».

«وأُمر موسى عليه السلام بزيارة صاحب العلم اللدني خضر عليه السلام».

«رأى أبو يزيد في الطريق شيخاً طويل القامة، نحيلاً مثل الهلال، وعلى وجهه علامات روحانية الأولياء».

«كانت عيناه منحجبتَين عن الدنيا، وقلبه مثل الشمس».

«جلس أبو يزيد أمام ذاك الشيخ. فسأله الشيخ:

«إلى أين تذهب يا أبا يزيد؟ وكم تحمل معك من متاع الدنيا؟».

فقال أبو يزيد:

«إلى الحج؛ وأحمل مئتي درهم...».

فقال الشيخ لأبي يزيد:

«يا أبا يزيد! اجعل جزءاً من تلك الدراهم في سبيل الله تعالى للمحتاجين، وأبناء السبيل، والمحرومين! وادخل إلى قلوبهم؛ لتتفتح آفاق قلبك! فليحج قلبك أولاً! ثم امض في رحلة الحج بقلب رقيق لطيف!..».

«فالكعبة بيت الله الذي يجب الحج إليه، فهو بيت موجب للثواب. ولكن قلب الإنسان خزينة الأسرار».

---

٥٠ النحل: ٤٣؛ الأنبياء: ٧.

«الكعبة بناء إبراهيم ولد آزر. وأما القلب فهو محل نظر الله الجليل».

«فإن كنت صاحب بصيرة، فطف حول كعبة القلب. فالمعنى الحقيقي الأساسي للكعبة التي هي صندوق مبني من الطين هو القلب».

«فقد فرض الله تعالى عليك الطواف حول الكعبة المعروفة والمرئية لتحصل قلباً مطهراً ومنقىً من الأدران والأوساخ».

«واعلم بأنك إن آذيت وكسرت قلباً والذي هو محل النظر الإلهي، فإنك تكون ارتكبت ذنباً لن يعادله أجر وثواب حج ولو ذهبت إلى الكعبة سيراً على الأقدام...».

«فابذل وجودك وكل ما لديك من أموال وأملاك لتبني قلباً! ابنهِ كي ينير لك ظلمة القبر الحالكة».

«واعلم بأنك لو أخذت إلى حضرة الإله آلاف الصرر ذهباً، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول:

«إن كنت تريد أن تأتينا بشيءٍ، فأحضرْ إلينا قلباً اكتسبته! فالذهب والفضة ليسا بشيءٍ عندنا. إن كنت تريدنا وتريد رضانا، فاعلم بأن ذلك لا يكون إلا بكسب قلب!».

«لا بد لرؤية تجليات نور الحق سبحانه في الإنسان من أن تفتح عين القلب جيداً».



«ففهم أبو يزيد هذه الحكم التي قالها الشيخ، ونال قلبه بهذه الصحبة حظاً من أسرار الرحمة. ثم تابع رحلة الحج بطمأنينة».

ثم يقول مولانا رحمه الله بعد هذه الحكاية:

«عندما تمضي في السفر ينبغي أن تسعى لتكون إنساناً كاملاً في البداية لتتفتح آفاق قلبك».

«واقصد كنزاً فإن النفع والعز يأتيان تبعاً، واعتبرهما فرعاً».

«وكل من يزرع يكون هدفه الحنطة، وأحياناً يأتيه القش تبعاً لها».

«وإن تزرع القش، فلا ينبت لك القمح، فابحث عن إنسان كامل، إنسان فاضل واتبعه».

«واقصد الكعبة مادام الحج قد آن أوانه، وما دمت قد ذهبت فسوف تشاهد مكة أيضاً».

C

إن إيراد مولانا الحج مثالاً في الحكاية يعود إلى كون الحج عبادة بغاية الرقة والخصوصية. ففي الحج يُحظر الكثير من الأمور المباحة. ويمثل مشهداً مصغراً عن المحشر. وينبه القرآن الكريم الحجيج إلى الابتعاد عن الرفث والفسوق والجدال، أي تجنب كل الأمور الدنيوية التي لا طائل منها. ولذلك ينبغي القيام باستعداد روحي قبل الخروج في رحلة الحج.

هناك حج النافلة أيضاً، وذلك شأنه كشأن الصلاة والصيام النافلة. والاسترسال بتوجيه الانتقادات بجهالة لحج النافلة قد يقود صاحبه إلى الكفر والضلال. فهذه الانتقادات ما هي إلا تمتمات جاهلية، وتدل على الحرمان من لذة العبادة.

إن النوافل مستمرة إلى يومنا هذا وهي تؤدى بشوق وإيمان كبير. فالعبادات النافلة التي تكون بإخلاص واشتياق تقرب العبد إلى الله تعالى. وتعمق روحه، وتوقظ في داخله صفات الرحمة والكرم والجود. ويصبح الله تعالى عينه التي يبصر بها، وأذنه التي يسمع بها. أي تكون رؤيته، وسمعه، وتفكيره، وكلماته منارة بالنور الإلهي.

فهذه الارتقاءات تتحقق عن طريق محبة عبادات النافلة، والرحمة بالمخلوقات.

ويكفي لبيان أهمية الأمر أن نعلم بأن الإمام الأعظم أبا حنيفة قد حج خمساً وخمسين مرة.

C

نورد هنا قصة من كتاب «تذكرة الأولياء» تبين مدى قيمة الإنسان عند الحق سبحانه وتعالى:

يُروَى عن العالم التابعي الصوفي الفاضل عبد الله بن المبارك أنه حج في أحد الأعوام، وبعد أن أتم المناسك جلس في الحرم



الشريف، وبينما هو قاعد غلبه النوم. فرأى في المنام أنه نزل من السماء ملكان. وسأل أحدهما الآخر:

- كم من الناس اجتمع في هذه السنة؟ فأجاب الثاني:

- ستمئة ألف. وليس حج أحدهم مقبول، ولكن الله قبلَ حجهم جميعاً ببركة عمل صالح قام به إسكافي في الشام يُسمى علي بن موفق. وهو نوى الحج، وما استطاع، فكتب الله له ثواب حج كامل، وقبلَ حج هذه الخلائق ببركة عمله الصالح.

فانتبه عبد الله من نومه وقد حصل له اضطراب وأصابته دهشة وحيرة كبيرة. فخرج مع القافلة الشامية وذهب إلى دمشق. فبحث عن ذاك الرجل حتى وجده. فأخبره أنه عبد الله بن المبارك، وسأله:

- ماذا عملت وأنت لم تذهب إلى الحج؟

فلما علم علي بن موفق أن إنساناً فاضلاً ومشهوراً مثل عبد الله بن المبارك يقف أمامه دُهش، فشهق شهقة وأُغمي عليه. فلما أفاق من إغماءته، قال:

- منذ ثلاثين سنة أقصد زيارة الكعبة، وتحصيل المناسك، وأهمني ذلك. وكنت أجمع وأدخر قليلاً من المال حتى انجمع لي ثلاثمئة وخمسون درهماً، وأردت الحج في سنتنا هذه. وكانت امرأتي حامل، فاشتمت رائحة طعام من بعض بيوت الجيران، وطلبت مني لقمة من ذلك الطعام.

فأتيت باب ذلك البيت، وطلبت مذقة من ذلك الطعام، وأعملت الحال. وكانت صاحبة البيت امرأة، فبكت وقالت:

- لي أولاد صغار أيتام، وما أكلوا شيئاً في هذا الأسبوع. فدخلت اليوم في خرابة، فصادفت فيها جيفة حمار، وأتيت منها بقطعة لحم، وهي هذه في القدر تغلي. وإني مضطرة لإطعامهم إياها لأني لا أجد غيرها طعاماً. فإن شئت أعطيتك شيئاً منها، ولكن هي علينا حلال وعليكم حرام.

يكمل علي بن موفق، فيقول:

- فلما سمعت الحكاية احترق قلبي رأفة بهم وشفقة عليهم، فرجعت إلى البيت وأخذت الدراهم التي جمعتها لسنين طويلة، وأعطيتها لتلك المرأة، وقلت:

- هذا يقوم لي بعناية الله عن الحج ومقامه!

فقال عبد الله بن المبارك:

- صدقت، وصدق الملك الرؤيا، وعدل الملك في الحكم والقضاء، والله أعلم بحقائق الأشياء.

تُعد هذه الحادثة إحدى بركات الرحمة التي أرانا إياها ربنا الرحمن الرحيم. وإن إعطاء مثال من الحج من خلال التجلي في الرؤيا بيان لمدى أهمية الدور الذي تلعبه الرحمة في حياة العبادة أيضاً.



والحج بمعنى آخر محاولة للتخلص من النزعات والأهواء النفسانية من خلال السعي للتجرد من لباس البدن والولوج إلى أعماق الروح. ويعبر يونس أمره عن هذه الحقيقة بقوله:

الشيخ العجوز ذو اللحية البيضاء
لا يدري ما كسبته يداه
لا يتعب نفسه في الحج
إن كسر لإنس خاطرا
القلوب عرش للمولى
وهو موضع نظر المولى
يهلك نفسه في الدارين
إن كسر لإنس خاطرا

C

لا يمكن للمرء تحقيق الارتقاء المعنوي من خلال الشكليات. وهناك قصة مشهورة عن أبي يزيد البسطامي في هذا الأمر. إذ قال له أحد مريديه:

«أعطني فلقة من فروتك أتبرك بها. فقال له أبو يزيد: يا بني! إن لبست جلد أبي يزيد لا ينفعك، إن لم تعمل بأعماله».

C

نُقل أن أبا يزيد البسطامي خرج ذات يوم في سفر، وفي الطريق نزل تحت ظل شجرة فاستراح هناك مدة ثم تابع رحلته.

وفي الطريق رأى بعض النمل على جعبته، كانت قد تسللت إليها من المكان الذي استراح فيه. فرجع إلى ذلك المكان وترك النملات هناك شفقة ورحمة بها حتى لا يحرمها من وطنها، وتعيش حياة غربة بعيدة عنه.

C

وروي أن جنيداً البغدادي استيقظ ذات يوم لصلاة الفجر فرأى أن هرة نائمة على عباءته. ففكر أن يذهب ذلك اليوم إلى المسجد دون عباءة حتى لا يفزع الهرة ويفسد نومها، إلا أنه وجد أنه من غير اللائق الذهاب إلى المسجد دون عباءة، فقام بقص العباءة من المكان الذي تنام عليه الهرة، ثم ارتداها وخرج إلى الصلاة. وبقيت الهرة نائمة بهدوء واطمئنان.

فهذه الأحوال تُعد مظاهر لا مثيل لها للرحمة والشفقة بالمخلوقات في سبيل الخالق، وهي دليل على سمو قلب المؤمن القريب من رضا ربه سبحانه وتعالى.

وقد جاء في الحديث الشريف:

«عُذِّبَت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار. لا هي أطعمتها وسقتها، إذ حبستها. ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[٥١]

---

٥١ البخاري، الأنبياء، ٥٤؛ مسلم، السلام، ١٥١، ١٥٢/ ٢٢٤٢.



«بينما كلب يطيف بركية قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به»[٥٢]

«الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء،...»[٥٣]

C

يقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله:

كان في زماننا أولياء كثر، فذهبت مرة إلى حداد يقال له أبو حفص، فدخلت دكانه لأعرف سر أمره. فرأيته مهموماً حزيناً، فسألته عن السبب. فقال بحزن كبير:

- هل في الدنيا همّ أعظم من همي، وهل فيها إنسان مهموم أكثر مني؟ إن ما يكدرني ويحزنني هو حال عباد الله يوم القيامة!

ثم أجهش بالبكاء حتى أبكاني. فقلت له:

- لم تكدر نفسك وتحزن بسبب عذاب الناس؟

فرد أبو حفص:

- إن فطرتي مجبولة بالرحمة والشفقة. ولو أن عذاب أهل النار جهنم يُحمل علي ويعفى عنهم، فإني أكون أشد سروراً، وأتخلص من همي وحزني...!

---

٥٢ مسلم، السلام، ١٥٥/ ٢٢٤٥.

٥٣ الترمذي، البر، ١٦/ ١٩٢٤.

فعلمت عندها أن أبا حفص ليس ممن يقولون: «نفسي، نفسي»، وإنما هو ممن على مشرب النبي عليه الصلاة والسلام القائلين مثله: «أمتي، أمتي». فلزمته مدة، وعلمته في هذه المدة بعض سور القرآن. إلا أنه في الواقع كان هو من يعلمني، فقد كان وسيلة لوصولي إلى درجة من الإدراك والتحصيل لم أتوصل إليها في أربعين سنة مضت.

الفضيلة لا تكون بالعلم وكثرة العبادة فحسب، وإنما تكون بهبة وتوجيه وتوفيق من الله تعالى، بالإضافة إلى تحويل العلم والعبادة إلى عرفان. وينبغي أن لا ننسى دور بركة تأصل الشفقة والرحمة الواسعة لدى أبي حفص وتحولها إلى طبيعة أصلية داخل كيانه وفطرته في نيله لتلك الموهبة والتوجيه والتوفيق الإلهي.

تمثلت هذه الرحمة والشفقة بأبهى وأعظم مظهر ـ بعد الأنبياء والرسل ـ في شخصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه. فقد كان دعاؤه الذي ينم عن كمال الرحمة والشفقة العامة لديه والذي صار مثلاً وقدوة لأبي حفص، هو:

«اللهم اجعل بدني في نار جهنم كبيراً حتى لا يبقى مكان لغيري من عبادك!».

هناك الكثير من الأمثلة على صفة الرحمة التي اتصف بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وأحد هذه الأمثلة هو شراؤه لبلال الحبشي الذي



كان عبداً لدى أمية بن خلف أحد زعماء مكة، وذلك بثمن باهظ، ثم تحريره. وقد نال بهذا السلوك العظيم والنبل ثناء النبي عليه الصلاة والسلام، وتحول إلى مثل أعلى في الرحمة والكرم والإحسان.

يصور لنا مولانا جلال الدين هذه الحادثة، فيقول:

لما كان بلال ﵁ يُعذَّب على يد المشركين لإسلامه، كان يئن ويقول:

«إن رائحة حبيب تصل صوب روحي، وتصل رائحة الحبيب الحنون».

«ومن صوب المعراج أقبل المصطفى إلى بلاله... وقال: طوبى لك يا بلال».

«ثم إن الصديق قص للمصطفى ﷺ عن أحوال بلال الوفي».

«وقال له: إن ذلك الذي قطع الأفلاك في هذه اللحظة في فخك، وعاشق لك. وإن باز السلطان اليوم واقع تحت ظلم وجور البوم. إن البوم يجور على الباز، ويقوم باقتلاع جناحه وقوادمه دون ذنب، ويريد دفن ذلك الكنز العظيم تحت نجاسة الشرك والعصيان».

«إنهم يصلبونه على رمال الصحراء اللاهبة وتحت أشعة الشمس الحارقة، ويضربونه بفروع الشوك وهو عاري الجسد».

«ويسيل الدم من مئة موضع من جسده الغض الطري، وهو يقول: «أحد... أحد»، ويطأطئ رأسه ساجداً للحق».

«وعندما سُرَّ المصطفى من هذه القصة، ازدادت الرغبة عند الصديق في الحديث. وعندما وجد مستمعاً كالمصطفى ﷺ، صارت كل شعرة فيه لساناً، وأخذ بكل شفقة ورحمة وحزن ينقل له أحوال بلال».

«ثم أبدى للمصطفى ﷺ النية التي يضمرها في قلبه، فقال:

يا رسول الله! إن عبد الله الماثل أمامكم سوف يشتريه؛ سأشتريه مهما طلب سيده من ثمن، ولن أنظر في الخسارة والغبن الظاهرين. فهو أعطى قلبه للحق سبحانه، وصار عبداً له وخادماً لرسوله، وقد تعرض لظلم أعداء الله فأذاقوه أشد ألوان العذاب، ولا راحة لروحي في هذه الدنيا حتى أخلص ذاك الإنسان المبارك».

«فاستبشر وجه رسول الله ﷺ، وسُرَّ كثيراً منه، وقال:

يا صاحب رسول الله الرحيم، يا باحثاً عن الإقبال، سوف أصير شريكاً لك في هذا الأمر...».

«قال الصديق: سمعاً وطاعة، وذهب في التو واللحظة إلى منزل ذلك المشرك الذي لا أمان له. وهو مشوش مغضب من الظلم الذي حلَّ ببلال. دقّ حلقة الباب، وعندما فتح دخل بلا وعي دار ذاك المشرك الظالم، وجلس فاقد الوعي، ممتلئاً بنار الغضب. وانطلق من فمه كلام شديد الإيلام، فقال:

أيها الظالم، يا عدو الله، يا عديم الرحمة والوجدان! كيف تضرب ولي الله هذا؟ ما هذا الحقد!؟».



«يا فقير الرحمة! هل تظن نفسك إنساناً؟ إنك محروم من الإنسانية، ومسكون بالحقد والكراهية! إنك ملعون إلى الأبد.»

«ثم ملأ أبو بكر عيني ذاك الظالم الجائعتين بعرض الدنيا، وأعطاه مبلغاً كبيراً ثمناً لشراء بلال، حتى دُهش من تصرفه، وظن أنه غبن أبا بكر.»

«فلاحظ أبو بكر الصديق رضي الله عنه دهشةَ ذلك الظالم عديم الرحمة، فقال له: أيها الأحمق الغبي! لقد أعطيتني جوهرة في مقابل جوزة وكأنك صبي صغير، ولكنك غافل عن ذلك! إنك لا تعلم أن بلالاً يساوي عندي الكونين، فأنا ناظر إلى روحه وأنت ناظر إلى لونه. فلا يعلم بالجوهرة إلا الصراف».

يقدم لنا مولانا في هذه القصة إلى جانب مظهر الرحمة والشفقة الكاملَين قيمةَ الإنسان الكامل العظيمة التي لا تقدر بثمن. فهو يعبر بشكل جميل أن القيم الدنيوية لا تساوي شيئاً مقابل القيمة المعنوية والروحية للإنسان.

لقد كان الشيخ يامان داده نصرانياً أرثوذوكسياً واهتدى إلى طريق الحق ببركة (مثنوي) مولانا جلال الدين، فأصبح محباً مولعاً بالنبي عليه الصلاة والسلام. وقد تخلق بأخلاقه وأخلاق أصحابه الكرام. ويكفي للاطلاع على حالته أن نذكر الحادثة الآتية:

ذات يوم سأله أحد تلاميذه في الدرس:



- إن خُيِّرتَ بين اقتراف ذنب كبير أو الإصابة بمرض الجذام، فأيهما تختار؟

فقال يامان داده:

- أفضل أن أحترق حياً وأصبح رماداً على أن أبتعد وأحجب لحظة واحدة عن قلوب عباد الله!

فهذه هي آفاق الرحمة والشفقة اللامحدودة في الإسلام والتي وجهنا إليها رسول الله ﷺ!..

اللهم اجعل قلوبنا نبع رحمة لا ينفد أبداً.. آمين!.

E



كن إنسانًا!

«اذهب إلى المقبرة واجلس فيها مدة بصمت! واستمع هناك إلى المتكلمين الصامتين!..».

مولانا جلال الدين الرومي

كن إنساناً!

ذات يوم جاء رجل إلى إحدى المدن الكبيرة، وأخذ يتجول في سوقها. وأثناء تجوله مر بشارع العطارين الذين كانوا يبيعون أطيب العطور. كانت روائح أزهار الفل، والياسمين، والبنفسج وغيرها الفواحة من الدكاكين تملأ أرجاء الشارع. فما إن سار الرجل في الشارع بضع خطوات حتى أصابت الروائح الطيبة رأسه بالدوار كأنه سكران ثمل. فلم يتحمل المزيد، وسقط على الأرض مغشياً عليه.

فهرع الناس إلى الرجل وتجمهروا فوق رأسه. فأخذ بعضهم يتفقد قلبه ويجس نبضه، ويدلك معصمه لتنشيطه، بينما البعض الآخر كان يرش وجهه بماء الزهر ويغسله به. ولكنهم رغم محاولاتهم الحثيثة لم يستطيعوا إيقاظ الرجل. فذهبت الروائح المنعشة ومياه الزهر أدراج الرياح، إذ لم يسترد الرجل وعيه، بل زادت إغماءته أكثر. فوقف الناس أمامه عاجزين، فنشروا خبر الحادثة في كل مكان، وأطلقوا حملة للبحث عن أقربائه، ولكن دون جدوى. وبالرغم من مرور عدة ساعات إلا أن الرجل بقي مغشياً عليه فاقداً الوعي.



وعند المساء مر بالمكان دباغ، فعرف الرجل. فنادى في الحشد المجتمع حوله:

- تمهلوا! إياكم أن ترشوا عليه ماء الزهر! فأنا أعرف مرضه. دعوه، ولا تلمسوه، فسأعود إليكم بعد قليل.

ثم مضى مبتعداً عنهم.

دخل الدباغ إلى خرابة مهجورة. فأخذ بيده بعضاً من روث الحيوانات، ثم عاد إلى شارع العطارين. فاقترب من رأس الرجل المغمى عليه ومد يده إلى أنفه خفية دون أن يلحظه أحد. ويا للعجب! فقد دبت الحركة في الرجل وبدأ يصحو. وما هي إلا لحظات حتى وقف على قدميه. ثم سار مع الدباغ ومضيا.

فالرجل الذي غشي عليه كان دباغاً أيضاً. ولأنه كان قد اعتاد الروائح الكريهة خلال السنوات الطويلة التي قضاها بين الجلود، لم يتحمل الروائح الطيبة التي تفوح في شارع العطارين، ووقع مغشياً عليه.

C

المثنوي:

«حشرة أيار تتقلب على الدوام في النجاسات والروث. لذلك يغمى عليها إذا رش عليها ماء الورد. وإن علاجها هو تلك النجاسات. فهي قد اعتادت عليها، وتماهت معها.



ويريد الناصحون فتح قلوب القساة الأجلاف، ومعالجتها، وتأمين الشفاء لها بالحكمة والكلمة الطيبة، وبالعنبر، وماء الورد.

فمن لم تجد معه رائحة النصيحة الطيبة فلا بد أنه قد اعتاد الروائح الكريهة.

فخذ أنت أيضاً نصيباً من النور، والنصيحة، والخير، والجمال!.. ولا تكن مثل حشرة أيار بحشر أنفك في النجاسات! وإنما كن إنساناً!..».

C

عندما تهب نسمات الصباح على البستان الذي تفتحت فيه أزهار لطيفة جميلة كالجوري والقرنفل والزنبق، فإنها تحمل روائح تلك الأزهار الطيبة الزكية التي تبعث بهجة الربيع في الصدور والقلوب، وتأخذها معها إلى حيث تسير.

وكذلك شأن العارفين والصالحين من أهل القلوب، فإنهم يحملون المحبة، والوجد، والعشق الذي يتأجج بين جوانحهم وفي قلبوهم إلى مجالسهم. إنهم يعكسون نور الأسرار التي في قلوبهم على جماعتهم. وإن القلوب نتيجة للانعكاس والانصباغ تمتلئ بالفيوض ونور الحقيقة على قدر استعدادها وطاقتها.

فقطمير أصحاب الكهف بالرغم من كونه مجرد كلب سوف يكون من أهل الجنة ببركة معيته وصحبته للصادقين، وحراسته لهم بإخلاص عند باب الكهف الذي أووا إليه.



يبين مولانا حال الكلب فيقول:

«إن كلب أصحاب الكهف تخلص من نجاسته من خلال حالة الجذب (الفيض الإلهي) تلك. وجلس على رأس مائدة الملوك والسلاطين».

«لقد اختار ذاك الكلب صحبة أهل الكهف، فشرب مثل العارفين ماء الرحمة الإلهية أمام باب الكهف من دون قصعة ولا قدر».

وأما النسمات التي تهب وتمر من فوق الجيف والمزابل المتعفنة، فإنها تحمل معها روائحها الملوثة والكريهة وتنشرها في كل مكان، فتضيق الأنفاس، وتخنق الأرواح.

وكذلك شأن الفاسقين المحرومين من لذة العبودية، فإن مجالسهم تنشر القسوة والجفوة في الأنحاء. وإنهم يتماهون مع بعضهم البعض من خلال تلك القسوة والجفاء. ويتلذذون بتلك القسوة.

يقول مولانا:

«اذهب إلى المقبرة واجلس فيها مدة بصمت! استمع هناك إلى المتكلمين الصامتين!».

كما لا يمكن إيواء فأرة في بستان، فكذلك لا يمكن تربية نحل العسل خارج العالم الذي اعتادت عليه. لأن ميدان غذائها وتنفسها هو العالم الكامن داخل رحيق الأزهار. فلا يمكن وضعها وإجبارها



على العيش في مكان بعيد عنه. فكل كائن لا يستطيع العيش ومتابعة حياته إلا في مكان ملائم ومنسجم مع طبيعته.

والإنسان بدوره خاضع لهذه القاعدة!

إن الأرواح المتسامية الطاهرة تتغذى بالفيوضات المنعكسة من الحقيقة المحمدية، وأما الأرواح الخبيثة والفاسقة فإنها تجد سكينتها بالخبائث وأشكال الفسوق.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه ينظر إلى وجه رسول الله ﷺ، ويقول بإعجاب «ما أجمله!». وأما أبو جهل فقد كان لديه انطباع عكسي تماماً تجاه ذاك الوجه المبارك، ويكرهه. وسبب هذا التباين كان رؤية الاثنين لحقائق ذاتهما في المرآة المحمدية.

يقول أولياء الله:

«إننا كالمرايا المصقولة، وكل امرئ يشاهد فينا صورته!».

فالمرآة لا تكذِّب محاباةً ومجاراةً لأحد، فلا تظهر القبيح جميلاً، ولا الجميل قبيحاً أبداً! فكل ما ينعكس عليها يُشاهَد. وأولياء الله تعالى هم مرايا سواء أمام التجليات الإلهية، أو بمواجهة الأشياء. والذي ينظر إليهم يشاهد ذاته.

يقول الشيخ نيازي مصري رحمه الله مشيراً إلى أن القلوب عبارة عن مرايا عاكسة:

«أنا مرآة بين الناس، والكل ينظر إليها ويرى شيئاً؛ فمهما كان ما رأى فإنها ذاته، سواء كان جميلاً أم قبيحاً».



ويقول مولانا رحمه الله:

«هل تتردد المرآة والميزان عن قول الحقيقة لأن أحداً سوف يُجرح أو يُصاب بالخجل؟».

«المرآة والميزان هما حجر قبّانٍ عالي الدقة. فإنك وإن خدمتهما مئة عام، ثم أتيتهما وقلت لهما متوسلاً:

- أخفيا الحقيقة لأجلي بأن أنقصاها، أو زيدا عليها!.

فسوف يكون ردهما عليك:

- لا تدع الناس يسخرون منك! هل يمكن الاحتيال على المرآة والميزان؟ وهل كان الله ﷻ سيجعلنا وسيلة لمعرفة الحقائق لولا صدقنا واستقامتنا؟».

معلوم أن المريض أو الجريح لا يستطيعان معالجة ما بهما من إصابة ومرض، وإنما يبحثان عن طبيب أو جراح يتولى مداواتهما؛ وكذلك الأمر للذين يعانون من مرض أخلاقي أو جرح معنوي روحي، فإنهم مضطرون للجوء إلى طبيب أخلاقي وروحي، أي الخضوع للعلاج عند مرشد كامل.

إن بعض الذين يظنون أنفسهم قد بلغوا الكمال يحاولون إظهار تواضعهم بالظاهر، فيتحدثون عن عجزهم وضعفهم، وتقصيرهم. ولكن هذه الأحوال التي تبدو عليهم ليست حقيقية، وإنما هي رياء ومفاخرة. إذ عند التعرض لهم وتوجيه شيءٍ من النقد إليهم تنجلي



الحقيقة ويُزاح الستار عن مستنقع العجب والغرور والكبر الذي تغوص فيه قلوبهم.

يقول مولانا:

«ثمة حاجة ضرورية لفيض وهمة مرشد كامل للتخلص من أوحال الأنانية والغرور والتطهر منها».

نجد أن هناك الكثير ممن يعتقدون بأنهم سوف يصلحون أنفسهم، ويتخلصون من العجب، والغرور، والكبر بمجرد قراءة الكتب.

فهذه الحالة تشبه حالة المصاب بمرض السرطان الذي يعتقد أن بإمكانه معالجة مرضه من خلال قراءة كتب الطب. مع أنه حتى الأطباء إذا مرضوا يلجؤون إلى أطباء غيرهم، ويخضعون للعلاج تحت إشرافهم. لأن الإنسان لا يستطيع بنفسه تشخيص مرضه، فهذا أمر نفسي. وكذلك ليس بإمكان القاضي النظر في قضية شخصية له، وإنما لا بد من اللجوء إلى قاضي آخر وعرضها عليه.

إن حال الذين يحاولون مشاهدة الحقيقة بإدراكهم الذاتي السطحي والضحل، كحال الطفل الصغير الذي يحاول اصطياد عصفور يطير في السماء من خلال الإمساك بظله في الأرض. فهذا الطفل المسكين ينهك نفسه من التعب، وتنقطع أنفاسه من الجري خلف الظل، وهو لا يعلم بأن الطائر يحلق فوقه في السماء، ولا يعقل. إنه يطارد الظل الذي على الأرض. إن ذاك الصياد الغافل



يرمي بسهام قوسه دون توقف على ظل الطائر السائر على الأرض، وفي النهاية يستنفذ كل سهامه، ولا يستطيع إصابة ذاك الظل أبداً.

فما أكثر الذين ساروا على هذا الطريق، فاستنفدوا سهام الزمن التي هي أثمن من الذهب والكامنة في جعبة أعمارهم، استنفدوها هباءً منثوراً، دون أن يعودوا منها بشيءٍ. إن الأحمق الذي غاص في الدنيا مثل الأطفال الذين يمضون أوقاتهم بالانهماك في الألعاب البلاستيكية، لا يعلم بأن الظل الذي يجري خلفه هو في الحقيقة انعكاس لأسماء الحق سبحانه وصفاته. لذلك فإن ترك الأصل والسعي خلف الصورة ليس إلا إضاعة للعمر، وخسران، وبقاء في ظلام قلبي.

لا يستطيع أحد تخليص الإنسان من غفلته وثنيه عن الجري خلف السراب والظلال الخادعة إلا المرشدون الروحيون الذين يُعدون الخواص من عباد الله، لأنهم نور الله على الأرض.

فعلى العاقل اتباع سبيل أولئك الخواص من أهل الله، ليقي نفسه من إضاعة العمر سعياً وراء الظلال والخيالات التي تسلب العقول.

إن مشاعر الكبر، والغرور، والكبر، والتفاخر مثل إبر مغروزة في الإنسان. وإن تكبر الشخص ناتج عما يراه في نفسه من عوامل التفوق والتميز عن غيره. ولكن إذا ما انتسب الشخص إلى طريق حق فإنه يدرك حينها بأن كل عوامل الخيرية والتفوق التي يتصورها



في ذاته لا توجد بالمعنى الحقيقي والمطلق إلا في الله تعالى. وينظر إلى كل شيءٍ في ذاته أنه أمانة أودعها الله ﷻ لديه.

C

كان زيد بن حارثة ؓ مولى رسول الله ﷺ. إذ كانت أم المؤمنين السيدة خديجة ؓ قد اشترته وأهدته لرسول الله ﷺ، وقام النبي عليه الصلاة والسلام بتحريره. ولكن زيداً ؓ لم يفارق رسول الله ﷺ لما رأى فيه من الفضائل والأخلاق السامية التي لم ير مثلها قط، واعتبر خدمته شرفاً ونعمة عظيمة وفريدة. حتى إنه أبى العودة مع أبيه الذي علم بمكانه وجاء لاصطحابه معه إلى دياره، مفضلاً العبودية بجانب رسول الله ﷺ على الحرية بعيداً عنه، وقال:

«والله يا رسول الله أنت مني بمنزلة الأب والعم وما أختار عليك أحداً قط»[٥٤]

لذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام كان يحبه، ويهتم به، ويعامله معاملة فريدة. وكان زيد ؓ يعيش بصحبة رسول الله ﷺ بحال لا يعلم لذتها إلا هو.

روي أن رسول الله ﷺ قال لزيد:

«**كيف أصبحت يا حارثة؟**» قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال:

«**انظر ما تقول؛ فإن لكل قول حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟**»

٥٤ راجع: ابن هشام، ١، ٢٦٧؛ ابن سعد، ٣، ٤٢.



قال ﵁: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. قال:

«يا حارثة، عرفت فالزم» [55]

يبين مولانا حال الاستغراق هذه لدى زيد بن حارثة ﵁، فيقول:

«قال زيد ﵁ لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! أتتحدث عما رأيته؟»

«هل أتحدث عن سر المحشر يا رسول الله! وهل أجعل النشور ظاهراً في الدنيا!؟. دعني حتى أمزق الحجب، وحتى يتألق جوهري كالشمس الساطعة في كبد السماء!».

«وحتى تصاب الشمس بالكسوف مني، وحتى أُبدي النخل من الصفصاف».

«وحتى أُبدي سر الحشر، وأبين السكة الصحيحة من السكة الزائفة».

«وأصحاب الشمال ممن قطعت أيديهم، وأبدي لون الكفر ولون الختم الملكي الأحمر الذي خُتموا به».

«ولأكشفن عن فتحات النفاق السبعة، في ضياء القمر، قمر النبوة الذي لا يخسف ولا يعتريه المحاق».

---

٥٥ راجع: الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ٥٧/ ١٨٩.



«وأبدي سرابيل الأشقياء، وأسمع طبول الأنبياء».

«وآتي للكاذبين أمام عيونهم بالجحيم والجنة والبرزخ، ليعلموا الحقيقة».

«وأظهر حوض الكوثر يهدر بالمياه، بحيث يضرب الماء وجوه الناس، ويصل خريره إلى آذانهم».

«وأولئك الظامئون المسرعون حوله، صاروا أمامي هذه اللحظة عياناً. وتحف أكتافهم بكتفي، وتصل صيحاتهم إلى أذني!».

«وأهل الجنة أمام عيني، يتصافحون ويتعانقون اختياراً، ويتزاورون والأيدي في الأيدي».

«ولقد صُمَّت أذناي من أصوات الصيحات الصادرة عن الأخسَّاء من أهل النار، وصياحهم واحسرتاه!».

«ولولا خوفي من عقاب رسول الله ﷺ، لأظهرت هذه الصيحات من أعماقها».

«وظل هكذا يتحدث ثمل الرأس مهدماً، فاقداً الوعي من الوجد الذي ألمَّ به، فأوشك أن يبوح بكل الأسرار. فأمسك الرسول ﷺ بخناق ثوبه، وقال:

انتبه، اصمت، فقد تحمس جوادك، وانعكس عليه قول: «إن الحق لا يستحي»، وذهب الحياء. ولقد قفزت مرآة روحك من غلافها، ولكن لا تنسَ أن كشف الأسرار يكون بسبب عدم استيعابها



وهضمها، فالله من أحد أسمائه الستار. فاعلم هذا واحفظ بهذه الصفة سعادتك ولا تجعلها ضحية لعدم هضمك لها!».

C

وكان رسول الله ﷺ أيضاً تأخذه أحوال روحانية يعجز عن تحملها، لاسيما عند نزول الوحي، حيث كانت تنتابه حال من الاضطراب والشدة لا مثيل لها فينصب العرق من جبينه حتى في البرد الشديد. وكان أحياناً إذا زادت حالة الاستغراق وجاوزت حدها ينادي عائشة ويقول لها:

«حدثيني!..». حتى يهدأ ويعود إلى حالته البشرية.

وإذا ما غلبت عليه الدنيا كان يقول:

«يا بلال أقم الصلاة، أرحنا بها». محققاً بذلك التوازن المطلوب في الحياة البشرية.

ولولا ذلك لما حقق النبي عليه الصلاة والسلام معيته وأمن حضوره مع الأجيال التي جاءت بعده.

C

كان أبو بكر الصديق ﷺ أكثر الصحابة استغراقاً في فيض الصحبة النبوية. فكان أحياناً يدخل مع النبي عليه الصلاة والسلام بأحاديث لا يدركها أحد غيرهما. ومن ذلك ما يخبرنا به عمر بن الخطاب ﷺ، إذ يُروَى بأنه قال:

دخلت على رسول الله ﷺ فوجدت عنده أبا بكر رضي الله عنه، وهما يتحدثان عن علم التوحيد. فجلست بينهما. فلم أفهم شيئاً مما قالاه، وكأني لا أعلم بلسان العرب.

فقلت لأبي بكر رضي الله عنه:

- ما كان ذاك؟ وهل تكلم النبي عليه الصلاة والسلام بذلك دائماً؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه:

- بلى؛ أتحدث هكذا مع رسول الله ﷺ إن لم يكن بيننا أحد.[٥٦]

وقال النبي عليه الصلاة والسلام:

«**أمرت أن نكلم الناس على قدر عقولهم**»[٥٧]

وقال الإمام علي رضي الله عنه:

«حدثوا الناس بما يعرفون [على قدر عقولهم وفهمهم]».[٥٨]

C

هناك أحاديث شريفة تفيد بأن هذه الدنيا إنما هي دار الغرور، كما أن هناك أحاديث أخرى تبين بأنها ساحرة وغدارة أيضاً.

---

٥٦ راجع: أحمد بن عبد الله الطبري، الرياض النضرة، ٢، ٥٢.

٥٧ الديلمي، المسند، جـ ١، ص، ٣٩٨، رقم: ١٦١١.

٥٨ البخاري، العلم، ٤٩.

وعلى الرغم من علمنا بأن الدنيا هي عالم مؤقت وزائل، وهي ليست إلا كمثل ظل الشجرة الذي نتفيأ بها للحظات ثم نغادرها، ومعرفتنا بأن عاقبتنا فيها هي الموت الذي يُعد أبرز حقيقة في الوجود ولا يختلف بشأنها أحد، وعلى الرغم من رؤيتنا لأقرب الناس إلينا وهم يموتون أمام أعيننا ويغادرون، إلا أننا في أغلب الأحيان لا نستطيع حفظ أنفسنا من الانخداع بمظاهر هذه الدنيا الفانية الزائلة التي لا وفاء لها.

وهذه الحالة نابعة من كون الدنيا ساحرة كما جاء في الحديث النبوي، فغفلتنا هي أثر من آثار سحرها.

ويرى مولانا جلال الدين بأن الدنيا ساحرة، ويبين سحرها بقوله:

«إن تلك الساحرة تكيل خمسمئة ذراع قماش بسرعة كبيرة تحت ضوء القمر».

«وعندما تأخذ عمرك الذي هو كنقود فضية، فإن فضة العمر تذهب، ويختفي القماش الخيالي عن الأنظار، وتقعد بلا رأسمال.»

«فيا من تنساق إلى سحر الدنيا! عليك بقراءة المعوذات، والالتجاء بالدعاء إلى الله قائلاً:

اللهم ألطف بي، ونجني من ملذات الدنيا النفسانية، ومن شر النفاثات في العقد!».





خير الظالم!

«هل رأيت يوماً صخرة تخضر في فصل الربيع؟ إذاً كن تراباً، لتنبت فيك الأزهار والورود المختلفة الأشكال والألوان!».

«لا يمكن تحقيق النجاح بالنصيحة التي يقدمها العدو! فاذهب وابحث عن صاحب! إذ مما لا ريب فيه أن الصاحب يريد الخير لصاحبه!».

مولانا جلال الدين الرومي

خير الظالم

ذات يوم كان أحد السلاطين متجهاً إلى المسجد لأداء صلاة الجمعة. وكان الحراس من جهة يصرخون بوجه الناس المتجمهرين في الطريق للتفرق والابتعاد عن موكب السلطان، ومن جهة أخرى ينهالون عليهم ضرباً بالسياط والعصي لشق الطريق أمام السلطان. وفي هذه الأثناء كان فقير مسكين يمر بالمكان مصادفة، فتعرض لضرب مبرح على يد الحراس حتى أدمي جسده. فلم يتحمل ما أصابه، وصرخ خلف السلطان قائلاً:

- انظر إلى ما اقترفته من مظالم! إن كنت فعلت هذا أمام الملأ، فنرجو أن يحفظ الله الناس من مظالمك الخفية! تزعم أنك ذاهب إلى المسجد، وتفعل خيراً!.. فإن كان هذا خيرك، فمن يدري كيف يكون شرك؟

C

المثنوي:

«هذه أعمال خير الظالمين، فتخيل أنت أعمالهم السيئة والشريرة!..».



يقدم التاريخ للناس مختلف مشاهد الظلم، والألم، والمعاناة، والجراح المختلفة التي سببها الظالمون والطغاة، وعواقبها الوخيمة لأخذ العبرة والعظة. ومن جهة أخرى يعرض لوحات مليئة بالشفقة، والرحمة، والإيثار، وبذل النفس رسمها حكام عادلون صالحون، وذلك للاقتداء بآثارهم وجعلهم مثلاً وقدوة.

وصار عصر النبي والخلفاء الراشدين مرحلة زمنية مضيئة لا مثيل لها في تاريخ البشرية، وذلك من خلال ما حققته من سكينة وطمأنينة، وما قدمته من فضائل وأخلاق إنسانية فريدة لم يشهدها التاريخ الإنساني بأسره.

C

عندما تولى عمر بن الخطاب ﵁ الخلافة، قام في الناس قائلاً:

- يا أيها الناس! لو رأيتموني اعوججت عن الطريق فماذا أنتم فاعلون؟

فقام أعرابي بدوي في آخر المسجد وسل سيفه أمام الناس وقال:

- والله يا أمير المؤمنين! لو رأيناك اعوججت عن الطريق لقومناك بسيوفنا!

فسُرَّ عمر ﵁، وقال:

- الحمد لله الذي جعل في رعيتي من لو اعوججت عن الطريق قومني بالسيف!..



ومعلوم أن عمر بن الخطاب ﵁ كان خلال توليه الخلافة يعيش حالة من التقشف الشديد في المأكل والمشرب والملبس، مع أن بيت مال المسلمين كان يفيض بالمال.

فذهب بعض كبار الصحابة رضوان الله عليهم إلى ابنته أم المؤمنين حفصة ﵂، وأشاروا عليها أن تقنع أباها بتخصيص شيء من بيت المال لنفسه، ليسد بها احتياجاته. فذهبت أم المؤمنين حفصة إلى عمر ﵁ وأخبرته بالأمر. فقال لها أبوها:

- يا بنيتي! أنتِ زوجة رسول الله ﷺ وأعرف الناس بشؤونه. فهلا حدثتني كيف كان طعامه وشرابه في البيت؟

فقالت أم المؤمنين ﵂:

- كان كفافاً.

فقال عمر ﵁:

- إنما مثلي ومثل صاحبيَّ «يعني النبي عليه الصلاة والسلام، وأبو بكر ﵁» قبلي كثلاثة نفر سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ، ثم أتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى ووصل إليه، ثم أتبعهما الثالث، فإن سلك طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما، وإن سلك غير طريقهما لم يصل إليهما ولم يجتمع بهما!..

لم يبالِ عمر ﵁ بالفتوحات الكبيرة التي تمت، والأموال العظيمة التي اجتمعت في بيت مال المسلمين؛ وإنما عاش حياة تقشف طيلة حياته، فلم يقبل أبداً بما يزيد عن سد رمقه، وستر عورته. ولم تغره



الثروة والمظاهر الدنيوية مع كثرتها حوله وبين يديه نتيجة لكثرة الفتوحات وتوسع رقعة البلاد. وتوفي ﵁ وفي ذمته ديون.

C

إن عهد الخلفاء الراشدين يفيض بمثل هذا النموذج الذي سقناه. وتلا عهد الخلفاء الراشدين العصر الأموي، والعصر العباسي. وإن هذين العصرين يفيضان بمختلف الأمثلة والنماذج السلبية منها والإيجابية. ففي العصر الأموي نجد عمر بن عبد العزيز الذي كان منارة للعدالة والرحمة، وبالمقابل فإن في العصر شخصيات بلغت في الظلم والطغيان مبلغاً عظيماً، فمنهم من قتل الحسين بن علي بن أبي طالب حفيد رسول الله ﷺ، ومنهم من اعتدى على أئمة العلم والحديث أمثال الإمام الأعظم أبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل، حيث تعرضا على يد بعض الخلفاء الظالمين لأشد ألوان العذاب والتنكيل، وألقي بهم في الزنازين مدداً طويلة.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي في كتابه «غولستان»:

سأل ظالم فاسق رجلاً من أهل الله:

- أي العبادات أفضل؟

فأجابه:

- أفضلها بالنسبة إليك النوم! لأنك لن تؤذي أحداً ما دمت نائماً!.



يُعد التواضع والابتعاد عن التكبر على أحد من أسمى الصفات والمزايا التي يريد الله تعالى من عباده أن يتخلقوا بها. وهنا لا بد من الإشارة إلى أمر مهم، ألا وهو أن التواضع لا يكون من أجل التودد لأهل الدنيا والتملق لهم للحصول على شيء ما، وإنما يكون من أجل نيل الرضا الإلهي؛ وإلا فإنه يتحول إلى مذلة ونقيصة.

وأما عكس التواضع فهو التكبر والاستعلاء. وتُعد الشهرة من أعظم آفات النفس لدى الإنسان. فالإنسان الذي وقع بين براثن حب الشهرة يرتكب الكثير من المظالم، ولا ينتبه إليها. فيحط من قدر نفسه ويصبح من الظالمين.

يقول مولانا:

«هل رأيت يوماً صخرة تخضر في فصل الربيع؟ إذاً كن تراباً، لتنبت فيك الأزهار والورود المختلفة الأشكال والألوان!».

أي إن الشيء الوحيد الذي ينال حظاً من بركة الربيع هو التراب. لذلك تنمو عليه مختلف أنواع الأزهار بألوان وأشكال تبعث السرور في النفس، وأما الصخرة فإنها ترى الربيع عندما تتفتح البراعم وتصبح أزهاراً، إلا أنها تقف عاجزة عن نيل نصيب وحظ من الربيع.

وحال أصحاب القلوب القاسية المتحجرة كحال هذه الصخور، فهي كالجمادات المنتشرة في الطبيعة والتي لا روح ولا إحساس فيها، فلا ينفعها مطر نيسان أبداً. والعبادات للذين لم يتجاوزوا



عقبة النفس ولم يتغلبوا عليها تكون تابعة لأهواء النفس ورغباتها. وتصبح النفس لدى مثل هؤلاء قبلةً لمختلف أشكال الآفات.

C

اتخذ أرطغرل الشيخ والمرشد الكبير أدبالي مرشداً له، وسلمه ابنه عثمان–مؤسس الدولة العثمانية– للإشراف على تعليمه وتربيته.

وأوصى أرطغرل ابنه عثمان بوصية قيمة، وكانت هذه الوصية في نفس الوقت توجيهاً روحانياً للسلاطين والخلفاء اللاحقين أيضاً، فقال فيها:

«**يا بني!** إياك وإيذاء الشيخ أدبالي، فأحب إلي أن تؤذيني من أن تؤذيه! فهو الشمس الروحية والمعنوية لعشيرتنا. ولا يخطئ ميزانه مثقال ذرة! اخرج عليَّ، ولا تخرج عليه! فإن خرجت علي وعصيتني فإني سوف أحزن وأتألم. وأما إن خرجت عليه فإن عيني لن تنظر إليك، وإن نظرت فلن تراك. إن كلامي ليس من أجل أدبالي، وإنما من أجلك أنت. فليكن قولي هذا وصيتي لك!..».

كان عثمان غازي شاباً نشيطاً وذو همة عالية، فأخذه الشيخ أدبالي ووضعه تحت إشرافه وتربيته. فرباه أحسن تربية، حيث أذاقه حظاً من معرفة الله، وعلمه الأخلاق الحميدة، والإيثار، والتضحية حتى بدا رجلاً ناضجاً ذو حكمة وعقل راجح. وبذلك فقد أُعِدَّ لاستلام زمام أمور دولة عظيمة ستحكم العالم كله.



وإذا ما نظرنا من هذه الزاوية فإننا نجد بأن المؤسس الأساسي للدولة العثمانية هو الشيخ أدبالي. فحينما كانت الإمارات الأخرى تنهار وتتساقط لأنها لا تمتلك شيخاً مثل الشيخ أدبالي، فإن ولاية آل عثمان كانت قد تحولت في زمن قصير إلى دولة، ومن الدولة انتقلت إلى امبراطورية كبيرة أخضعت العالم كله. فعرَّفت العالم خلال ستة قرون إلى الإسلام، ونشرت العدالة وحفظت الحقوق، فصارت وكأنها الميزان الإلهي في الأرض.

ووجه الشيخ أدبالي لغازي عثمان وصية، وكانت أيضاً وصية للسلاطين الذي يأتون من بعده، ونورد فيما يأتي مقتطفات منها:

«يا بني! أنت سيد قومك! ولذا فمنذ الآن:

لنا الغضب، وعليك الحلم... ولنا الامتعاض وعليك أخذ الخاطر... ولنا الاتهام، وعليك التحمل...

ولنا الخطأ والعجز، وعليك التسامح... ولنا النشوز والاشتباك، وعدم الوئام، وعدم التفاهم، وعليك العدل... ولنا نظرة السوء والتشاؤم، والتأويل على الباطل، وعليك العفو والصفح».

«**يا بني!** منذ الآن: لنا التقسيم، وعليك الجمع والإكمال... لنا الكسل، وعليك الإنذار والتشجيع...».

«**يا بني!** إن حملك ثقيل، وعملك صعب وشاق، فليسهل الله عملك، وليبارك إمارتك، ولينفع بك في سبيل الحق، ولينر



لك طريقك، وليصل بك إلى أبعد الأماكن، وليمنحك القوة التي ستعينك على حملك، والعقل والقلب اللذين يحفظانك من زلة القدم».

«وعليك أنت وأصحابك أن تفتحوا ما وعدنا به بالسيف، وأن نقوم نحن الدراويش بفتحه بالتفكير والدعاء، وعلينا أن نزيل هذه السدود أمام الطريق».

«إن الصبر مهم للغاية، وعلى الأمير أن يعرف كيف يصبر. فلا تتفتح الزهرة قبل أوانها، والكمثرى النيئة لا تؤكل قبل نضوجها، وحتى وإن أُكلت فإنها تظل باقية في المعدة وهضمها عسير، والسيف دون العلم والمعرفة كالكمثرى غير الناضجة تماماً».

«ولتحيا أمتك في عرفانها. ولا تدر لها ظهرك، واشعر بوجودها في كل آن ولحظة. فالعرفان هو الذي يدير المجتمع، وهو الذي يبقيه حياً».

«ولتعلم أن أكبر انتصار هو معرفة النفس. والعدو هو نفس الإنسان، والصديق هو من عرف نفسه».

«إن الدولة ليست ملكاً مشتركاً يتقاسمه من يديرها مع أبنائه وإخوته، فالدولة عائدة لمن يديرها فقط. وعندما يموت، تكون الدولة تحت إدارة من يحل محله أياً كان. لقد قسم أجدادنا دولهم وإماراتهم بين أبنائهم وإخوانهم وهم ما زالوا على قيد الحياة، لذلك لم تتمكن دولهم من البقاء، ولم يتمكنوا هم من الحفاظ عليها».



«إذا جلس الإنسان مرة فإنه لن يتمكن من النهوض مرة أخرى بسهولة. فالمرء لا يزال يجلس حتى يصبح كأنه مخدر، وإذا تخدر يتحدث دون وعي، وهذا الحديث يتحول إلى الغيبة، وإذا بدأت الغيبة فلن يفلح الأمر أبداً، ويصبح الصديق عدواً، والعدو سبعاً متوحشاً».

«ينبغي أن لا يُراق الدم هباءً، وفي غير محله. وإنما يجب أن يكون له سبيل ووجهة... فالدم لا يراق ويسيل لإرواء الأرض.»

«واعلم أن قوة الإنسان تنفد في يوم من الأيام، ولكن العلم والمعرفة تحيا. وإن نور العلم يسري حتى إلى العيون المغمضة وينيرها».

«إذا مات الحيوان بقي سرجه، وإذا مات الإنسان بقي أثره. فلا تبكِ على من غادر، ولكن ابكِ على من لم يترك خلفه أثراً... علينا أن نكمل ما تركه من ذهبوا من حيث تركوه».

«لا أحب الحرب، ولا أفرح بإراقة الدماء. ومع ذلك أعلم أنه يجب أن يُرفع السيف، ويُغمَد، إلا أنه يجب أن يُرفع ويُغمَد من أجل إقامة الحياة، فضرب الواحد للآخر بالسيف جريمة وجناية. إن مكانة الأمير ليست أعلى من مكانة الدولة، والحرب لا تُقام من أجل الأمير فحسب».

«ليس لنا الحق في الوقوف أو الاستراحة، لأنه لا وقت لدينا، فالمدة قصيرة».



«الوحدة للخائف الجبان. فالفلاح الذي يعرف وقت الزرع في أرضه لا يستشير أحداً ولو بقي وحده. فيكفي أن يعرف أنه حان وقت زراعة الأرض».

«ينبغي أن يكون الحب أساس الأمر، وإن الحب ينمو في الصمت. فلا يأتي الحب بالصراخ والصياح، ولا بمجرد الرؤية!..»

«إن الذي لا يعرف ماضيه لن يعرف مستقبله يا عثمان! فعليك معرفة الماضي جيداً لتمضي نحو المستقبل بخطىً ثابتة وسليمة. فلا تنسَ من أين جئت، كي لا تنسى إلى أين أنت ذاهب...».

كان الشيخ أدبالي بأحكامه القيمة هذه يشكل شخصية الأمير عثمان، وكأنه يعجن عجينة بين يديه. وكان عجنه لزاماً عليه، لأن الأمير عثمان غازي كان في موقف صعب وحرج. إذ كان أمام خيارات دقيقة: أيتحد مع الإمارات التي قدمت إليه من كل ناحية للالتحاق به والانضمام إليه؟ أم يترصد للبيزنطيين والجرمانيين؟ أم يتربص بالمغول ويراقبهم؟ أم يحارب أمراء الروم في الأناضول؟!

كان الشيخ أدبالي بهذه الأحكام والنصائح وفي غيرها من المواضيع والمسائل المشابهة خيرَ مرشد ومعين للأمير عثمان، وكان يمهد له بفيض تقواه ونوره الطريق الذي سوف يسير عليه.

لقد كان يتم إيلاء أهمية كبيرة لتنشئة أولاد السلاطين في الدولة العثمانية. فكان يبدأ تلقينهم المعارف والعلوم في سن مبكرة جداً. ويتم إكمال تعليمهم وتربيتهم في المراحل اللاحقة على



يد أحد كبار علماء العصر. وكان يتم التركيز على التربية المعنوية والروحية بشكل خاص، لأنه سيتم تسليمهم أمانة الملك والحكم في المستقبل، فدوام الدولة بدوام العدل فيها؛ وقد قيل: «العدل أساس الملك».

وكانت تستمر توجيهات وإرشادات ومواعظ العلماء والمرشدين لأبناء السلاطين حتى بعد توليهم حكم الدولة.

لقد كانت توجيهات المرشدين بالنسبة للسلاطين ورجال الدولة في كل عصر كحضن الأم الدافئ المليء بالشفقة والرحمة. ومن هؤلاء المرشدين عزيز محمود هدائي، فقد كان يبعث برسائل الوعظ والإرشاد إلى السلطان مراد الثالث وكانت هذه الرسائل تتضمن أحياناً نوعاً من الحزم والشدة. وكان قد خرج مرة مع الجيش المتوجه من إسطنبول إلى تبريز بقيادة فرحات باشا، فاهتدى الجنود وشعب تبريز ببركة دعاء وروحانية سلطان القلوب هذا.

ونورد فيما يأتي مثالاً عن المواعظ تجاه السلاطين:

بينما كان السلطان ينزل من قصره ذات يوم للتوجه إلى صلاة الجمعة، نادى أحد العوام قائلاً:

«فليحيا سلطاننا، ويدم ملكه!» مبدياً إعجابه ومحبته للسلطان.

فأخذ السلطان يمشي بين جموع الناس وقد أحاط به صفان من الحراس عن يمينه وشماله. ولكي لا تتغلب على السلطان المشاعر



النفسانية فيزهو ويغتر بذاته أمام حفاوة الناس به وعبارات المديح والثناء التي يطلقونها بشأنه، نبهه أحد الحراس بصوت منخفض:

«لا تغتر بنفسك أيها السلطان، فالله أكبر منك».

لقد زينت الدولة العثمانية العلية مجرى التاريخ والعدل والتسامح طوال المدة التي استمرت فيها مواعظ أدبالي التي وجهت السلاطين، والدولة، والشعب، وبثت فيهم الروحانية، والحماس والوجد الإيماني.

ومن التابعين لسلسلة الأدبالي: الشيخ أمير سلطان مرشد السلطان يلدرم «الصاعقة»، والشيخ حاجي بيرم ولي مرشد السلطان مراد الثاني، والشيخ آق شمس الدين مرشد السلطان محمد الفاتح، والشيخ مهدي باشا مرشد السلطان بيازيد الثاني، والشيخ ابن كمال باشا مرشد السلطان سليم، والشيخ مركز أفندي وسنبل أفندي مرشدا السلطان سليمان القانوني، والشيخ عزيز محمود هدائي مرشد السلاطين مراد الثالث، وأحمد الأول، ومراد الرابع.

C

ينقل مؤرخو ذلك العصر واقعة عن السلطان سليم لدى دخوله مصر:

«عندما دخل السلطان سليم مصر، تجمع الأهالي في الطرقات وعلى شرفات المنازل والنوافذ من أجل رؤية عظمة السلطان أثناء



مرور موكبه. إذ كانوا يظنونه إنساناً مختلفاً عن غيره بهيئته وملابسه وحاشيته. إلا أن الواقع لم يكن كذلك، حيث كان السلطان يسير وسط الجنود كفرد منهم، وليس في مقدمة الجيش، ولم تكن ملابسه وهيئته تختلف بشيءٍ عن ملابس غيره، وكان يسير مطرقاً بناظريه على الأرض تواضعاً. ولدى عودته من مصر إلى الشام حضر صلاة الجمعة في جامع «الملك المؤيد»، وأثناء الخطبة سمع الخطيب يتحدث عنه قائلاً:

«حاكم الحرمَين الشريفَين».

فاعترض السلطان على قول الخطيب وقد امتلأت عيناه بالدمع، فقال:

«لا، لا! بل: خادم الحرمين الشريفين».

ولما عاد السلطان إلى إسطنبول وصل نهاراً إلى «أُسكدار». وعندما علم بأن الأهالي سوف يستقبلونه بتجمهر واحتفال كبير قال لحسن جان:

«لننتظر حتى يحل المساء، ويعود كل إنسان إلى بيته، وتفرغ الطرقات والأزقة من المارة، وبعدها ندخل إسطنبول. فأنا لا أود أن تتغلب علينا أهازيج وتصفيقات الفانين، ونشوة الانتصار فتثير فينا الغرور والعجب وتسقطنا أرضاً!..»

C



إننا نرى السلطان سليم وهو يدخل إلى صحراء سيناء المرعبة أسداً ضارياً، ونراه وهو يدخل مصر رجلاً مؤمناً متواضعاً دامع العينين، شاكراً ربه، ونجده وهو يدخل «أُسكدار» درويشاً غارقاً في اللذات الإلهية التي توجهه لمحاسبة الذات.

وقد كان السلطان يقرأ على صديقه المخلص حسن جان هذه الأبيات:

ملك العالم مجرد صراع بلا جدوى

وخدمة ولي أجلّ من كل شيءٍ وأعلى!..

C

ويتحدث حسن جان الصديق الحميم للسلطان سليم عن وفاته، فيقول:

«ظهر في ظَهْر السلطان خراج كبير يُسمى مخلب الأسد. وفي مدة قصيرة كبر هذا الخراج وتضخم، وتحول إلى ثقب في جسده. حتى كنا نرى كبد السلطان من هذا الثقب. كان في حالة اضطراب شديد، فاقتربت منه وقلت:

- يبدو يا مولاي السلطان أنه قد آن الأوان لتكون مع الله تعالى!.

فالتفت إليَّ السلطان العظيم، ونظر إلى وجهي بدهشة وتعجب، وقال:



- حسن! حسن! كنت تظنني مع من إلى الآن؟.. اتلُ عليَّ سورة يس!. فخرجت روحه الطاهرة لبارئها أثناء تلاوتي لسورة يس».

لم تستطع لا الانتصارات العظيمة التي حققها السلطان، ولا المكانة الرفيعة التي وصل إليها، ولا مباهج الدنيا ومظاهرها الخلابة المتناثرة حوله، ولا إطراءات الفانين، أن تتغلب عليه. فعاش وقلبه دائماً مع الله تعالى، ولم يخضع بالعبودية إلا له، ولم يطلب العون والمدد إلا منه...

اللهم ارزقنا عبوديتك التي هي المُلك الحقيقي وثبِّتنا عليها حتى آخر نفس من حياتنا! آمين!..

E





من الأسر إلى الحرية

«إذا متُّ فلا تقل "الفراق، الفراق" عندما أوضع في التابوت، ولا تقل "الوداع، الوداع" عندما أمدد في القبر! لأن الموت عندي ليس بالشيءِ المحزن، وإنما شيءٌ مفرح».

«فما أسعد ذاك الذي يكون قد مات قبل الموت؛ وشمت روحه رائحة بستان الحقيقة».

مولانا جلال الدين الرومي



من الأسْر إلى الحرية

كان لدى أحد التجار ببغاء جميل، وضعه في قفص داخل داره. وكان يحبه حباً شديداً.

ذات يوم أراد التاجر الخروج في تجارة إلى بلاد الهند. فبدأ بالاستعداد للرحلة بتحضير كل ما يحتاجه في طريق سفره. وكان ذاك التاجر كريماً ومعطاءً، لذا أخذ يسأل خدمه عن الأشياء والهدايا التي يرغبون أن يجلبها لهم من بلاد الهند لدى العودة. وكان من الذين سألهم محبوبه الببغاء، فقال له:

- ماذا أجلب لك هدية من الهند؟

قال الببغاء:

- تحدث لطيور الببغاء في الهند عن حالي، وبلغهم سلامي!

كان ذلك الببغاء السجين في القفص يريد أن يُسمع بلسان حاله ببغاوات الهند شكواه وأنينه، فيقول:

«قل لهم: إن الببغاء فلان مشتاق لكم، وقد شاءت الأقدار أن يكون حبيساً في القفص مدى الحياة. لقد أرسل إليكم السلام وطلب الغوث، وسألكم الوسيلة وطريق الإرشاد».



«أيليق أن أسلم الروح في القفص اشتياقاً، وأموت هنا من الفراق؟! وهل يجوز أن أكون أنا في الغلِّ الثقيل، وأنتم فوق الخضرة حيناً، وفوق الأشجار أحياناً أخرى؟ أهكذا يكون وفاء الأصدقاء! أكون أنا هنا في هذا السجن غريباً متحسراً على فراقكم، وأنتم في الرياض بين الأزهار والرياحين؟».

«فيا سادة الببغاوات! تذكروا هذا الطير المسكين عندما تشرق الشمس، وعندما تتساقط قطرات الندى من أوراق الشجر والأزهار.»

«فذكرُ الأصدقاء يكون يمناً وسعادة على الصديق... لا سيما إذا كانوا في مقام ليلى، وهو في مقام مجنون...».

«فيا أيها الرفاق الذين تخفقون بأجنحتكم سوياً في السماء! إنني أحتسي الأقداح مليئة بدمي النازف، وأنتم تحلقون أحراراً في تلك البلاد! فاشربوا كأساً من الخمر على ذكراي، هذا إن كنتم لا تريدون القيام بنجدتي! أو أريقوا جرعة فوق التراب على ذكرى هذا العاجز البائس الساقط فوق التراب!..».

فتلقى التاجر رسالته، ووعده بإيصالها، ثم خرج في طريقه إلى الهند. ولما وصل إلى الهند رأى سرباً من الببغاوات تطير بين الأشجار من غصن إلى غصن. فناداهم وبلغهم تحية الببغاء السجين وسلامه.

لقد أثَّر السلام الذي أرسله الببغاء السجين بلسان حاله، أي أنينه ونواحه وعتابه، في ببغاوات الهند، وهيج مشاعرهم. حتى



إن أحدهم أصابته حال من الرجفان والقشعريرة حتى سقط أرضاً، فتوقفت أنفاسه، ومات.

دُهش التاجر من هذه الحالة، وتعجب كثيراً. فندم على ما بلغهم إياه، وقال لنفسه:

«لقد سعيت في إهلاك كائن حي، وارتكبت ذنباً. من يدري؛ فلعله كان قريباً لذلك الببغاء المسكين، وربما كانا جسدين والروح واحدة. لمَ فعلتُ هذا؟ ولمَ أبلغت الرسالة؟ لقد قضيت على المسكين بهذا القول الساذج، وأحرقته!».

لما أنهى التاجر أعماله وعاد إلى بلاده، أخبر الببغاء السجين لديه بما جرى معه وسط حال من الحيرة والحزن والكآبة، فقال:

«أيها الببغاء! إنني نادم على ما فعلت أشد الندم، وإني أعض على أصابعي من الندم، وأضرب كفاً بكف؛ ولكن ما نفع الندم الأخير؟».

كان الببغاء يستمع بكل اهتمام وانتباه إلى كلام صاحبه التاجر، وما إن أنهى كلامه، وتلقى الجواب الذي كان يتوق إليه حتى انتابته حالة كالتي أصابت رفيقه الذي في الهند، فأخذ يرتعد ويرتجف بشدة، ثم سقط على أرض القفص، وانقطعت أنفاسه.

فلما رأى التاجر هذه الحالة تأثر تأثراً شديداً بحال الببغاء، فقفز من مكانه، ونزع قلنسوته عن رأسه وألقى بها على الأرض، وشق جيبه، ولطم صدره، وأخذ ينوح قائلاً:



«أيها الببغاء الجميل، يا طائري يا صاحب الصوت الحنون، ماذا حصل! ما الذي جرى لك؟ لماذا صرت على هذا الحال؟ وا أسفاه عليك يا صاحبي! وأسفاه عليك يا نجيي وموطن أسراري! لو كان لسليمان عليه السلام مثل هذا الطائر، ما كان يبالي بغيره من الطيور...».

لأن الطائر كان بالنسبة إليه مصدر نشوته ومتعته، ونديم مجلسه، وحافظ أسراره. فاستمر بالبكاء والنواح والأنين وقد صار بحالة يُرثى لها. فكان مرة يقول:

«لله ما أعطى وله ما أخذ»، ومرة ينوح يصرخ. وتارة يسرح في عالم الخيال، وتارة يجنح إلى الحقيقة. كان يحترق ويذوب لفراق الببغاء، ويبحث عما يواسي به نفسه. لقد كان يُحمِّل لسانه الذنب، ويتهمه قائلاً:

«يا أيها اللسان! إنك خسارة كبيرة على الورى، لقد آذيتني وجرحتني، فماذا أقول لك يا ترى؟ أيها اللسان! إنك أنت النار، وأنت البيدر! فإلام ستضرم النار في هذا البيدر؟ فالروح صارخة في داخلي منك، إنها تعاني وتتألم منك بالرغم من أنها تفعل كل ما تقوله لها!.. أيها اللسان إنك أحياناً الكنز الذي لا ينفد مثل لسان العباد الخواص، وأحياناً أنت الألم الذي لا علاج له مثل لسان الفاسقين المسموم! يا عديم الإنصاف! يا من تخرج الأفعى من وكرها، والإنسان من دينه! ألن ترحمني، يا من شددتِ عليَّ قوسك حقداً!..».



فظل التاجر يبكي ويتحرق وينوح مدة، ثم أخرج الببغاء الميت من القفص. وبدأ بتجهيز مكان لدفنه فيه.

وبينما كانت تتم تجهيزات الموت، سرت الروح في جسد الببغاء فجأة واستعاد وعيه. ثم خفق بجناحيه وطار بعيداً، وحط على غصن شجرة عالية.

دُهش التاجر من الببغاء وما فعله. وأخذت نار الفضول تتأجج في داخله تطلعاً لمعرفة أسرار هذه الحالة، فنادى على الطائر قائلاً:

«يا أيها الطائر، يا عندليب، أخبرنا عن أحوالك بنصيب! ماذا فعل الذي هناك في الهند، وماذا تلقيت منه وتعلمت لتفعل هذه الحيلة؟ أو تراك مكرت مكراً وألحقت بنا الهزيمة؟ ما سر هذا؟ أخبرني لآخذ نصيباً من هذه الأسرار المعنوية! فلا تدعني محروماً!»

فأجابه الببغاء قائلاً:

«لقد نصحني بهذا الفعل الذي أخبرتني عنه، وصار لي مرشداً. وكأنه قدم ماء الحياة لصدري الملتهب. فقال لي: دعك من حلاوة الصوت والوداد، ذلك أن صوتك هو الذي الذي أوقعك في السجن، ونصحني أن أجعل نفسي ميتاً من أجل هذا. وقال: يا من صرت مطرباً للعامي والخاص، يا من تسحر العالم والجاهل بهذه النغمات الجميلة الشجية! يا من تطرب الناس بهذه النغمات المحرقة! اعقل ودعك من هذه النغمات! ومت مثلي حتى تجد الخلاص!. فتلقيت التعليمات ونفذتها، فتظاهرت بالموت وحررت نفسي!..».



ثم تابع الببغاء كلامه قائلاً:

«الوداع أيها السيد! فقد تحررت من القيد والأسر، وها أنا أعود إلى الوطن. وإنك إن تفعل مثلي فإنك تتحرر وتتخلص بسلام من قفص البدن، وتصل إلى الحرية، إلى الوطن الأصلي، أي إنك ستعود إلى الجنة حيث المكان الذي جاء منه أبوك آدم عليه السلام!.. فإن تحررت من هذا البدن الطيني، فسوف يسمو ويعلو شأنك كثيراً!..».

أخذ التاجر نصيباً من هذه الكلمات، فأفاق من دهشته، وقال لنفسه:

«لتكن هذه النصيحة نصب عيني، ولأسلك طريق الببغاء. فهذا الطريق هو ماء الحياة الذي يكشف للإنسان الحقيقة، ويُسلكه الطريق المنير، وهو إكسير الأبدية!».

C

إن الببغاء المحبوس في القفص الذي مر ذكره في الحكاية يرمز إلى الروح التي دخلت في أسر البدن، أي النفس. وأما الببغاوات الطليقة والغارقة في الحرية في الهند والتي تحلق في السماء وتنتقل من غصن إلى غصن فهي الأرواح المجردة المتحررة من ملذات الدنيا، والمتخلصة من أسر الفناء والأشياء المادية، أي هي روحانيات أولياء الله تعالى.



والتعليمات التي أرسلتها الطيور في الهند إلى الطائر السجين في القفص هي:

عليك اتباع السر الكامن في قول: «موتوا قبل أن تموتوا!»، فالخلاص لا يكون إلا بهذه الطريقة. يقول مولانا جلال الدين:

«موتوا لتبعثوا على صباح الحقيقة!».

وكأن الببغاوات في الهند قد قالت في هذا الشأن للببغاء المحبوس في القفص:

«مت أنت أيضاً! أي تخلص من نفسك قبل مجيء الموت الطبيعي. تعلم الموت بإرادتك من جسدك النفساني، وانتقل إلى حياة روحانية؛ وحلق بجناحيك إلى السماوات المعنوية والروحية!».

لأنه إن لم تكن حياة الذي لا يستطيع أن يحيا بحقيقته وأصله والغافل عن الجوهر المكنوز في داخله عبارة عن شيء ينازع ويحتضر في قفص الجسد، فما هي إذاً؟ فالحياة الحقيقية تبدأ بموت النفس. فهذا الموت هو الحياة بعينها.

لذلك يقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«إن حكاية ببغاء الروح تشبه حكاية ببغاء التاجر».

«فيا أيها الغافل! مت مثل هذا الطائر حتى تتحرر وتنجو! فإن كنت مثل الحبة تلتقطك الطيور، وإن كنت مثل البراعم يقطفك الأطفال».



«فأخف الحبة وكن بأجمعك فخاً، وأخف البرعمة، وكن كالنبات المتسلق على السطوح، والمتخفية في ثقوب الجدران!»

«أي ابتعدوا عن الشهرة، وإظهار الذات، وتخفوا عن الأعين! والتزموا بالتواضع! فإنكم بذلك تتخلصون من نظرات الحساد، ومن تجاوز الحد كالمجنون!».

«وكل من عرّض حسنه وجماله في المزاد، اتجهت إليه سهام السوء والبلايا. فتنصبّ عليه كل نظرات السوء والحسد، وألوان الغضب والأحقاد مثلما تنصب المياه من القُرب. ويمزقه الأعداء غيرة وحسداً، والأصدقاء مدحاً وثناءً. ولا سبيل للنجاة من هذه المخاطر إلا بالتخلص من قيد الكينونة والفرار إلى ألطاف الحق».

والخلاص من قيد الكينونة والوجود إما بالموت، أو الظهور كميت، أي التعلق القلبي التام بالأوامر والنواهي الإلهية والالتزام بها وتنفيذها. لذلك فإن جنيد البغدادي يعرف التصوف بقوله:

«هو أَن يميتك الحق عَنْك ويحييك بِهِ».

لأن الإنسان عندما يتحرر من العلائق الدنيوية فيلجأ إلى ألطاف الله تعالى وأنواره، فإن الآفات والكوارث والحوادث تخضع له وتصبح تحت سيطرته، وليس هي من تهيمن عليه. فالمياه التي هاجت وطافت نتيجة للغضب الإلهي فقهرت ودمرت أعداء الله، صارت كائناً أليفاً وودوداً أمام نوح وموسى عليهما السلام؛ وكذلك فإن النار التي أوقدها نمرود قد تحولت إلى بستان لإبراهيم عليه السلام.



فهذه الحوادث ليست مصادفات، وإنما هي معجزات تحتوي على تجليات لطف وعنيبة الله تعالى بعباده الصالحين، عدا عن الحكم والعبر الكثيرة التي تتضمنها والتي نعجز عن فهم كنهها.

C

وهذه الحقائق تشير إلى أن الألطاف الإلهية هذه يمكن أن يُكرم بها سائر عباد الله الصالحين المستحقين لها بالشكل ذاته، أو بأشكال أخرى مختلفة. ولكن على العبد أن يتحرر من أنانيته ونفسه الأمارة، أي يتخلص من الصفة التي كانت سبباً في هلاك إبليس، ويتحرر من كل الأغيار، ثم يتوجه إلى ربه ويملأ قلبه بذكره.

وينبغي أن نعلم بأن الذكر ليس عبارة عن تكرار لفظ الجلالة باللسان فحسب، وإنما يكون الذكر بوعي بالله تعالى وحضوره في القلب، وإحاطة التجليات الإلهية وهيمنتها على النفس.

إن المداومة على الذكر توصل العبد إلى مرتبة تتوحد فيها حقيقة الذكر مع غاية خلق القلب. فيصبح القلب انعكاساً تاماً للذكر ومظهراً له.

إن حقيقة الذكر منزهة عن الحروف، والكلمات، والأصوات. ولأن جوهر القلب إلهي ورباني فإنه بدوره لطيفة منزهة. وعندما تتجرد الحقيقتان عن الأشياء فإنهما تتحدان، وتصبحان شيئاً واحداً. وفي هذه المرحلة يحيط الذكر بالقلب مثل حافظة



الجواهر، ويحميه من الأغيار. ويفنى القلب في الذكر. ويُمحى ويتلاشى كل شيءٍ ما عدا المذكور، أي الله سبحانه وتعالى. وهذه الحالة هي حالة الفناء. هي المقام الذي يخرج كل الفانين منه ويبقي فيه «الباقي» وحده. هي حالة الاطمئنان؛ حيث توصل العبد والقلب إلى السكينة والسلام.

فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٥٩]

وقال الله سبحانه وتعالى في آية أخرى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٦٠]

ويخبر الله تبارك وتعالى في آية أخرى عن عاقبة أهل الله الذي أنيرت قلوبهم بنور الله تعالى، فيقول:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٦١]

C

٥٩ الرعد: ٢٨.

٦٠ الأنفال: ٢.

٦١ يونس: ٦٢.

إن فهم الطائر المسجون في القفص لدقائق السر الكامن في هذه الإشارات واتباعه لها، وتطبيقها قد أوصله إلى سعادة الحرية الأبدية.

والحق إن الجسد بالنسبة للروح عبارة عن قفص. وتدخل وتخرج من هذا القفص الآلاف من الطيور، وليس طير واحد فحسب. وإن الطيور الداخلة هي القوى النفسانية، والرغبات الجسمانية، والوساوس الشيطانية. وأما الطيور الخارجة فهي عبارة عن الذين يجاملون الشخص ويتملقون له، ويطرون ويثنون على الإنسان لمقتضيات المنفعة والمصلحة. وإن كل واحد من هذين الصنفين يقول للإنسان أشياء مختلفة: فالبعض يقول:

- أنا صاحبك الحقيقي!

والبعض يقول:

- لا، لا يمكن أن يكون أحد حبيبك ورفيق دربك إلا أنا!

وبعضهم يقول متملقاً:

- إنك إنسان رائع وكريم، وصاحب فضل وخير، ومتسامح!

ويقول آخر:

- لقد خلق العالم من أجلك. ونحن لسنا إلا خدم وعبيد على بابك!

ويقول البعض معلقاً على كلامك بدافع المحاباة:

- أصبت القول!



وتتوالى هذه الحالات وأشباهها كثيراً في الحياة. ومما يدعو للتندم والأسف أن هناك أناساً ممن افتتنوا بقفص البدن، وسيطر عليهم الغباء والغفلة والغرور يتأثرون بمثل هذه العبارات المتملقة ويبدؤون بتصديقها ظانين أنهم بالفعل أصحاب قدر وشأن عظيم. ولا يعلم هؤلاء المساكين أن هذه الأمور تحتوي في داخلها أخطر الحيل والمكائد الشيطانية. لأن هذه الإطراءات والمجاملات والتملقات الدنيوية تكون في البدء بالنسبة للمخدوعين والمفتونين كطعام لذيذ، أو نغمات موسيقية تبعث في نفسه النشوة والطرب. مع أنها غذاء شيطاني مسموم يتحول في النهاية إلى جمرات متقدة، فهي وإن أثارت في البدء اللذة والدفء في النفس، فإنها تنتهي بالهلاك والحرق. فالذين لا يشعرون بهذه الجمرات المهلكة في الدنيا سوف يدركون حقيقة الأمر في الآخرة عندما يجدون أنفسهم وسط ألسنة النار واللهب التي تصهر الحجر والمدر، ولكن حينها يكون قد فات الأوان وقضي الأمر؛ وسوف تتعالى النغمات الأخيرة لصراخهم وعويلهم واستغاثاتهم...

لذلك يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«أمران يهلكان المرء: اتباع الهوى، وحب الثناء عليه..».

C



يقول الحق سبحانه وتعالى في كتابه العظيم:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[62]

لقد جعل الله ﷻ السعادة الأخروية من نصيب عباده المتقين المتواضعين الذين لا يتعالون ولا يستكبرون، ولا يفسدون في الأرض، والذين تفيض قلوبهم بحب الله تعالى.

لأن الذين ابتعدوا عن التواضع وخفض الجناح واتصفوا بالخصال السيئة لم يستطيعوا التخلص والتحرر من النفس الفرعونية المستكبرة. وعلى ذلك ينبغي التخلص من مثل هذه الأخلاق المذمومة بالتواضع.

إن فضائل التواضع كثيرة. فالإنسان المتواضع كريم وسخي. والكريم رحيم. والإنسان الرحيم يتفانى في خدمة المخلوقات بمشاعر من اللذة. وبذلك ينال رضا ربه ﷻ. وأما الإنسان البعيد عن التواضع فمحروم من هذه المزايا والخصال المحمودة.

ولأن الاتصاف بخصلة التواضع يؤدي إلى رقي الإدراك في العبد، فإن الإنسان المتواضع يميز بسهولة صديقه من عدوه. فهو يكتشف عندما يفقد المنصب والسلطة والمكانة التي كان يشغلها لتواضعه بأن الذين كانوا يتملقون له ويتوددون إليه ويكيلون له

---

٦٢ القصص: ٨٣.



المديح قد تحولوا في لحظة إلى أعداء. وصاروا ينظرون إليه نظرة ازدراء ودونية، ويتبرمون منه ويفرون منه كما يفرون من السباع.

لذلك على العبد أن يبذل جهده ليكون في صحبة أهل الله الذين يكونون كمرآة قلبية تعكس له حقيقة ذاته، وأن يعرف جيداً نفسه وحيلها. ولكن ينبغي النظر إلى أحوال أهل الله بعين القلب وفهم أسرارها وحكمها، وتجنب الأحوال الخاطئة والمنحرفة التي تظهر نتيجة لوساوس النفس المختلفة.

ينبغي أن نعلم بأن أقوال وأحوال أهل الله حِكم. فهم أحياناً يشيرون إلى الأسرار الكامنة في أقوالهم بجملة من الإشارات والرموز، وذلك لإخفائها عمن ليسوا أهلاً لها، وعدم حرمان من هم أهل لها. فلا يدرك معنى تلك الأسرار إلا أصحاب القلوب الرقيقة. وأما المحرمون من الحكمة من أصحاب القلوب الخام والتفكير السطحي الضحل، فإنهم يسمعون الألفاظ ويكتفون بالتوقف على قشورها، ويعجزون عن النفاذ إلى جوهرها. يقول أبو هريرة ﵁:

«حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين (علمين): فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطِع هذا البلعوم...»[٦٣]

لقد كان رسول الله ﷺ يجمع في ذاته كافة خصال النبوة والولاية. فقد جمعت فيه الصفات المختارة والفضيلة لما يقارب

٦٣ البخاري، العلم، ٤٢.



من مئة وبضعة وعشرين نبياً ورسولاً بأجمل وأكمل صورة. فهو كان كمال الصفة المميزة لكل نبي وولي.

لقد اتصف كل نبي بصفة أو خصلة مميزة خاصة به. على سبيل المثال:

تميز سيدنا إبراهيم عليه السلام بصفة «خليل الله» والذي يعني صاحب الله الذي لا يوجد في قلبه أثر وظل أي كائن ما سوى الله تعالى. وتميز سيدنا موسى عليه السلام بصفة «كليم الله» والتي تعني بأنه كلم الله تعالى مباشرة دون وسيط. وتميز سيدنا عيسى عليه السلام بصفة «روح الله»، والتي تعني بأنه بلغ كمال الأخلاق بتصفية وتزكية الباطن.

وكذلك فقد تميز كل واحد من السادة الأولياء بصفة خاصة. فعلى سبيل المثال:

تميز عبد القادر الجيلاني رحمه الله بالتصرف المعنوي؛ وتميز محي الدين بن عربي رحمه الله بالعلوم والكشوفات المعنوية؛ وتميز مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله بالمحبة والعشق.

C

يقول مولانا جلال الدين واصفاً حاله:

«لقد تحدثت عن هذه الأسرار بصورة مبطنة ومختصرة. ولم أبينها بكل وضوح وجلاء. لأنه لو حاول أحد بيانه بشكل موسع سيحترق لسانه، ويحترق إدراك مستمعه».



ويقول في موضع آخر:

«إن بيت قصيدتي ليس مجرد بيت، وإنما عالم من المعنى. وإن هزلي ليس بهزل، وإنما تأديب؛ وإن حكاياتي ليس مجرد أقوال بسيطة وعادية، وإنما تعاليم. فهي من أجل بيان وإدراك الأسرار».

إن المثنوي كتاب مُعد من أجل التعليم، والإرشاد، والتربية. وإحدى خصائص المثنوي الأخرى هي دخوله إلى وادي الهزل أحياناً لكون الناس يختلفون في الاستعدادات والملكات ومستويات الفهم. أي أنه يبين من خلال الحكايات والقصص التي تبدو في الظاهر بسيطة وهزلية، أسرار ودقائق التنظيم الإلهي في الكون بنمط مختلف ومتميز.

يصف مولانا جلال الدين وفاته بأنها «ليلة الزفاف»، ويصف خلاصه من قفص البدن بالوصل إلى «الحسن المطلق»، وذلك بعبارات تحمل الكثير من المعنى والأسرار، فيقول:

«ليحتفل أحبابي ويجعلوا تلك الليلة عيداً وليفرحوا لحالي!..»

«إذا مت فلا تقل: (الفراق، الفراق) عندما أوضع في التابوت، ولا تقل: (الوداع، الوداع) عندما أمدد في القبر! لأن الموت عندي ليس بالشيءِ المحزن، وإنما شيءٌ مفرح».

C

وسئل مولانا جلال الدين رحمه الله: ما الدنيا؟ فأجاب: «سجن الأرواح!».

يشكو يونس أمره إلى البلبل حالة الغربة التي يعيشها في سجن الدنيا هذا، فيقول:

لماذا تنوح وتبكي أيها البلبل؟!

هل أصبحت غريباً هنا؟

لماذا تنوح وتبكي أيها البلبل؟!

هل تعبت وأضعت الأثر؟

لماذا تنوح وتبكي أيها البلبل؟!

هل قطعت جبالاً غطتها الثلوج؟

هل خضت أنهاراً عميقة؟

هل فارقت محبوبك؟

يقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«أنا في سجن الدنيا هذا لأنني كلفت بهذا العمل وبمهمة إرشاد الناس. وإلا ما لي وللزنزانة؟ فمالُ من سرقت حتى أسجن هنا؟!..».

إن كل خطوة يخطوها العبد في هذه الدنيا تقربه خطوة إلى المنزل الذي سيصل ويأوي إليه. وإن كل نَفس يتنفسه يقرب موعد رحيله عن الدنيا. ومن جهة أخرى؛ فإن الوطن الأصلي للأرواح



هو عالم الأرواح. وبالتالي فإن كل نفس يتنفسه العبد يقرب الروح أيضاً إلى وطنها الأصلي. إن العمر يُتم وقته المحدد له بالأنفاس التي تخرج من الصدر بصمت دون أن تحدث صوتاً أو صدى، تماماً كالماء الذي يتبخر من الحوض ويتلاشى في السماء.

ولأن أصل البنية المادية للإنسان هو التراب، فإنه يتفسخ في الأرض ويتحول إلى تراب، أي أنه يعود إلى أصله.

فهذا حال المعنويات كما هو حال الماديات. فالذين خميرتهم المعنوية من صيدلية الجنة يذهبون إلى الجنة؛ والذين خميرتهم من جهنم، يذهبون إلى جهنم.

يلخص مولانا رحمه الله العمر بثلاث مراحل، فيقول:

«كنت نيئاً، فنضجت، فاحترقت».

إن احتراق الجسد يعني: تحرر الروح من كافة الملذات والمتع الدنيوية نتيجة لامتلائها بالأغذية المعنوية وعدم بقاء أي مكان للأغذية الحيوانية.

كما أن الفراشة تنجذب إلى الضوء وتدور حوله ثم تفقد إرادتها، فترمي بنفسها إلى النار فتحرق جسدها، كذلك فإن مولانا رحمه الله يقول:

«لا يمكن الوصول إلى لذة المحبة والعشق الإلهي دون حرق الجسد».



يقول مولانا رحمه الله محذراً من السقوط في متاهات النفس:

«لا تأكل الطين! ولا تشتري الطين! ولا تبحث عن الطين! لأن آكل الطين مصفر الوجه على الدوام.»

«تناول غذاء الروح لتوصل الاستعدادات والطاقات القلبية إلى الكمال! أي تغذى بالفيوض المتولدة في القلب لتبقى دائماً شاباً يافعاً، ومُناراً وجهك بالتجليات الإلهية مثل زهرة الأرجوان».

C

ألقى الملك البابلي نمرود سيدنا إبراهيم عليه السلام في النار. ولكن الله تعالى أمر النار قائلاً:

﴿...يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٦٤]

فاستجابت النار لأمر ربها ولم تحرق إبراهيم. بل تحولت إلى بستان حوله... ولو دخل نمرود ورجاله إلى تلك النار لذابوا فيها وما بقي من أثرهم حتى الرماد، لأنهم لا يمتلكون الصفة الإبراهيمية، وإنما فيهم الصفة النمرودية.

C

عندما وقف الصفان وجهاً لوجه في معركة بدر، أخذ النبي ﷺ حفنة تراب من الأرض، ورمى بها باتجاه العدو. فدخلت ذرات

٦٤ الأنبياء: ٦٩.



الغبار في عيون كل من كان في صفوف الأعداء، واضطر الجميع لفرك أعينهم. وانتهى الأمر بهزيمتهم. فنزل في ذلك قول الله ﷻ:

﴿...وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...﴾[65]

ففي تلك الحادثة كان النبي ﷺ أداة لفعل الله ﷻ.

وكذلك فإن أهل الله أيضاً يمكن أن يصبحوا أداة لفعل ربهم سبحانه وتعالى. فأحياناً تظهر القدرة الإلهية من خلالهم، أي يكونون وسيلة لظهورها. فهم يغدون المكان الذي تنعكس فيه الإرادة الإلهية (الفاعل المطلق)، وإنهم يقومون ببعض التصرفات الخارقة بإذن الحق سبحانه وتعالى.

من الضروري الخضوع لإرشاد وتربية مربٍّ كامل من أجل الخلاص من المشاعر والأحاسيس النمرودية والنجاة من براثن الشيطان، أي كي لا يكون الإنسان من الذين هلكوا ويهلكون نتيجة للطغيان والاستكبار والمنافع الدنيوية وبلوغ بر السلام. إذ إن الطائر المحبوس في القفص وصل إلى بر السلام باتباعه التام للرموز والتعليمات التي أرسلتها إليه طيور الهند، وصار من الأحرار. يقول مولانا رحمه الله:

«فما أسعد ذاك الذي يكون قد مات قبل الموت؛ وشمت روحه رائحة بستان الحقيقة».

---

٦٥ الأنفال: ١٧.



«يا ربنا! يا من ليس له تاج وعرش كالملوك (مع أنك مالك الملك)! هل يستطيع أحد سواك أن ينزع من أجسادنا نحن الضعفاء اليتامى مخالب النفس القاسية والحادة التي غرزت فيها؟..»

«فنجِّنا من هذه النفس اللئيمة، فقد وصل سكينها إلى عظامنا»

اللهم خذ بيدنا، واشترنا من أنفسنا، ونجنا! يا رب، ارفع حجاب الغفلة عن قلوبنا، واكشف عن بصائر قلوبنا! ولا تمزق يا رب حجاب ذنوبنا، واسترنا بسترك، ولا تفضحنا!.. آمين!..

E





النفس كأسد متوحش

«أيها السالك! في كيانك يوجد موسى كما يوجد فرعون. فينبغي أن تبحث عن هذين الخصمين اللدودين في ذاتك!..».

«وتنور بنور الوحي حتى يتغلب موسى الذي في داخلك على فرعون!..».

مولانا جلال الدين الرومي

النفس كأسد متوحش

كان هناك أسد شرس متوحش يعيش في غابة كبيرة. وكانت حيوانات الغابة كلها ترتعد خوفاً منه بسبب طغيانه وألوان الظلم الذي يذيقهم إياها. إذ كان هذا الأسد يتربص بهم، ويأتيهم بغتة من حيث لا يحتسبون، فينقض عليهم ويفترسهم بكل وحشية، بلا شفقة ولا رحمة. ونتيجة لحالة القلق والهلع التي أحاطت بالحيوانات والتي بلغت مبلغاً عظيماً لا يُطاق، أخذوا يبحثون عن مخرج وحل لمشكلتهم. فاجتمعت الحيوانات، وبعد أخذٍ وردٍّ ونقاشات ومباحثات طويلة اتفقوا على تشكيل هيئة وأرسلوها إلى الأسد. فقالوا له:

- يا ملك الغابات! إنك كل يوم تصطاد واحداً من بيننا، وتقتله وتأكله! وحاشى أن يكون لدينا اعتراض على ذلك، ولكن لم تجهد نفسك وأنت ملك الغابات؟ إننا جئنا لنعرض عليك أن تجلس على عرشك، ونرسل لك كل يوم واحداً منا، فتأكله بارتياح دون تعب! وهكذا نمضي نحن وأنت العمرَ بطمأنينة وسلام!...



وأخذت الحيوانات تسوق مختلف الحجج والتبريرات لإقناع الأسد، فقالوا:

- أيها الملك! إن السعي والعمل لكسب الرزق من ضعف إيمان الخلق. واعلم أن ما كسبوه بطمع وجشع لقمةُ رياء على قدر الحلق. ولا كسب هناك أفضل من التوكل، وأي شيء يُستحب من الخلق أكثر من التسليم! والله الذي يرسل المطر من السماء، قادر أن يهب الخبز من رحمته!

فقال الأسد:

- كيف أجعل نفسي أعرجاً ولي قدم؟ وكيف أخفي قوتي ولي قبضة ومخالب حادة؟

وكأنه غير راض بما قالته الحيوانات، إلا أنه لم يستطع مقاومة العرض المغري الذي عرض عليه، فقبله ورضي به.

فصار كل يوم يأتي حيوان على أقدامه ويسلم نفسه للأسد طواعية وذات يوم جاء دور الأرنب. فقالت الحيوانات:

- ما الذي بإمكاننا فعله، فهذا قدرك وقسمتك!.. إذ لا بد من موت أحدنا من أجل راحة المجموعة كلها!.. هيا! اذهب إليه دون إضاعة المزيد من الوقت!.. فعلينا أن لا نغضب الأسد.

إلا أن الأرنب رأى الأمر ثقيلاً عليه، ولم يقتنع كثيراً. ولما لاحظت الحيوانات اضطربت، وأخذت تعاتبه وتلومه قائلة:



- أيها الأرنب العنيد! لقد مضى زمن طويل ونحن صادقون في عهدنا، وموفون بوعدنا. وقد ضحينا بأنفسنا وأرواحنا في سبيل ذلك. فهل ستسيء الآن لسمعتنا؟!

فقال الأرنب:

- أيها الرفاق! لا تغضبوا ولا تنزعجوا مني، وإنما أمهلوني لبعض الوقت، فأنا أريد أن أمكر مكراً بهذا الأسد الذي طغى وتجبر، لأتخلص منه أنا وأنتم ونعيش بهناء!

فاستهزأت الحيوانات بفكرته واستخفت بها، وقالت له:

- ما هذا الهراء الذي تتفوه به؟ لا تنسَ أنك مجرد أرنب ضعيف وعاجز، فلا تتجاوز حدودك! فهذه الفكرة لم تخطر حتى ببال من هم أقوى وأرفع شأناً منك!.. إنك بكلامك وغرورك هذا سوف تجلب لنا المصائب والمتاعب! وإن ما تتشدق به لا يلائم مسكيناً وضعيفاً مثلك.

فرد عليهم الأرنب قائلاً:

- أيها الرفاق! لقد ألهمني الحق سبحانه وتعالى هذه الكلمات. لذلك ظهرت هذه الفكرة القوية من ضعيف وعاجز مثلي. ألا ترون أن ما علمه الحق ﷻ للنحل من إبداع ومعرفة لا يكون لا للأسد، ولا لحمار الوحش، ولا حتى للإنسان...!

فأصابت الحيوانات الحيرة والدهشة أمام هذا العزم والشجاعة والإصرار الذي أبداه الأرنب، وقالوا:



- أيها الأرنب الهمام! ألا عرضت علينا ما وصل إليه إدراكك؟ بح لنا بما فكرت فيه من رأي، فإن المشورة كما تعلم تمنح الإدراك والذكاء، والعقول تسدي العون للعقول، وينتج عن المشورة سداد الرأي.

إلا أن الأرنب الذكي علم بأن طلب البوح بالفكرة في مثل هذه الحالات قد لا يكون للتباحث والنقاش وتقديم المشورة بشأنها، وإنما قد يكون لإفشاء السر، والعمل على عرقلة فكرته والحيلولة دون تنفيذها، فرد طلب الحيوانات، وقال:

- لا ينبغي البوح بكل سر. أليست هيبة القدر في سريته؟ ألا يجعل القدر حتى أكثر العلماء والعقلاء عاجزين وضعفاء أمامه؟ ثم ليس بالإمكان البت بنهاية الأمر من بدايته. وإن الذين يتكلمون أمام المرآة سرعان ما يكدرونها فلا يرون شيئاً. ولذلك فإن العارفون لا يتحدثون إلا قليلاً عن أمور ثلاثة: الفكرة، والذهب، والمذهب. لأن لهذه الأمور الثلاثة خصوماً وأعداء كثيرين يتربصون بها، ويحيكون المكائد لتحصيل ولو معلومات قليلة بشأنها. ثم إن السر إن تم إفشاءه لأحد فعلى المرء توديعه، إذ أن كل سر جاوز الاثنين شاع.

وبعد نقاش وجدال طويل مع الحيوانات، ومضي الكثير من الوقت، خرج الأرنب في طريقه إلى الأسد وسط نظرات الحيوانات المليئة بالخوف والاضطراب والقلق. كان يقفز ويتراقص على الطريق بكل ثقة بعيداً عن مشاعر الخوف والكدر، وغير آبه بشيءٍ.



وفي هذه الأثناء كان الأسد قد استشاط غضباً لتأخر الرزق الذي كان يأتيه كل يوم عن موعده، فكان يضرب بقضبته ومخالبه على الأرض، ويزمجر بشكل مرعب. وكان يقول لنفسه:

- ألم أقل أنه لا عهد لهؤلاء الأخساء السفلة، وليسوا جديرين بالثقة!؟. فكيف أعمت أقوالهم الجوفاء عيني، وخدعتني؟ من الآن فصاعداً لن أسمع كلامهم المعسول، ولتمزقهم أيها القلب ولا تتوقف، ولتسلخ عنهم جلودهم!

وفي هذه اللحظات وصل الأرنب الذكي. كانت عينا الأسد تقدحان ناراً من الجوع والغيظ، فزمجر بغضب، وقال:

- أين كنت أيها الأحمق؟ ما الذي أخرك عني؟

تظاهر الأرنب بالاضطراب، وأخذ يمسح العرق عن جبينه. ثم حاول أن يستعيد توازنه الذي تظاهر كذباً فقدانه ليقنع الأسد، وقال:

- الأمان يا مليكي، الأمان! فأنا لم أتأخر لقلة احترامي لك. وإنما لي عذر، لو تكرمت علي لأبينه لك!

فقال الأسد بحدة وغضب:

- وأي عذر يجعلك تتأخر في المجيء إلى الملوك أيها الأحمق؟! أتظنني لا أعلم أن عذر الأحمق أقبح من ذنبه، وعذر الجاهل سمّ لكل معرفة! فأنا لست أرنباً غافلاً وجاهلاً كي أسمم معرفتي بعذرك...



استمر الأرنب بالتوسل إليه، فقال:

- أيها الملك! فلتعتبرن الخسيس أيضاً مخلوقاً، واستمع إلى عذر من وقع عليه الظلم. وليكن ذلك على سبيل زكاة جاهك ومقامك، فلا تطرد ضالاً عن طريقك. فالبحر الذي يعطي ماءه لكل جدول، يسمح لعود من القذى أن يطفو فوقه!

وبعد توسلات وتبريرات كثيرة من هذا القبيل صار لدى الأسد فضول لمعرفة ما في جعبة الأرنب، فقرر الاستماع إلى عذره. فبدأ الأرنب بسرد ما كان قد خطط له من قبل:

- كنت قادماً إلى جلالتك وقت الضحى، وكان معي أرنب آخر حيث أرسلته الجماعة إليك لنكون كلانا لك. ولكن في الطريق خرج علينا أسد لم نر مثله من قبل، وهاجمنا نحن الرفيقين القادمين إليك، وأراد قتلنا كلينا. فقلت له:

- لا تقترب منا! فنحن عبدا ملك الملوك!

إلا أن ذاك الأسد المتمرد الشقي بدلاً من أن يطلق سراحنا ويعتذر، زمجر بغضب، وقال بكل وقاحة:

- ومن يكون ذاك الملك؟ فأنا ملك الغابات! كيف تجرؤ أيها الأبله على ذكر اسمه أمامي؟ لأمزقنك أنت وملكك!

ولم يكتف ذاك الخسيس بذلك، بل احتجز رفيقي رهينة عنده، وأرسلني لأنقل إليك تحديه.



وقد كان رفيقي ضعفي سمنة وامتلاءً! وأفضل مني لطفاً وجمالاً وقواماً. ولكن من بعد الآن أُغلق الطريق بذلك الأسد، هكذا كان حالي، وها أنا قصصته عليه. فإن شئت اقطع الأمل من الآن فصاعداً من الراتب اليومي المخصص له، وإن شئت اقض على ذاك الأسد الذي لا يهاب أحداً وافسح لنا الطريق من جديد!

كان الأسد يستمع إلى الأرنب وعيناه تقدحان شرراً من الغضب، وما إن أنهى الأرنب حديثه، حتى قال:

- من هذا الوقح السافل؟ ألا يعلم بأن هذه الغابة خاضعة لحكمي. هيا أخبرني من يكون!؟

سُر الأرنب من موقف الأسد الغاضب، وأخذ يبالغ في وصف ذاك الأسد المتمرد بشكل مستفز ومثير لأقصى درجة. وفي نهاية الأمر لم يعد الأسد يتحمل المزيد، فقال:

- هيا سر أمامي لتدلني على ذاك السافل إن كنت تقول صدقاً، حتى أوقع به وبمئة من أمثاله الجزاء الذي يستحق! وأما إن كنت تقول كذباً فسوف أجازيك بما تستحق.

فتقدم الأرنب أمام الأسد وسارا معاً على الطريق. سار الأرنب إلى بئر وضع عليه علامة من قبل، حيث كان قد اختاره ليجعله فخاً لروح الأسد. وعندما اقتربا من البئر توقف الأرنب وأخذ ينسحب إلى الخلف، وذلك لكي يصرف انتباه الأسد عما أعده له، ويبقيه في حالة الثورة والغضب. فانتبه الأسد الغاضب على الفور، وقال له:



- لماذا تنسحب؟ هيا! لا تتراجع، وتقدم أمامي!

فقال الأرنب وقد أظهر علامات الخوف والاضطراب:

- يا مولاي! لقد شُلت قدامي ويداي من الخوف، وارتعدت روحي، وانخلع قلبي من مكانه. ألا ترى أن وجهي قد اصفر مثل الليمون، ألا ينبئ عما في داخلي من رهبة وخوف؟

احتد الأسد، وقال:

- دعك من الحديث عن أسباب مرضك! وأجبني عن سبب تلكؤك وتراجعك.

فارتمى الأرنب في حفرة صغيرة وسط حالة من الخوف والذعر، وقال:

- يا مولاي! لقد تباطأت لأن ذاك الأسد يسكن في هذا البئر! وأنا لا أجرؤ على التقدم أكثر، فقلبي ما زال يحترق من النار التي اكتوى بها في المرة الماضية!..

فازدادت حدة وغضب الأسد، وقال:

- تقدم، ولا تخشى شيئاً! فإن الجراح التي تفتحها مخالبي في جسده سوف تكون موته المحتوم! ثم أخذه إلى جواره وأسرع نحو البئر. وعندما نظر إليه انعكست صورته وصورة الأرنب في الماء.

ولما رآهما بدأ يزمجر، فأخذ صورته المنعكسة تزمجر أيضاً. فانتهز الأرنب الفرصة واستغلها خير استغلال، حيث قال:



- أرأيت يا مولاي كيف يتحداك هذا السافل؟!

فرمقه الأسد بنظرة حادة، فهمهم وقال:

- لا يجتمع ملكان في بلد واحد، سأمزقه شر ممزق!

ثم ألقى بنفسه في البئر!

وهكذا فقد صار الظلم الذي أنزله بالحيوانات بئر الموت بين يدي القهر الإلهي.

وأما الأرنب فأخذ يقفز ويتراقص بين المروج الخضراء فرحاً وسروراً، حتى وصل إلى رفاقه حاملاً لهم البشرى. وتحلق حوله الذين استخفوا به ولاموه على فعلته من قبل، وجعلوه بينهم مثل الشمعة المضيئة في وسطهم. وأحاطوه بهالة من الاحترام والتبجيل، وقالوا له:

- أأنت ملاك هابط من السماء؟ أم أنك عزرائيل الأسود؟ أخبرنا بأي حيلة تغلبت على ذلك الظالم؟

فأجابهم الأرنب قائلاً:

- لقد كان لطفاً وتأييداً إلهياً أيها الرفاق. وإلا فماذا يكون أرنب، وماذا يمكن أن يفعل في هذا العالم؟ فما كان مني إلا أن توكلت على الله، وهو الذي وهبني القوة، وغمر قلبي بالنور. وإن نور القلب وهبني الشجاعة والإقدام، وعلمني استعمال عقلي لرؤية دقائق الأمور. فتشكلت في داخلي قدرة إلهية استطاعت أن تهزم



أسداً من أشرس الأسود، ووُفِّقت للوقوف في وجه الظالم وتخليص روحي؛ ووصلت إلى بر السلام والأمان.

C

المثنوي:

«يا أيها الإنسان! إن نفسك مثل أسد ألقى بذاته إلى قاع بئر هذه الدنيا طمعاً وجشعاً. فاهزم نفسك وسر في الأرض حراً طليقاً...

كن مثل الأرنب والتفت إلى الجوهر الروحاني وأوصله إلى الكمال، لتأكل وتشرب في صحراء المعنويات وتبلغ الطمأنينة والصفاء. وحذار أن تهلك مثل النفس في قاع بئر الجدل والمراء!».

C

يصف يونس أمره الأحول القلبية والروحية التي مر بها على طريق تربية النفس ومجاهدتها، فيقول:

يأتي يوم فيكون مثل عيسى يحيي الأموات،

ويوم يدخل إلى دار الكبر، فيكون مثل فرعون وهامان!

يوم يتحول إلى جبرائيل فيوزع الرحمة في كل مكان،

ويأتي يوم يضل الطريق فيصبح الحيران يونس المسكين!

C



وقد قيل:

«النفس أحمق مخلوق خلقه الله تعالى، فهي دائمة الطلب لما يضرها».

كانت العلوم الخفية متقدمة في عهد موسى ﷺ، وخاصة السحر. لذلك لما ألقى موسى ﷺ عصاه على الأرض بدا بصورة ثعبان عظيم. وفي الوقت ذاته لما ضرب بها البحر انشق إلى نصفين، وصار طريقاً سارت عليه أمته.

لقد جعل علماء التصوف عصا موسى ﷺ تعبيراً عن ضلال النفس بالمعنى الرمزي أو الإشاري. فموسى ﷺ كان يتوكأ على العصا. ولما أمره الله تعالى بإلقائها على الأرض علم موسى بأن النفس ثعبان عظيم فخاف منه وارتعد. فالله ﷻ كان قد سأل موسى:

- ما تلك بيمينك؟ فقال موسى:
- هي عصاي يا رب!. فقال الله تعالى:
- وما تصنع بها؟. قال موسى:
- أتوكأ عليها..!. فرد الله ﷻ عليه:
- ألا تعلم أن لا متكأ ولا ملجأ غيري؟ ألقها من يدك!..

ولما ألقاها موسى ﷺ رأى حقيقتها. ولكنه هدى قومه إلى الطريق المستقيم، وأعجز السحرة من خلال إصلاح النفس ومعرفة حقيقتها...

C



مر ذو القرنين عليه السلام بقوم يعملون على تجاوز هاجس الموت وعائق النفس. لم يكن لدى الناس هناك أي شيء من ثروات الدنيا. حيث كانوا يؤمنون قوت يومهم من الخضار، ويُبدون اهتماماً بالغاً في حفظها وحمايتها. وبالإضافة إلى ذلك كان كل فرد من أفراد هذا القوم يحفر قبره، ويذهب إليه كل يوم، فينظفه، ويؤدي عباداته فيه. أرسل ذو القرنين عليه السلام وراء حاكم هذا القوم. فقال الحاكم:

- أنا لا أطلب أحداً. ومن يطلبني يأتي إلي.

فلما وصل هذا الرد لذي القرنين عليه السلام ذهب إليه، وقال:

- لقد دعوتك، فلمَ لم تستجب؟

فأجابه الحاكم:

- لا حاجة لي عندك، وإلا لجئتك.

فقال ذو القرنين عليه السلام:

- ما هذا الحال الذي أنتم عليه؟ فأنا لم أجده عند أي قوم رأيتهم من قبل.

قال الحاكم:

- أجل، نحن لا نولي أي أهمية للذهب والفضة. لأننا نظرنا فوجدنا أنه إذا نال إنسان مقداراً من هذين المعدنين فإنه يطلب المزيد، وتفسد طمأنينته وسكينته. لذلك فإننا لسنا من الساعين إلى المتاع الدنيوي.



فسأله ذو القرنين عليه السلام:

- وما أمر هذه القبور؟ لم تحفرونها، وتؤدون فيها عباداتكم؟

فقال الحاكم:

- لقد فعلنا هذا كي لا نجري خلف الدنيا. فعندما نرى هذه القبور ونتذكر بأننا سندخل إليها يوماً ما، فإننا نتخلى عن كل شيءٍ دنيوي.

قال ذو القرنين عليه السلام:

- لِمَ ليس لديكم طعام غير الخضار؟ لِمَ لا تربون الحيوانات، فتنتفعون من لبنها، ولحومها، أليس أفضل؟!

أجاب الحاكم:

- إننا نتغذى على الخضار لأننا لم نرد أن تكون معدتنا مقابر للحيوانات الحية. وإننا لا نشعر بمذاق أي طعام بعد تجاوز اللقمة الحلق!

C

يقول الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«الحرص رأس الفقر، والقناعة رأس الغنى».

فلا نهاية للرغبات والمطالب. وإن من يسير خلف مثل هذه الرغبات والمطالب لا تعرف عيونهم الشبع أبداً. والطمع الذي



يحتل قلوبهم ويلفها لا يدع أي مكان للإخلاص والعشق الإلهي. ولهذا فإن نهايات الذين يقضون أعمارهم بجمع وتكديس أموال الدنيا، ويغمضون أعينهم عن الحقائق الروحية والإلهية، هي الخسران المبين. فهؤلاء يفارقون الدنيا على ثلاثة أحوال:

١. عدم الاكتفاء والشبع مما جمعوه.

٢. عدم تحقيق الآمال والطموحات.

٣. الحرمان من طمأنينة القلب ومن العرفان والروحانيات.

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾[٦٦]

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾[٦٧]

فهاتان الآيتان تذكران الإنسان بعلله ونقاط ضعفه التي تفضي به إلى نار جهنم.

يقدم لنا الشيخ فريد الدين عطار قصة جميلة ومعبرة عن الذين نسوا النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم ووقعوا في أسر ميولهم ورغابتهم النفسية فأضاعوا بذلك آخرتهم:

كان لسلطان كلب صيد ماهر يثير إعجاب الناظرين. كان الملك يحب هذا الكلب كثيراً، ويوليه أهمية وعناية بالغة ويقدره تقديراً

---

٦٦ الفرقان: ٤٣.

٦٧ الجاثية: ٢٣.

عظيماً، فلا يخرج في رحلة صيد إلا ويصطحبه معه. وكان قد زين طوقه بالمجوهرات، ووضع في أرجله خلاخل من الذهب والفضة. وغطى ظهره بقماش من الأطلس.

وذات يوم كان السلطان قد خرج إلى الصيد مع رجال قصره وأخذ معه ذلك الكلب كعادته. كان السلطان الذي يتقدم بهدوء وهو ممتطٍ ظهر حصانه بوقار وفي يده الحبل الحريري المربوط بطوق الكلب في غاية الانشراح والزهو. إلا أن شيئاً حدث فجأة وأفسد عليه نشوته وبهجته، وعكر صفوه. حيث رأى أن الكلب الذي أحبه كثيراً منشغل بشيءٍ آخر وكأنه نسي السلطان تماماً. حاول السلطان جاهداً سحب الحبل الذي بيده لثني الكلب عما هو فيه وقد بدا عليه التأثر والحزن، إلا أن محاولته باءت بالفشل، إذ أن الكلب استمر بلعق العظمة التي أمامه ومحاولة قضمه. فما كان من السلطان إلا أن صرخ وقد أحاطت به مشاعر الدهشة والغضب:

- كيف ينشغل هذا في حضرتي بشيءٍ آخر ويتغافل عني؟!

حزن السلطان وتألم كثيراً. فقد أثَّر فيه نكران الكلب، وعدم وفائه، وغفلته عنه. لم يُعذره السلطان، ولم يعف عنه مع أنه مجرد كلب. إذ لم يكن انشغال الكلب الذي تلقى قدراً كبيراً من الإحسان والإكرام، والاهتمام بعظمته فجأة ونسيانه إياه مما يُغفر. فقال بغضب وحدة:

- أطلقوا ناكر الجميل وقليل الأدب هذا!



ولما أدرك الكلب الغافل معنى هذه الحدة والغضب كان الأمر قد فاته، ولم يعد بالإمكان فعل شيءٍ. ثم قال الرجال للسلطان:

- يا سيدي! لننزع ما عليه من المجوهرات، والذهب، والفضة ثم نطلقه!

فقال السلطان:

- كلا! دعوه فليذهب كما هو! ثم أضاف:

- دعوه يذهب هكذا! دعوه! ليهيم على وجهه غريباً شريداً يعاني من الجوع والعطش في الصحاري الحارة والقاحلة؛ ولينظر إلى تلك المجوهرات فيعيش بحرقة وألم وندم على النعيم والإحسان الذي أضاعه من بين يديه!..

فهذه القصة تحمل عبرة بغاية الأهمية، حيث أنها تعكس حال أولئك الذين لم يعرفوا قدر وقيمة النعم التي أعطاهم إياها الحق سبحانه وتعالى فانساقوا خلف الرغبات والمتع الفانية والتافهة، وعرضوا أنفسهم للهلاك والخسران. والذي تكون هذه حالته يدرك في النهاية أن الشهوات والرغبات الفانية التي سار وراءها مجرد سراب كاذب، فيندم، ولكن بعد فوات الأوان.

وهذه الحقيقة تتجلى وتتبين بشكل جميل في هذه الحادثة التي حصلت في زمن سيدنا عيسى عليه السلام:

جاء رجل يهودي إلى عيسى بن مريم عليه السلام، فقال:



- أريد أن أكون معك وأصحبك.

فقبل عيسى عليه السلام، وانطلقا معاً. فانتهيا إلى شط نهر فجلسا يتغديان. كان معهما ثلاث أرغفة، فأكلا رغيفين وبقي رغيف واحد. فقام عيسى عليه السلام إلى النهر فشرب، ثم رجع فلم يجد الرغيف. فقال للرجل:

- من أخذ الرغيف؟

قال اليهودي:

- لا أدري.

فلم ينطق عيسى عليه السلام بشيءٍ. ثم انطلقا معاً وتابعا رحلتهما. وفي الطريق رأى عيسى عليه السلام ظبية ومعها خِشْفان. فدعا أحدهما فأتاه، فذبحه. فاشتوى منه فأكل هو وذاك الرجل اليهودي. ثم قال للخشف:

- قم بإذن الله!

فقام الخشف وذهب. فالتفت عيسى عليه السلام إلى الرجل وقال له:

- أسألك بالذي أراك هذه الآية مَن أخذ الرغيف؟

فقال اليهودي مرة أخرى:

- لا أدري.

فلم يقل عيسى عليه السلام شيئاً. ثم استأنفا سيرهما، حتى انتهيا إلى وادي. فأخذ عيسى عليه السلام بيد الرجل فمشيا على الماء. فلما جاوزا، قال له:



- أسألك بالذي أراك هذه الآية مَن أخذ الرغيف؟

فقال اليهودي:

- لا أدري.

فلم يعلق عيسى عليه السلام. ثم انطلقا حتى انتهيا إلى مفازة فجلسا. فأخذ عيسى يجمع تراباً أو رملاً، ثم قال:

- كن ذهباً بإذن الله!

فصار ذهباً. فقسمه عيسى عليه السلام ثلاث أثلاث، ثم قال للرجل اليهودي:

- ثلث لي، وثلث لك، وثلث لمن أخذ الرغيف!

فقال اليهودي الذي انبهر ببريق الذهب:

- أنا أخذت الرغيف!

فقال له عيسى عليه السلام:

- فكله لك.

ثم فارق عيسى عليه السلام هذا الرجل اليهودي الكاذب والجشع الذي لا همّ له سوى الدنيا.

وفي غمرة فرحة اليهودي بهذا المال الدنيوي الذي أسكرته وسلبت منه لبه، مر به رجلان جشعان في المفازة ولما رأيا معه الذهب، أرادا أن يأخذاه منه ويقتلاه. فتوسل إليهما اليهودي وقال:



- لا تقتلاني وهو بيننا أثلاثاً. ولكن قبل أن نتقاسمه ابعثوا أحدكم إلى القرية حتى يشتري طعاماً. فنسد به جوعنا، ثم نقتسم الذهب، وينطلق كل منا في سبيله.

فقبل الرجلان، وبعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بطعام. فقال الذي بُعث إلى المدينة في نفسه:

- لأي شيءٍ أقاسمهما هذا المال؟ لا؛ سوف أضع في هذا الطعام سماً، فأقتلهما وآخذ الذهب كله.

ففعل ما حدث به نفسه، إذ اشترى الطعام، ثم وضع فيه السم وجاء به إلى صاحبيه. ولكن في هذه الأثناء قال أحد صاحبيه للآخر:

- لأي شيءٍ نجعل لهذا ثلث المال؟ ولكن، إذا رجع إلينا قتلناه. ثم أكلنا الطعام الذي يجلبه معه، واقتسمنا الذهب بيننا.

فلما رجع إليهما فعلا ما اتفقا عليه، فقتلاه، وأكلا الطعام المسموم. ولم تمض لحظات حتى سرى السم في جسديهما فاحتضرا وماتا. وهكذا بقي ذلك المال الدنيوي في المفازة وأولئك الثلاثة الجشعين قتلى عنده.

وبعد مدة مر بهم عيسى عليه السلام فرآهم على تلك الحال، فقال:

- هذه الدنيا فاحذروها!..

يقول مولانا جلال الدين الرومي بشأن ضرورة بذل المال والنفس بسخاء في سبيل الله:



«ما بال الإنسان يصير عبداً للذهب؟ ما قيمة اللؤلؤ والمرجان إن لم تُنفق بكل حب وسخاء في سبيل الله؟ وإن لم يكن التذلل على باب الذهب مثل ثعبان يتمرغ بالتراب عبارة عن خنوع وسفالة ترسل الإنسان إلى السماء خالي الوفاض، فما هو إذاً؟».

C

إذاً؛ عندما تصبح الرغبات والأهواء محراباً وقبلة، فإن الإنسان ينزلق إلى الوثنية فيصبح عبداً لهذه الأهواء ونقاط الضعف. وتتعرض الحقيقة الأصلية، والملكات والاستعدادات الداخلية للضمور والتلاشي...

إن عاقبة الإنسان الذي يستسلم لوحش النفس مؤلمة وحزينة! فهو يعرض عن التفكير بالعواقب والآخرة حتى يستطيع إدامة عمره في قفص البدن. وتصبح حقيقة الموت التي سينتهي إليها كابوساً مرعباً يسيطر عليه. لأن الموت يولد في داخله قلقاً وهاجساً فظيعاً بشأن المستقبل.

إن أهم عرفان للإنسان يبدأ بحل لغز التراب. فإذا لم تستنفر الأفكار، والأعمال، والقلوب للتفكر بباطن الأرض، فلا يمكن الدخول إلى إقليم هذه الدولة المظلمة، ولا الوقوف على سرها.

ماذا يبقى للحياة من معنى وجاذبية عندما ننظر إلى كل نفس يخرج من أعماقنا على أنه جنازة ابتعدت عنا، ويكون آخر ما



تلهج به شفاهنا «أرتعد كمجرم عندما أنظر إلى المستقبل!..» وقد خيمت ظلمات المستقبل المجهول والمرعب على داخلنا؟! إن وقوع رحلة الحياة التي لا تستطيع تجاوز حدود القبر أسيرةً بين براثن الأشياء الفانية، وأغشية النفس، والظلال الزائلة مثير للحزن والأسى!.

إن الحياة عبارة عن رحلةٍ عبر ممر ضيق ممتد بين المهد واللحد. فالحياة الدنيا داخل شريط الزمن اللامتناهي لا تختلف عن رغوة الصابون.

وأصح إجابة على سؤال: ما هو معنى الحياة المتصور في مدارك الناس؟ مخبوء في رطوبة التراب، وقسوة حجارة القبر. وفي هذه الحالة، ماذا يمكن أن يكون أكثر إيلاماً وحزناً من الحياة التي تقضى في أهواء ورغبات النفس، وقفص البدن وشباكه؟.

لقد شغلت مسألة الموت أذهان البشرية منذ بدء الخليقة على الرغم من إرشادات الأنبياء والرسل. وقد أُريد إسكات هذا التساؤل المفزع الملتف على الأذهان مثل ثعبان سامٍ، والمثير للإزعاج والقلق والاضطراب في كثير من الأحيان، أُريدَ إسكاته وخنقه بعبارات وتفسيرات نفسانية مختلفة.

إن الموت الذي يحيط بحياة كل شخص مثل سرداب من نار، مصير محتوم للناس جميعاً، وهو إما سيكون أعظم مصيبة مستقبليةٍ تحل بالإنسان، أو أعظم رحمة تحف به... وإن حل هذا اللغز



المستقبلي العصي على الفهم والتفسير بالفكر البشري لا يمكن إلا من خلال تجاوز عائق النفس والتغلب عليه، والإصغاء إلى صوت الوحي، والدخول إلى إقليم قلوب الأنبياء والأولياء...

يقول مولانا:

«أيها السالك! في كيانك يوجد موسى، كما ويوجد فرعون. فينبغي أن تبحث عن هذين الخصمين اللدودين في ذاتك!..».

«وتنور بنور الوحي حتى يتغلب موسى الذي في داخلك على فرعون!».

«إلى متى ستجري خلف الدنيا؟ اعلم أن قميص الدنيا سوف يصبح كفناً لك».

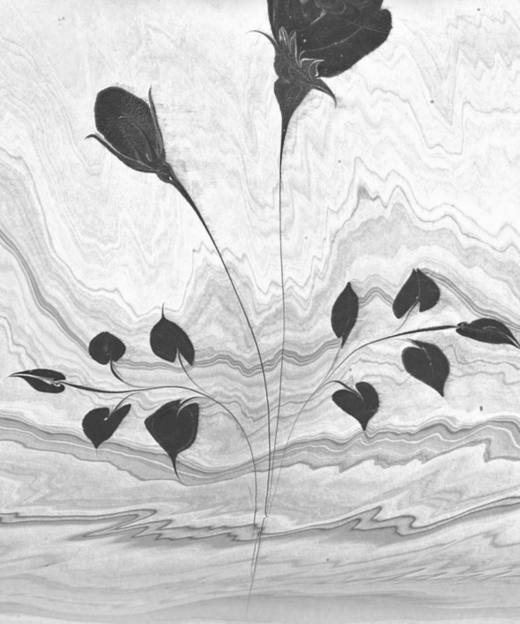
«إن كنت سترتجف مع كل نسمة مثل القش، فسوف تضيع هيبتك وإن كنت جبلاً شاهقاً، ولن تساوي حتى قشة يابسة!..».

اللهم إنا نسألك نحن عبادك العجّز الضعفاء أن تجعلنا بكرمك ولطفك من الذي تغلبوا على عائق النفس وأصغوا بقلوبهم إلى صوت الوحي! ويسر لنا السبيل لنيل حظ من إقليم روحانية عبادك الصالحين والصادقين!..آمين!..

E







الحكمة من وجود النفس

«لقد جعل الله تعالى مجنوناً لعشق بدني (عشق ليلى) بحالة لم يعد يستطيع معها تمييز الصديق من العدو».

«وأعطى الله ﷻ المحبة الإلهية خاصية تجعل الذي يغترف منها غرفةً يتخلص من كافة الهواجس ومشاعر القلق في العالمين».

مولانا جلال الدين الرومي



إن قيمة وشرف أي نصر يكون بقدر الجهود المبذولة والمصاعب والمشاق التي تتم مكابدتها وتحملها، والمشاعر النبيلة التي تتأجج بين الجوانح في سبيل الوصول إليه والظفر به.

لقد صارت زلة قدم آدم عليه السلام أي الخطأ الذي ارتكبه بغير قصد سبباً في إخراجه من الجنة، وإرساله إلى الدنيا. وإن تكاثر نسله في هذا المكان الجديد الذي هبط إليه وخضوعهم للامتحان الإلهي، ثم إعادة قسم منهم إلى الجنة نتيجة لنجاحهم في الامتحان هو بسبب حيازة الإنسان لشرف أحسن تقويم. ولكن الله عز وجل زود الإنسان بالنفس من أجل زيادة هذا الشرف والقيمة. فالنفس عائق هائل من شأنه إذا تم تجاوزه زيادة شرف وقيمة النتيجة التي يراد الوصول إليها.

كما أن الله عز وجل أمر الإنسان ببذل الجهد لنيل رضاه والعودة إلى الجنة مرة أخرى، فإنه تكرم عليه أيضاً بالوسائل والإمكانات التي تؤهله وتمكنه من تجاوز عائق النفس الذي وضعه في طريقه. ويأتي على رأس ذلك إرسال الأنبياء والرسل، وتهيئة سلسلة من الأولياء والعلماء الذين يتبعون آثارهم ويخدمون البشرية حتى قيام الساعة.

C



يبين مولانا جلال الدين رحمه الله الحكمة من وجود النفس من خلال الحكاية الآتية:

«كان هناك أحد الأمراء يمضي في طريق راكباً جواده. فرأى حية تتسلل إلى فم إنسان نام تحت ظل شجرة. فحاول إفزاع الحية بإثارة حصانه وإحداث جلبة وصخب حول الرجل إلا أنه لم يفلح في ذلك.

كان الأمير ذا عقل راجح فبدأ يفكر بحل سريع لإنقاذ الرجل النائم من هذه المصيبة المؤلمة والمفجعة، فما كان أمامه إلا أن انهال عليه بضربات لاذعة ومتتالية بهراوته.

فانتفض الرجل من مكانه من ألم تلك الهراوة القوية، وفر هارباً خوفاً وفزعاً من الأمير الذي أشبعه جلداً.

إلا أن الأمير لم يتركه وشأنه، فلحق به وأدركه عند شجرة تفاح. وكانت الشجرة قد طرحت كثيراً من التفاح المتفسخ والمتعفن، فأخذ يُطعمه من تلك التفاحات المتعفنة غصباً. ويقول:

أيها المصاب العاجز، ستأكل كل هذه التفاحات! «سوف تتحمل هذا الألم!».

وصار الرجل المسكين وسط حالة من الحيرة والدهشة والاستغراب يخاطب الأمير قائلاً:



أيها الأمير! ماذا فعلت لك؟ لماذا تعتدي علي وتظلمني دون أن ترى مني جفاء أو أذى!؟ فإذا كانت لك خصومة معي في الأصل، فاضربني بالسيف واسفك دمي!

يا لها من ساعة مشؤومة تلك التي ظهرت فيها لك ورأيتك، وما أسعده ذاك الذي لم يشاهد وجهك!.. لا يقدم على هذا الظلم والاعتداء دون ذنب أو جريرة حتى أشد الظالمين بطشاً وظلماً. إنك ترى أن الدم يسيل من فمي وأنا أتكلم، أقسم أنني لم أجد في حياتي ظالماً ومعتدياً عديم الرحمة والشفقة مثلك!

فيا إلهي جاز هذه الظالم على ظلمه.

وأخذ يكيل له اللعنات والشتائم.

إلا أن الأمير لم يأبه بكلامه وشتائمه أبداً. حيث كانت ضربات السوط تنهال عليه كالريح، ويأمره بالجري والهرولة.

فبدأ الرجل المسكين لفزعه من الأمير وألم الضربات يفر مثل الريح. وصار يرتمي على الأرض ثم ينهض تحت ضربات السوط ويجري من جديد. لقد صار الرجل الممتلئ البطن بالتفاح المتعفن واهناً منهاراً، وأثخنت الجراح يديه وقدميه وجسده.

إلا أن الأمير رغم كل ذلك لم يبتعد عنه، فظل يضربه، ويجره ويطلقه حتى المساء. فلم يعد لدى الرجل المسكين طاقة على القيام من شدة الألم والتعب والإرهاق. وفجأة غلبه القيء وصار يُفرغ ما في معدته.



كان يخرج كل ما في جوفه مثل سيل جارف. وفي النهاية انطلقت الحية السوداء مع التفاحات المتفسخة خارجاً.

ولما رأى الرجل الحية قد خرجت تجمد في مكانه وسط حالة من الخوف والدهشة. ثم خر على الأرض بين أقدام ذاك الأمير الصالح وقد ذهبت عنه كل الآلام. وقال:

حقيقة أنت مثل جبريل الرحمة! أنت ولي نعمتي!

فيا لها من ساعة مباركة تلك التي رأيتني فيها! لو لم تكن أنت لكنت ميتاً الآن. لقد وهبتني عمراً جديداً.

ما أسعده ذاك الذي يرى وجهك، أو يمر فجأة بحيك!

يا صاحب النفس الطاهرة الذي تستحق المدح والثناء! كم قلت لك من هراء وسقط القول.

أيها الأمير والسيد والمليك! أنا لم أقله لك، بل قاله جهلي وغفلتي، فلا تؤاخذني!

ولو كنت أعلم ذرة عن هذا الحال، لما هذيت بمثل هذا القول. إنك أخفيت عني أن الذي أعطى ذاك الدواء المر من أجل المريض هو الحكيم القدير. ولو أنك حدثتني عنه برمز لوجهت لك الثناء يا حسن الخصال. لكنك كنت صامتاً تقوم بإثارتي، وتدق رأسي. فتحطم رأسي، وفر عقلي منه، وصرت أهذي دون علم مني. فاعف عني يا حسن الوجه والفعال، فما قلته، قلته من الجنون، فتجاوز عنه!



فقال الأمير المبارك والذكي:

لو أنني حدثتك وقتها بسر واحد مما في عالم داخلك، لمتَّ هلعاً وخوفاً في تلك اللحظة!

ولانمحيت مثلما ينمحي الفأر بين يدي الهر، ولفنيت كما يفنى الخروف أمام الذئب!

لو كنت حدثتك عن أوصاف الحية السوداء لحطم الخوف روحك، ومزق الهلع قلبك!

لو علمت أن ذاك الوحش في داخلك لما بقيت لديك القدرة على أكل التفاح، ولا قوة لتجري وتستفرغ لتلقي بالحية خارجاً!

فكنت أصبر على تلك الكلمات الجارحة التي أسمعها منك، وأتضرع في داخلي إلى الله قائلاً:

«يا رب! يسر خروج الحية! وخلص هذا المسكين الضعيف». كنت تقول لي كلاماً مؤلماً، ولكن الرحمة الإلهية التي بداخلي لم ترضَ أن أدعك على تلك الحالة وأرحل. لأن خلقي معجون بخميرة الرحمة.

فأخذ ذلك الرجل المسكين الذي أدرك حقيقة هذا الصالح يكرر الانحناء حائراً نادماً، ويقول:

أيها المبارك الصالح والشريف! يا من أنت لي الكنز! فلتلقى الجزاء والأجر من الله، وليست لدى هذا الضعيف قدرة على شكرك حق شكرك.



وعلمت أن عداوة العاقلين صداقة، والسمّ الذي يعطيه أهل العرفان بهجة للقلوب، وغذاء للأرواح».

C

إن الأولياء الذين هم ورثة خاتم النبيين يسيرون على نهجه وأثره. فلا يخبرون مخاطبيهم بكل ما يعرفونه، وإنما يلتزمون الصمت، وذلك مراعاة لمصلحتهم. وكذلك فإنهم لا يفضحون ما في قلوب مخاطبيهم، وإنما يسترون عيوبهم. إنهم يعلمون الناس ويربونهم بأفعالهم وأحوالهم أكثر من الأقوال. وإن أهل الله يؤثِّرون في القلوب المتحجرة والمتصلبة كالحديد ويلينونها إن كان فيها استعداد لتلقي الروحانيات، كما ألان داوود عليه السلام الحديد.

كان أبو الدرداء رضي الله عنه قاضياً في الشام. وبينما كان يتجول في المدينة ذات يوم إذ به يرى جمعاً من الناس يسبون شخصاً ارتكب ذنباً ويهينونه بأشد العبارات. فسألهم:

أرأيتم لو وجدتموه في قليب ماذا كنتم فاعلين؟

فقالوا:

نمد إليه حبلاً ونستخرجه منه!

فقال أبو الدرداء:

فلم لا ترحمون هذا الرجل الذي سقط في قليب الذنوب؟ ليتكم تمدون إليه بحبل السعادة وتنجدوه من البلاء الذي وقع فيه!



فقال له أحدهم:

أفلا تبغض هذا المذنب وقد هدد الله تعالى العصاة بنار جهنم؟

فرد عليه الصحابي الجليل الذي تربى في مدرسة رسول الله ﷺ، قائلاً:

بل إنما أبغض عمله، فإذا تركه فهو أخي.[٦٨]

كان مولانا جلال الدين مفعماً بمشاعر من الشفقة والحب للمخلوقات في سبيل الخالق، وكان يناجي ربه سبحانه وتعالى قائلاً:

«يا رب! إن كانت رحمتك لا يرجوها إلا الصالحون، فإلى من يلجأ المجرمون؟».

«يا رب! إن كنت لا تقبل إلا الخواص من عبادك، فمن للمذنبين؟ يا أرحمن الرحيم!».

C

إن الإنسان الذي مر ذكره في حكاية مولانا جلال الدين هو الإنسان الغافل. والحية السوداء التي دخلت فمه هي النفس الأمارة. وأما الأمير فهو المرشد الكامل. وضربه للنائم بالهراوة وحثه على الجري هو رياضة ومجاهدة للنفس. وخروج الحية يرمز إلى التخلص من النفس الأمارة.

٦٨ راجع: عبد الرزاق، ١١، ١٨٠؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٢٢٥.



لما كلم الله تعالى موسى عليه السلام في الوادي المقدس سأله عن الشيء الذي يحمله في يده اليمنى. وأجاب موسى سيدنا عليه السلام بقوله:

﴿...هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[٦٩].

فقال له المولى عز وجل: ﴿...**أَلْقِهَا يَا مُوسَى**﴾[٧٠]

قال بعض المفسرين الإشاريين في تأويل هذه الآية تأويلاً أنها تتضمن إشارة إلى إرشاد موسى عليه السلام إلى عالمه الداخلي.

حيث لما ذكر موسى عليه السلام الأمور والعلاقات الفانية، أمره الله عز وجل بإلقائها ورميها. فتمثلت النفس والأشياء المتعلقة بها بحية عظيمة. وأُري موسى عليه السلام حقيقة النفس. فولى موسى مدبراً خوفاً وفزعاً منها. فنودي:

يا موسى! إن هذه الحية هي صفة كل ما سوى الله من الأغيار. وإذا ما أبديت هذه الصفة لصاحبها بشكل مجسد، فإنه يهرب منها هلعاً.

ويُؤول أمر «ألق عصاك» بتأويل إشاري آخر على الشكل الآتي:

«إنك متصف من الآن فصاعداً بصفة التوحيد. فكيف يستقيم بعد ذلك أن تتوكأ على شيء مثل العصا، وتأمل منها العون والنفع؟ كيف

---

٦٩ طه: ١٨.

٧٠ طه: ١٩.



تقول أني أفعل كذا بتلك العصا، وأنتفع بها، ولي فيها فوائد ومآرب أخرى؟.. إن أول خطوة على طريق التوحيد هي ترك الأسباب، فتخلَّ عن مختلف أشكال المطالب والرغبات والأمنيات!..».

وقد جاء في «التأويلات النجمية»:

«إن الإنسان الذي يسمع نداء الحق سبحانه وتعالى ويرى نور جماله، يدع كل شيءٍ اعتمد عليه. ولا يعتمد على شيءٍ سوى على فضل الله تعالى وكرمه. ويتخلى عن رغبات وأهواء النفس».

لما تعرض يوسف عليه السلام لمكائد زليخة تحرك في داخله ميل لا إرادي. وفي تلك اللحظة أراه الله جل جلاله برهانه. فانشق سقف الغرفة ورأى يعقوبَ عليه السلام يعض على إصبعه. وفي الوقت ذاته ظهر شخص بجانبه، وقال له: يا يوسف! انظر إلى يمينك!

ولما نظر يوسف عليه السلام إلى يمينه رأى حية عظيمة.

لقد كان يُعرض أمام يوسف عليه السلام حقيقة الأشياء، الصور الحقيقية للأفعال النفسانية. كان يتم تشخيص أفعال النفس بأبشع صورة. كانت تتم إماطة الأقنعة التنكرية لتظهر له الوجوه الحقيقية. لقد رُفعت الحجب وظهرت أسرار الأشياء والتجليات الإلهية للرب.

فلما بدا برهان الرب، أي جاء المدد الإلهي نجا يوسف عليه السلام من شر النفس والمرأة.



يقول نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام:

«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[71]

إن تجاوز عائق النفس والتغلب عليه يكون بالأخذ بيد الأنبياء وورثتهم من الأولياء الذين يكرمنا الله بهم بصورة مستمرة دون انقطاع، وبيعتهم، والخضوع لمنهاج تربيتهم وإرشادهم. فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿...يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ...﴾[72]

والمقصود بأيديهم هي يد رسول الله ﷺ وأيدي الصحابة الكرام الذين بايعوا الله تعالى. وكذلك فإنه تتوفر في أهل الله وحتى في درويش عاجز ضعيف حالة بيعة باليد لرسول الله ﷺ وبواسطته لله تعالى. ولذلك فإن اليد التي فوق تلك الأيدي هي يد قدرة الله ﷻ. وبناء على ذلك فقد تظهر خوارق على أيدي المرشدين الكاملين الذين وصلوا إلى حال بيعة رسول الله ﷺ، وأظلتهم يد القدرة الإلهية. فالفاعل المطلق في الكون هو الحق ﷻ، ولكنه سبحانه وتعالى قد يأذن لأوليائه التصرف، وتقع على أيديهم بعض الظواهر الخارقة للعادة.

---

٧١ البخاري، الرقاق، ٢٨؛ مسلم، الجنة، ١/ ٢٨٢٢.

٧٢ الفتح: ١٠.



إن للعشق شقان: حقيقي، ومجازي. فأما العشق الحقيقي فهو محبة الله ﷻ، وأما المجازي فهو التعلق بأحد المخلوقات والارتباط به. ولأن العاشق يتعلق بكائن واحد، فإنه يتحرر من كافة الروابط الأخرى. لأنه لا يرى ولا يفكر بشيءٍ غير المحبوب. فقد صار مجنون في أيامه الأخيرة بحالة لم يعد يميز معها بين الصديق، والعدو، ونفسه، وحتى لم يعد يعرف ليلى أيضاً. وبدأ يعتبر نفسه ليلى.

يقول مولانا في هذا الخصوص:

«لقد جعل الله تعالى مجنوناً بسبب عشق بدني (عشق ليلى) بحالة لم يعد يستطيع معها تمييز الصديق من العدو».

يذهب الشاعر فضولي عاشق النبي عليه الصلاة والسلام إلى أنه لا يمكن مقارنة رسول الله ﷺ بأي من الأزهار والورود، وذلك في قصيدته المشهورة التي يقول فيها:

«لا يرهقن البستاني نفسه بسقاية بستان الورود! فلن تتفتح وردة كوجهك يا رسول الله، وإن سقى ألف بستان.»

ويعبر مولانا جلال الدين عن هذه المحبة بقوله:

«وأعطى الله ﷻ المحبة الإلهية خاصية تجعل الذي يغترف منها غرفة يتخلص من كافة الهواجس ومشاعر القلق في العالمين».

C



أي أن الذي يتلذذ بالمحبة الإلهية يتحرر من حسد الناس، ورؤية عيوبهم ونواقصهم. وبذلك فإنه يرتقي ليبلغ مرتبة الكمال، ويصل إلى المنزل المقصود. وهذا هو العشق الصافي، والحب الإلهي.

إن المرشد الكامل يحمل مريديه على التعلق والارتباط به بالمشيئة الإلهية، فيحررهم من العلاقات والروابط السفلية، ويحولهم إلى الروابط العلوية. وبذلك فإنه يصبح درجاً على سلم العشق الإلهي.

يبين الشيخ سعدي الشيرازي تأثير المرشد الكامل في كتابه «كولستان» من خلال الحكاية الآتية:

ذات يوم أعطاني أحد أصحابي في الحمام قطعة بيلون[٧٣] طيبة الرائحة. فسألت البيلون:

أيها المبارك، أأنت مسك أم عنبر؟ فقد سكرت برائحتك الطيبة التي تأخذ بمجامع القلوب.

فأجابني البيلون قائلاً:

لقد كنت تراباً لوردة. وكانت وريقات تلك الوردة تمتلئ بقطرات ندى الأسحار، فتبكي وتتساقط علي دموعها الندية. فجُبلت بهذه الدموع مثل العجين. أنا بالأصل طين عادي، وهذه الرائحة الطيبة لتلك الوردة.

٧٣ نوع من الطين كان يُستخدم للاستحمام. (المترجم).



لقد خلق الله ﷻ الكون من أجل الإنسان. وجعل كل ما في البر، والبحر، والجو طوع أمره. وبالمقابل؛ فقد حُمل الإنسان الأمانة الإلهية التي عجز عن حملها السماوات والجبال.

إذا ما نظر الإنسان إلى ذاته، وإلى المنظومة الكونية بعين التأمل والتدبر والاعتبار فإنه سيضطر إلى التفكير بكيفية العيش في الحياة الدنيا. إن الحقيقة الأكثر إثارة للاهتمام والتفكير في الحياة، والتي تدفع الإنسان إلى أخذ حياته على محمل الجد هي حادثة «الموت». فهذا الوداع المهيب يُعد أعظم عبرة وعظة للإنسان. وإن الموت نهاية حزينة ومؤلمة لمن انكبّ في الحياة الدنيا على بنيته الطينية المتشكلة من اللحم والعظام، أي نفسانيته ورغباتها، وتعهدها بالرعاية والتنمية، وأهمل بنيته الروحانية حتى أصابها الضعف والهزال!

يقول النبي ﷺ في الحديث الشريف معرفاً الحياة الدنيا:

«ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٧٤]

يا رب! نسألك أن تكون محبتك ورضاك جنان سعادتنا!..آمين!

E

٧٤ الترمذي، الزهد، ٤٤/ ٢٣٧٧؛ ابن ماجه، الزهد، ٣.





الغضب الإلهي

«إن أنفاس الأنبياء والرسل تؤثر حتى على الحجارة. وإن أقوالهم يخضع وينحني لها كل شيء حتى الجبال. ولكن اللآلئ التي تتساقط منهم لا تصيب الأحمق أبداً!..».

«وإن الأحمق يسمع بموت الجميع، ولكنه لا يريد تذكر موته أبداً».

مولانا جلال الدين الرومي

وجاء في الآية القرآنية الكريمة:

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥)

الغضب الإلهي

كان عيسى ابن مريم (عليه السلام) يهرب فزعاً وكأن أسداً ضارياً يطارده ويهم بافتراسه وسفك دمه. فأخذ أحد الناس يعدو خلفه مندهشاً من هربه، وناداه:

خيراً، خيراً؟! لماذا تهرب مرتعداً خوفاً وهلعاً؟ فليس وراءك أحد يلاحقك!

ولكن عيسى (عليه السلام) كان يعدو بسرعة كبيرة حتى أنه لم يكن قادراً على رد الجواب عن سؤال الرجل من شدة سرعته. فثار الفضول لدى الرجل وأسرع خلف عيسى (عليه السلام) حتى اقترب منه، فناداه بصوت قوي وجاد:

يا نبي الله! توقف لبرهة! فإن هربك قد جعلني في حيرة! أخبرني ممن تهرب أيها الكريم؟ فليس في إثرك أسد، ولا عدو، ولا أي شيءٍ مخيف!

فرد عليه عيسى (عليه السلام) قائلاً:

إنني هارب من الأحمق!.. فدعني أنجي نفسي منه، ولا تعطلني!.



فقال الرجل: ألست أنت المسيح الذي يبرئ الأعمى والأصم؟

فأجابه عيسى عليه السلام: بلى! أنا هو.

قال الرجل: ألست أنت ذلك الروحاني الذي صار مظهراً للأسرار المعنوية، ونال صفة «روح الله»؟ وعندما تقرأ وتدعو على ميت فإنه يقفز من القبر كأسد وجد صيداً؟

فرد عيسى عليه السلام: بلى! أنا هو.

فسأله الرجل أيضاً:

ألست أنت الذي تجعل الطين طيراً يا صاحب الوجه الجميل؟

فأجاب عيسى عليه السلام: بلى!

قال الرجل: أيها الروح الطاهرة، إن كنت تفعل كل ما تريده فممن تخاف إذاً؟

فقال عيسى عليه السلام:

أقسم بذات وصفات الله الذي خلق الروح أولاً ثم الجسد لقد قرأت ذلك الدعاء والاسم الأعظم على الأصم والأعمى فشفيا. وقرأته على الجبل والحجر فانشق إلى نصفين، ومزق خرقته من على جسده حتى سرته. وقرأته على جثة الميت فبُعث حياً، وعلى اللاشيء فصار شيئاً. ولكن قرأته على قلب الأحمق بكل شفقة ورحمة آلاف المرات فلم ينفعه بشيء. لقد صار ذاك الأحمق حجراً أصماً ولم يرجع عن طبعه وحماقته، وصار رملاً لم ينبت فيه أي نبات!.



لما سمع الرجل هذا الكلام ازدادت دهشته وفضوله، وسأل عيسى عليه السلام: ما السبب والحكمة في أن اسم الله الأعظم أثر في مواضع عديدة ولم يجد نفعاً في هذا الموضع؟ مع أنها داء مثل غيرها من الداء، فلماذا عالج بقية الأدواء ولم يُجْدِ فيه؟

فأجاب عيسى عليه السلام قائلاً:

إن داء الحمق غضب إلهي، وأما الأدواء الأخرى مثل العمى والصمم وغيرهما فليست أمراضاً وإنما ابتلاءات. وداء الابتلاء يثير الشفقة. ولكن الحمق مرض، ويسبب الجراح للآخرين.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«إن أنفاس الأنبياء والرسل تؤثر حتى على الحجارة. وإن أقوالهم يخضع وينحني لها كل شيء حتى الجبال. ولكن اللآلئ التي تتساقط منهم لا تصيب الأحمق أبداً!».

«إن الحمق ختم الله تعالى، فلا يمكن أن تجد له حيلة ومخرجاً».

«ألم يصبح نسيم السحر رياح السموم على أهل سبأ بسبب الحمقى؟».

«إن الأحمق يبقى مجرد أحمق طالما لا يفرق بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وإن كان شعلة ذكاء».

«فيا أيها السالك! فر من الحمقى كما تفر الظبية من الأسد! وإياك ومصاحبتهم!..».



إن حالة الأحمق التي بينها مولانا في هذه الحكاية تشبه حال الذين حاولوا وصف فيل والتعرف عليه في مكان مظلم من خلال اللمس:

لقد وضع بعض الهنود فيلاً في إسطبل شديد الظلام لعرضه على الناس. وسرعان ما تجمع حشد ممن أرادوا رؤية الفيل، وأخذوا يدخلون إلى الإسطبل لمشاهدته. ولكن لما لم يشاهدوا شيئاً لشدة الظلام، أخذ كل واحد منهم يلمس بيده على جزء من جسد الفيل محاولاً التعرف عليه وفهم طبيعته وأوصافه.

فقال الذين لمسوا خرطومه: إن الفيل يشبه ميزاباً مدور!

وقال الذين لامسوا أذنه: لا؛ بل يشبه الفيل مظلة سميكة!

وقال من لامس رجله: لا، لا! إنه يشبه عموداً ضخماً!

وأما من لمسوا ظهره، فقالوا: جميعكم مخطئون! إنه يشبه مقعداً كبيراً وعريضاً!

والحال أن الفيل لم يكن كما قاله أي فريق منهم. لم يفكر أولئك الحمقى للحظة ليقولوا:

«دعونا من هذا الجدال والخلاف، ولنخرج الفيل إلى مكان مضيء ونعرف حقيقته».

ولذلك فإنهم لم يستطيعوا التوصل إلى معلومة صحيحة وسليمة بشكل من الأشكال.

C

يتحدث القرآن الكريم عن صنفين من الحمقى. فأما الصنف الأول: فهم الكافرون والمشركون، ويقول الله ﷻ بحقهم:

﴿... صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[75]

فأبو جهل، وأبو لهب، والوليد بن المغيرة وأمثالهم لم يهتدوا إلى الصراط المستقيم لأن قلوبهم كانت مختومة ومغلفة، وكانوا صماً، بكماً، عمياً تجاه الحقائق الإلهية. ولذلك فقد كانوا ينطقون بأمور بعيدة عن العقل والمنطق، مثل قولهم:

لو آمنا بك لعيرتنا نساء قريش! أو: كنا أحق بالنبوة، لأننا أكثر مالاً وولداً.

ومع أنهم كانوا يعلمون حق العلم بأن رسول الله ﷺ نبي حق، إلا أنهم أنكروا وعاندوا بسبب حمقهم.

وكذلك نجد بأن الفلاسفة الذين ينطلقون في طريقهم بعقولهم العقيمة والضحلة، يكذب بعضهم بعضاً؛ بينما نشاهد بأن الأنبياء قد صدَّق الواحد منهم الآخر على الدوام، ولم يحصل أن سار نبي على خط مغاير للأنبياء الآخرين، وذلك لأنهم كانوا مؤيدين بوحي إلهي.

وأما الصنف الثاني من الحمقى الذين ذكرهم القرآن الكريم فهم الذين يظنون أنفسهم عقلاء. وقد حُجبت عنهم الحقيقة، لأن الأهواء والرغبات والشهوات الدنيوية ساقتهم إلى وديان الغفلة.

---

٧٥ البقرة: ١٧١.



ومثل هؤلاء لا يمكن أن ينتبهوا ويستيقظوا من غفلتهم إلا بتعرضهم لبلاء ومصيبة.

C

يقول مولانا جلال الدين رحمه الله عن الحماقة:

«اهرب من الحمقى كما هرب عيسى، فما أكثر الدماء التي سالت بصحبة الحمقى».

إن معركة أنقرة التي وقعت بين تيمورلنك والسلطان بيازيد الصاعقة والتي تدعو إلى الأسف والأسى لم تكن إلا نتيجة لعناد أحمق. لأن المعركة انتهت بإراقة دماء الآلاف من المسلمين، وخلفت آلاف النساء الأرامل، والصغار اليتامى. وقد عاد تيمورلنك الذي تسبب بهذه الفاجعة خالي الوفاض بالرغم من قطعه مسافة أربعة آلاف كيلو متر.

يذكر الله تبارك وتعالى في سورة القلم مثالاً مشابهاً لهذه الحادثة، أي مظهراً لحماقة أخرى:

كان لشيخ في اليمن بستان من عنب، وتمر، وزرع. و كان لا يدخل بيته ثمرة منها ولا إلى منزله حتى يعطي كل ذي حق حقه من الفقراء والمساكين والضعفاء والمحتاجين وأبناء السبيل. فلما قُبض الشيخ وانتقل إلى جوار ربه، ورثه بنوه. وكان من عادة هؤلاء الفقراء والمساكين أن يأتوا إلى هذا البستان يوم الحصاد أو يوم قطف الثمار



فيأخذون حقَّهم ونصيبهم طيبةً به نفوسهم. فاجتمع الأولاد ليلاً وتدارسوا الأمر، وقالوا:

لدينا عيال وأبناء كثر وبحاجة إلى مال كثير. فدعونا لا نعطي أحداً من المساكين والفقراء والمحتاجين شيئاً من المحاصيل. ولنقطف هذه الثمار ونرفعها من الأرض قبل أن يأتينا هؤلاء فيطلبوا ما كانوا يأخذوه من أبينا...

وكذلك اتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا مبكرين إلى بستانهم قبل أن يأتي هؤلاء الفقراء إليهم ليقطفوا الثمار.

فاستيقظوا مبكرين بحسب ما اتفقوا، وذهبوا إلى البستان. ولما وصلوا إليه ذُهلوا من هول ما رأوا، وقالوا:

ليس هذا هو البستان، لا ريب أننا أخطأنا في الطريق! لأن البستان كان قد قلب رأساً على عقب، وحل فيه الخراب والدمار، وتحول إلى أرض جرداء لا شجر ولا نبات فيها. فأدركوا أنهم تعرضوا للغضب الإلهي بسبب فعلتهم، واعترفوا بذنبهم وندموا على حماقتهم، وقالوا:

لقد طغينا وتجاوزنا حدودنا، وكنا من الظالمين!

يقول الحق سبحانه وتعالى في نهاية هذه القصة:

﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٧٦]

٧٦ القلم: ٣٣.



إن الحماقة تولد الغفلة. والغفلة هي استبدال اللحظة الآنية بالمستقبل المجهول، وعدم التفكير بالمستقبل الأبدي. لذلك يقول الله تبارك وتعالى:

﴿...**وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[77] مشيراً إلى أن الحماقة هي سبب وقوع الإنسان في الغفلة.

إن الذي يتخلص من الحماقة يكون قريباً من ربه ﷻ. والقريب من الله تعالى يمتلك الكرامات الإلهية. فأولياء الله تعالى هم أعقل عناصر المجتمع، وأعلى الناس مقاماً من حيث الإدراك والمشاعر والعواطف وذلك لأنهم ورثة الأنبياء.

C

يتابع مولانا رحمه الله كلامه بشأن الحكاية التي ذكرناها في الأعلى، فيقول:

«لقد قرأتم قصة أهل ضروان في القرآن. فلمَ تصرون على الحماقة بالرغم من قراءتكم لها ومعرفتكم لنهايتها».

«فقد احتال بعض الحمقى وارتكبوا حماقة من أجل قطع رزق الفقراء والمحتاجين، فجلسوا حتى الصباح يتشاورون ويبحثون عن حيلة».

---

٧٧ الأعراف: ٢٠٥.



«لقد تهامس أولئك الأشرار الحمقى فيما بينهم بصوت منخفض كي لا يسمعهم أحد فيخبر الفقراء بأمرهم، والحال أن الله جل جلاله مضطلع على أسرارهم وسامع لأقوالهم. حاول اللسان إخفاء الأمر عن القلب!..».

«مع أن أباهم كان نبع الحنان والرحمة للفقراء والمساكين. فهو كان رجلاً صالحاً يمد يد العطاء من غير رياء ولا تفاخر. فكان عندما ينضج العنب يعطي العشر للفقراء، وعندما يتحول إلى زبيب ودبس كان يعطي العشر، وعندما كان يصنع منه الحلوى يعطي العشر. وكان يعطي من الحبوب العشر وهي ما تزال في السنابل، وعندما يجهز حبوبه في البيدر يزكي بعشرها، وعندما كان يفصل القمح عن التبن يزكي بعشرها. وعندما يطحن القمح كان يعطي العشر. وهكذا فإنه في كل الأحوال كان يزكي بالعشر بكل سخاء وكرم».

«ونصح ذلك الرجل الجواد قبل موته أولاده أن يستمروا على هذا المنوال من العطاء والكرم».

«وقال لهم: إن الثمار والمحاصيل وغيرها من الأرزاق إنما أرسلها الله تعالى إلينا من عالم الغيب، وهذا لا ريب فيه ولا شك. وإن العشر الذي أمرنا الله تعالى بإخراجه للفقراء هو الحارس على النعم التي تفضل الله ﷻ بها علينا، ويحول دون هلاك محاصيلنا وثمارنا! فراعوا حقوق الفقراء فيها وأدوها إليهم دون أدنى تهاون أو تقصير! وإذا فعلتم ذلك كنتم من الرابحين!..».



«ولنفرض أن البذار التي تزرعونها في الأرض وتظنونها سبباً للثمر لم تنبت ولم تثمر فماذا أنتم فاعلون؟».

«كان الأولاد يستمعون إلى نصائح ووصايا أبيهم القيمة والمعبرة دون مبالاة، وما إن توفي وانتقل إلى رحمة ربه حتى أسدلت حجب الطمع والجشع على أبصارهم وآذانهم وقلوبهم، فأعميت عيونهم، وصمت آذانهم، وماتت قلوبهم. فتعرضوا بعد ذلك للعاقبة المحزنة التي بينها الحق سبحانه وتعالى في سورة القلم».

«أيها الإنسان! إذا نظرت بتأمل وتمعن ستجد بأن الظالم الذي يأكل حقوق الفقراء ويحرق قلوبهم، إنما يحرق قلبه».

«أيها الإنسان! أخرج قطن الغفلة الذي وضعته في أذنك وألقه على الأرض! ولا تطمع برزق الفقراء مثل أهل ضروان!..».

«اصغ بقلبك إلى حكاية من خافوا من الفقر والعوز في كل لحظة! واستمع إلى هموم مرضى القلب، وشاركهم إياها!..».

«لا تتمسك كثيراً بالمال والملك، فإنك سوف تتركه وراءك يوماً عندما يحين الموعد ويبتعد عنك! فأنفقه الآن فليذهب ويبتعد عنك، وتكسب ثواباً! وابحث عن الصديق السرمدي وتمسك به، فهو الأول وهو الآخر. وإن كنت تريد أن تجده فأخرج من داخلك كل الأحمال النفسانية التي من شأنها إغراق سفينة قلبك، وألق بها خارجاً، فتبلغ مرادك!..».



«إن القلوب الغارقة في الفقر والحاجة مثل البيت الذي امتلأ بالدخان. فافتح نافذة لذلك البيت بالاستماع إلى همومهم وكربهم، ليخرج الدخان، ويرق قلبك وتصفو روحك».

يعبر يونس أمره عن بركة كسب القلب بقوله:

إذا رأيت مسكيناً،
وأعطيته شيئاً عتيقاً.
فإنه سوف يأتيك في الغد،
وكأنه ارتدى لباس الحق.

C

ويتحدث مولانا في مواضع أخرى عن صفات الحمقى، فيقول:

«وإن الأحمق يسمع بموت الجميع، ولكنه لا يريد تذكر موته أبداً».

«إنه يفتش عن عيوب الجميع صغيرة كانت أم كبيرة، وينشرها على الملأ. ولكنه بسبب حماقته لا يرى عيوبه أبداً».

«إنه غاص في الدنيا وخُدع وتعلق بها حتى صار بالرغم من أنه يعلم بأنه سوف يترك كل شيء خلفه، صار في خوف وفزع من تركها والتجرد منها. والحال أن خوف العريان من سرقة اللصوص أمر مثير للسخرية والضحك».



«جاء الإنسان إلى الدنيا عرياناً، وسوف يغادرها عرياناً. ومع ذلك فإن قلبه يتفطر خوفاً واضطراباً من اللصوص! وفي لحظات الموت يدرك بأن ثروته ليست له. ولكن بعد فوات الأوان».

«إن خوفه في الحياة من فقدان المال وضياعه كخوف الأطفال من فقدان الحصى التي ملأوا بها جيوبهم وظنوا أنهم يمتلكون أموالاً. فإن انتزعت منه إحدى تلك الحصى يبكي، وإذا أعدتها إليه يفرح. ولأن الطفل ليس لديه لباس العلم والحال، فإن ضحكه وبكاؤه غير معتبرين. وكذلك الأحمق، فإنه يرتجف خوفاً على ثروة الدنيا الكاذبة والفانية لظنه بأنه يمتلكها!..».

«إن الحياة الدنيا مثل حلم. وامتلاك الثروة في الدنيا مثل العثور على كنز في الحلم. فأموال الدنيا تنتقل من جيل إلى جيل ثم تبقى في الدنيا».

«اعلم حتى وإن كنت ملكاً، وكان لك تاج وعرش عظيم، وأموال وثروات لا تعد ولا تحصى، اعلم بأن كل شيء ما سوى الله تعالى إنما يقودك رويداً رويداً إلى الهلاك».

يقول يونس أمره:

يا صاحب المال، ويا صاحب الملك،

أين مالكهما الأول؟

المال كذب، والملك كذب،

وأنت ستلهو قليلاً ثم تذهب!..



لذلك يقول مولانا:

«إن ملك الموت يوقظ الغني الغافل من غفلته عندما يأخذ روحه. وإن ذلك الإنسان يعض أصابعه ندماً وحسرة في تلك اللحظات على الجهود والمعاناة والمشاق التي تحملها في الدنيا في سبيل المال الذي لم يتعرف على مالكه الحقيقي. ولكن لا ينفعه الندم بشيءٍ...».

عندما يدخل الإنسان إلى القبر ويحثو الناس فوقه التراب ويصبح في باطن الأرض، يتساوى الفقير والغني، ولا يبقى الفرق إلا العمل. فالذي عمله في الدنيا يقابله وجهاً لوجه في القبر. فرأس مال الذين يغادرون الدنيا هناك مرتبط بما أخذوه معهم، ولا فرق إن كان في الحياة عبداً أو حراً، سلطاناً أو عاملاً. فهناك المكان الذي يتحول فيه الكثير من الملوك والسلاطين إلى عبيد، ويتحول الكثير من العبيد والخدم إلى أسياد وملوك!

يقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«كم سيصمد العمود أمام الريح؟ إن كنت تريد أن لا تبقى وحيداً في القبر، فاملأ دنياك بالخير والصلاح!..».

«واعلم أن الذي لا يموت هو الله وحده، ولا شيء سواه. وإن سيل الموت المتدفق لا يعرف التعب، ولا السأم، ولا الانتظار. ويتوالى القادمون والمغادرون دون توقف».



«إنني أشبّه هذه الدنيا الجافة بسفينة نوح عليه السلام. والطواف هو الأجل الذي يأتي بغتة. فسفينتي تنتظر الأمواج الكامنة في عالم الغيب! وسوف أدخل أنا أيضاً بين الصامتين يوماً، وأنام معهم! أفلا يكفي العاقلين صراخي وندائي؟!..»

C

إن التعقل الحقيقي هو اتباع الأوامر الإلهية، وإن هذا هو الهاجس والقلق المستقبلي الأساسي والصحيح. وهذا في الوقت ذاته موجب للقيام باستعداد جدي للرحلة الأبدية.

وقد جاء في القرآن الكريم في خصوص العقل:

﴿... وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٧٨]

﴿... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٧٩]

﴿... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٨٠]

أثني على رجل أمام النبي ﷺ، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام:

«كيف عقله؟ ثلاثاً».

٧٨ البقرة: ١٩٧.

٧٩ البقرة: ٢٦٩.

٨٠ الرعد: ١٩.

وقال رسول الله ﷺ في حديث آخر:

«الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله».[٨١]

إن الحق سبحانه وتعالى يوصي أولي العقول بأخذ الدروس والعبر من الحوادث التي تحمل الكثير من التجليات والعظات الملفتة للأنظار والألباب. ويخبرنا بأن الدنيا دار بوار وخسران تخدع من ضل سبيله وغفل عن عقله، وأن الحياة ممر ضيق ممتد بين المهد واللحد. وينبهنا إلى ضرورة قضاء هذه الحياة الفانية بالعبودية له، وإلى أن آخر موقف في هذه الدنيا في جميع الأحوال هو القبر لا محالة، بغض النظر عن الطريقة التي يعيشها الإنسان فيها.

إن العقل نعمة إلهية محددة الصلاحية بمحتوى القرآن الكريم. وأما العقل الذي لم يلتزم بتحديد قدرته وصلاحيته بالقرآن الكريم فإنه يقود صاحبه إلى الضلالة والحماقة. فالتاريخ البشري مليء بالحمقى والظالمين والطغاة الذين ظنوا أنفسهم عقلاء، فألهوا أنفسهم، وفضلوا الدنيا على الآخرة. ولذلك فإن التعقل الحقيقي هو استخدام الطاقات والإمكانات التي وهبها الله للإنسان في محلها، وبما يتوافق مع القرآن والسنة.

٨١ الترمذي، القيامة، ٢٥/ ٢٤٥٩؛ ابن ماجه، الزهد، ٣١/ ٤٢٦٠.



يقول الإمام الغزالي:

«شددت على العقل حتى كاد أن يتمزق... ولكن رأيت بأنه محدود، ولا يوجد نقطة نهائية يمكن أن يتوصل إليها بنفسه. فكدت أفقد عقلي. فلجأت حينئذ إلى روحانية النبي عليه الصلاة والسلام، فبدا كل شيء، ونجوت بذلك».

إن النبوة طور وراء العقل. ولا يستطيع العقل إدراك قيمتها وطبيعتها الحقيقية، وحفظ نفسه من حبال وحيل النفس إلا بالروحانيات، أي بالتآلف مع عالم القلب. وإلا فإنه يسقط في شراك النفس، ويصبح تابعاً وخاضعاً لأهوائها ورغباتها.

يقدم لنا القرآن الكريم في قصص الأنبياء مشاهد من أحوال الطغاة والظالمين الأشقياء الحمقى الذين ظنوا أنفسهم عقلاء:

كان قارون ابن عم موسى عليه السلام، وكان واحداً من الذين أغدق الله سبحانه وتعالى عليهم بنعم وأموال لا تعد ولا تحصى. وفوق ذلك كان من أفضل من يقرأ التوراة. وأعطي «علم السيمياء» الذي يُعد من العلوم السرية. وكان قارون زاهداً وتقياً. ولكن خزائن الأموال التي أكرمه الله تعالى بها أبعدته عن ربه، بدلاً من أن تقربه إليه. فألّه ثروته. حتى لما ذكر موسى عليه السلام قارون بزكاة أمواله، رد عليه معترضاً:

إنما أوتيته على علم عندي!.

وقد أسكرته أموال الدنيا ودفعته إلى وديان الجهالة والحماقة حتى بلغ به الأمر إلى الافتراء على موسى عليه السلام. وفي نهاية الأمر تعرض للغضب الإلهي، فخسفت الأرض به وبداره وبخزائن أمواله التي يتحصن بها، فهلك وصار عبرة لمن اعتبر.

C

يُعد العقل من أهم القيم التي تحافظ على الشرف والكرامة الإنسانية، وتميز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى. فالعقلاء الذين تكون قلوبهم متيقظة وبعيدة عن الغفلة يرفعون من شأن أسرهم وشعوبهم بين المجتمعات والأمم، كما يبلغون الشرف والكرامة الإنسانية.

فعلى سبيل المثال يعد عهد السلطان العثماني بيازيد الثاني العهد الذي وضعت فيه دعائم وأسس الثقافة والحضارة العثمانية. أرسل الرسام والمعماري الإيطالي المشهور ليوناردو دافينشي بكتاب إلى السلطان بيازيد الثاني يعرض عليه فيه بوضع المخططات والتصاميم لسائر المساجد والأبنية التي ستبنى في إسطنبول بنفسه، ولما وصل الكتاب إلى قصر السلطان ساد الفرح بين رجال القصر كلهم. وأما السلطان بيازيد الذي كان صاحب حس وإدراك عميق ودقيق للأمور، وحسن الإدارة والتدبير، فقد رد عرض ليوناردو، وقال:



«إذا قبلنا هذا العرض فسوف يسود دولتنا الطراز المعماري الكنسي، ولن تظهر العمارة الإسلامية، ولن تكتسب شخيصتها وطابعها المميز!».

فهذه آفاق نظرة أحد المسلمين من أهل العقل والقلب والفراسة. فكما أن مساحة أراضي الدولة الإسلامية تضاعفت في عهد السلطان بيازيد الثاني وما بعده حتى بلغت عشرين مليون كيلو متراً مربعاً، فكذلك الأمر بالنسبة للفن الإسلامي، حيث تقدم وتطور حتى بلغ ذروة الإبداع. ومن خلال هذا الوعي والبصيرة تم نقش الهندسة وتلقيحها بروح الإسلام، وظهرت إلى الوجود سلسلة من الأوابد الإبداعية التي ستحافظ على قيمتها وتفردها إلى يوم القيامة، مثل جامع السليمانية وأشباهه.

C

لقد عاشت الدولة العثمانية مدة طويلة امتدت لما يقارب ستمئة وعشرين عاماً، وما كانت هذه المدة الطويلة التي لم تسبقها إليها إمبراطورية أخرى إلا بفضل شخصيات فريدة ومتميزة أضفت على التاريخ شرفاً ورفعة، وبينت للإنسانية وجهتها وسبيلها من الناحية المادية والمعنوية. لأن الدولة العثمانية كانت قد جعلت أولويتها بناء شخصية الإنسان بما يضمن تمدد الإسلام واتساع رقعة الدولة الإسلامية. وقد حققت انتصاراتها ونجاحاتها



المستمرة من خلال شخصيات متميزة تمتلك قدراً عالياً من الفراسة والإدراك ورجاحة العقل.

وكان السلطان ياووز سليم أحد هذه الشخصيات الفريدة. حيث أنه لم يجتز صحراء سيناء الشاسعة والشديدة الحرارة التي لم يكن من المتصور اجتيازها في ذلك الزمن، ويفتح مصر بعون الله تعالى وروحانية رسول الله ﷺ إلا من خلال استخدامه القوة العقلية والقلبية لأقصى مداها.

ولما استشهد أثناء الفتح سنان باشا أعز وأقرب أصحابه إليه، اعتبر فقدانه معادلاً لفتح مصر، إذ قال وقد خيم عليه حزن وكدر شديد:

«أخذنا مصر، ولكننا خسرنا سنان باشا!».

وبعد إتمام الفتح قال ياووز سليم ذاك السلطان والقائد القوي وذو العقل الراجح معبراً عن آماله وأمنياته:

«إن القلب يريد أن أخرج من شمال أفريقيا حتى أدخل الأندلس، ثم أعود ثانية إلى إسطنبول عبر البلقان!». فبين من خلال قوله هذا آفاق طموحات ورؤية المسلم الحقيقي، إلا أن الظروف لم تسمح لتحقيق هذه الآمال.

أجل؛ إن العقل هو النعمة التي وهبها الله تعالى للإنسان وحده دون غيره من المخلوقات. حيث لا يمكن استعمال أي شيءٍ بدقة



وبالشكل الأمثل المطلوب، واستشفاف مآلات الأحداث وعواقبها قبل تحققها إلا من خلاله.

ويقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي عن حال ومرتبة العبد الذي يرتقي ويسمو بنفسه :

«...**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به...**».[٨٢]

وما ذاك إلا لكونه المخلوق المتفرد بنعمة العقل.

C

إن النصيحة والتوصية التي قدمها المتصوف الكبير عثمان أتابازاري أفندي للصدر الأعظم محمد كوبرولو باشا ملفتة للأنظار وتستحق التوقف عندها. حيث كان قد أوصاه في أحد المجالس باستعمال العقل بما يتوافق مع طبيعة الإنسان وملكاته وقدراته وتوجهاته. فقال له:

«إذا ارتديتم جبتنا فسوف تفسد أعرافكم وعاداتكم ونظام حياتكم. وإذا ما ارتدينا نحن عباءتكم فسوف يفسد نظامنا ويضل طريقنا. لذا من الأنسب أن يتصرف ويتحرك كل إنسان حسب عاداته ونظامه وأصوله...».

C

٨٢ البخاري، الرقاق، ٣٨/ ٦٥٠٢.



ونورد توصية من مولانا جلال الدين رحمه الله لأهل القلب العقلاء، حيث يقول:

«أيها العاقل! أصغ السمع للحديث النبوي الشريف القائل: **(ارحموا أهل الأرض، يرحمكم من في السماء!)**[٨٣] فتألم لألم من هم أدنى منك، كي يتألم لألمك من هم أعلى منك!».

«إن وجدت من صاحبك جفاء، فتذكر ألوان وفائه وإحسانه! فالإحسان شفيع للذنب».

C

وما أجمل الدعاء الذي علمنا إياه ربنا سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، والذي نختم به حديثنا هنا:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[٨٤]

آمين!..

E

٨٣ أبو دواود، الأدب، ٥٨/ ٤٩٤١.

٨٤ الحشر: ١٠.



جدار الوجود

«كل من قال عند باب الحق سبحانه وتعالى (أنا) و(نحن)، فإنه يجول في وادي (لا)، أي الرد والرفض. فمثل هؤلاء لا مكان لهم عند باب الحق».

مولانا جلال الدين الرومي



جدار الوجود

لقد كان هناك جدار عال على حافة جدول ماء، وكان يستحيل الوصول إلى الجدول لارتفاعه الشاهق. وكان يجلس فوق الجدار رجل ظمآن متألم، وذلك الجدار يمنعه من الوصول إلى الماء، والرجل يتلوى من العطش مثل سمكة انتزعت من الماء.

وبينما هو جالس يلتفت يمنة ويسرة متحسراً على جرعة ماء اقتلع قطعة مدر (طوب) من الجدار وألقى بها في الماء. فجاء صوت الماء إلى مسمعه مثل الخطاب؛ مثل خطاب الحبيب، حلواً لذيذاً، كأنه ماء الحياة؛ فأسكره ذلك الصوت وكأنه تجرع النبيذ. ومن شدة الصفاء الذي جلبه له صوت الماء العذب، صار هذا الظمآن الممتَحن بالعطش يقتلع قطع المدر واحدة بعد الأخرى ويرمي بها في الجدول. وأخذ يصدر صوتٌ من الماء وكأنه يناديه:

«يا أيها الدرويش! أي فائدة تتأتى لك من إلقاء الطوب علي؟

فأجابه الظمآن الذي يتحرق من العطش:



- أيها الماء! لي فائدتان من هذا العمل، لذا لن أقلع عما أقوم به أبداً.

«أما الفائدة الأولى: فهي سماع صوت الماء، وهو للظامئين كصوت الرباب».

«أو كنفخة إسرافيل التي يُبعث بها الميت إلى الحياة».

«أو أنه كهزيم الرعد وأمطار نيسان المباركة في أيام الربيع، حين تتخلص الحقول والبساتين من الحسرة بدموع السماء؛ فتحيا وتكتسي بالألوان الزاهية».

«أو أنه صوت النداء والدعوة لإخراج الزكاة والإنفاق على الفقراء والمحتاجين وللفقير كأيام الزكاة».

«أو أنه للسجين كرسالة النجاة».

«أو كأنه عبير شفاعة أحمد عليه الصلاة والسلام الآتي من الحضرة الإلهية للمجرمين والمذنبين».

«أو أنه ريح يوسف الجميل اللطيف الذي يهب على روح يعقوب النحيل».

«أو أنه نسمة طمأنينة وسكينة ليلى التي تهب على مجنون البائس الهائم على وجهه».

«أو أنه حضن دافئ مفتوح في القلب لليتامى والمكدورين».

«وأما الفائدة الأخرى فهي أن كل لبنة أنزعها من هذا الجدار تجعله أقل ارتفاعاً، فتقربني منك أكثر أيها الماء المعين».



المثنوي:

«يا صاحب الإحساس! من تقليل الطوب يصير الجدار العالي أكثر انخفاضاً».

«وانخفاض الجدار يصير قرباً من الماء، وفصل الطوب عنه يكون دواء الوصل».

«وإن السجود لله يحصل باقتلاع ذلك الطوب اللّزب، ويصير موجباً للقرب. مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾[٨٥] ».

«وما دام هذا الجدار شامخاً بعنقه فإنه مانع لطأطأة الرأس!..».

«ولا يمكنني السجود لصاحب ماء الحياة والشرب من ماء البحر المعنوي ما لم أجد من أهواء ورغبات هذا الجسد الترابي النجاة».

«وكل من كان على رأس هذا الجدار أكثر ظمأً فإنه يقتلع الطوب والمدر أكثر وأسرع».

«وكل من كان أكثر عشقاً لصوت الماء، فإنه ينتزع من جدار الوجود الذي يُعد حجاباً ومانعاً طوباً أضخم».

«ويصبح سكراناً من صوت الماء حتى النخاع، ولا يسمع شيئاً سوى ذاك الصوت».

«وما أسعد ذاك الذي يغتنم أيامه ويبذل جهده لتسديد دينه الآن قبل غد».

C

---

٨٥ العلق: ١٩.



يعرف الشيخ سعدي الشيرازي الإنسان بقوله:

«إنه بضع قطرات من الدم، وآلاف من ألوان وأشكال الاضطراب ...».

إن الجدار الوارد في الحكاية والذي يشكل سداً مانعاً للوصول إلى جدول الماء يرمز إلى ما في داخل الإنسان من الآمال والأماني النفسانية والرغبات والشهوات والأهواء المتعلقة بهذه الدنيا الفانية التي لا تنضب ولا تنتهي، وخاصة «الأنانية»، والتي تحول دون الوصول إلى الحقيقة.

وأما الجدول فيرمز إلى المحبة والمعرفة الإلهية (معرفة الله). فالإنسان الذي يتلهف قلبه للمحبة الإلهية يمضي عمره كله بالتوق والشوق للوصول إلى ذلك الجدول. وكل صوت وهمس يصدر من جدول المحبة والمعرفة ذاك يغرقهم بألوان لا نهاية لها من اللذة والنشوة، ويجهزهم للخروج في رحلة الحق السامية.

يُعد هذا العالم بالنسبة للإنسان الذي يشعر بالمحبة الإلهية مرآة حكمة مقدمة للتبصر والتدبر. ولأن الإنسان مكرم بمعناه وليس بمادته فإن بلوغ كمال العبودية يكون بقدر عمق وتبحر روحه. وهذا هو صفة التكريم التي وردت في القرآن الكريم.

من المعلوم أن المحروم من المحبة الإلهية والملذات والأذواق والمتع الأخروية لا يمكنه ألبتة أن يحول نهار الدنيا الذي يُقضى بنمط معيشة حيوانية ليجعله ليلة موت سعيدة ومليئة بالخير



مهما توسل إلى ذلك بأشكال اللهو والمجون المختلفة. ومن الطبيعي أيضاً أن لا تنتهي الليلة المظلمة التي تقضى بالانغماس في الشهوات الحيوانية بانبلاج فجر سعيد. ليس هناك ما يسيء لشرف وكرامة الإنسان ويخدشها أكثر من الوقوف بخمول وبلاهة وغفلة أمام الحوادث والمشاهد الكونية المليئة بالعبر الإلهية، والسير في الحياة بتيهٍ دون غاية، والضياع في أودية اضطرابات وهواجس الموت المجهولة!. إن تورد حياة الدنيا النفسانية محكوم بالذبول والشحوب؛ وأما لهوها وضحكاتها فمليئة بلفحات نار جهنم.

فالإنسان الذي يخالط الغافلين الذين لا يختلفون عن الأموات بشيءٍ، يتجرع سم الموت الذي يحملونه دون أن يشعر بذلك. ويصبح قلبه نتيجة التسمم من القلوب الميتة أيضاً.

والخلاص الوحيد هو مصاحبة الأحياء معنوياً وروحياً وملازمتهم... وعند الابتعاد عنهم مادياً يكون الخلاص بالغوص في بحر روحانياتهم، وتلاوة القرآن الكريم بتدبر وحضور قلب...

إن الإنسان الذي يسير على نهج القرآن الكريم يكتسب أخلاق القرآن والرسول ﷺ. وتنشأ علاقة وتآلف بينه وبين قصص الأنبياء الواردة في القرآن الكريم، فتسري الفيوض من تلك الروحانيات إلى قلبه.

C



يقول جابر رضي الله عنه:

أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «**من ذا**» فقلت: أنا، فقال: «**أنا أنا**» كأنه كرهها.[86]

لأن قول أنا يشتمل على نوع من الكبر والعجب.

ينقل لنا مولانا رحمه الله هذه الحادثة على شكل حكاية، فيقول:

«جاء عاشق ولعان القلب إلى دار حبيبه، ودق الباب. فقال له الصديق الحبيب: من أنت أيها المعتمد؟ فأجابه العاشق: أنا!

فقال له الحبيب: امض، فليس الوقت مناسباً لدخولك. ليس هناك مكان لأرواح ساذجة نيئة على مائدة النعيم المعنوي الروحي!»

فرجع ذلك المسكين، وأمضى عاماً في الرحيل وهو يحترق ويكتوي من نار فراق الحبيب.

ولما نضج ذلك العاشق المحترق عاد، وطاف ثانية بدار حبيبه. ودق حلقة الباب بوجل وأدب شديدين، حتى لا يتطاير من بين شفتيه لفظ لا أدب فيه. فصاح صديقه الحبيب: من بالباب؟ فقال العاشق الملتاع: أنت!.فقال الحبيب: الآن ما دمت أنت أنا، فادخل يا أنا. فالدار لا تتسع لاثنين يقولان (أنا). ثم أضاف الحبيب قائلاً: يا من غلبت نفسك في عام! ادخل، ادخل يا من أنت كلي، ولست مخالفاً كما تخالف الأشواك الورود والرياحين».

---

٨٦ البخاري، الاستئذان، ١٧/ ٦٢٥٠.



ويقول مولانا رحمه الله في موضع آخر:

«كل من قال على باب الحق سبحانه وتعالى (أنا) و(نحن)، فإنه يجول في وادي (لا)، أي الرد والرفض. فمثل هؤلاء لا مكان لهم على باب الصديق».

علينا أن نتوقف قليلاً ونتفكر؛ فحتى الإبرة لا يدخل إلى ثقبها خيط مزدوج الرأس. ولا بد من أن تتجمع وتتوحد كافة ألياف الخيط ليدخل ثقب الإبرة و يقوم بوظائفه. وكذلك حال العاشق؛ فدخوله لثقب إبرة الوصل لا يكون إلا بنار الهجران.

لا ريب أنه ليس من السهل على الإنسان تهذيب روحه، وترقيقها، وتطهيرها من النفسانيات لتكون رقيقة ودقيقة لدرجة ولوجها من ثقب إبرة الوصل. ولكن من الضروري المجاهدة لبلوغ هذه الحالة المعنوية من أجل الغوص في النعم الإلهية. فالله ﷻ يقول:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ...﴾[٨٧]

فطالما أن الذين يسيرون خلف غرورهم واستكبارهم وأنانيتهم لم يذيبوا أنانيتهم وأهواءهم النفسية المؤقتة في سبيل الله ولم يصلوا إلى الصفاء الروحي، فإنهم لا يستحقون الدخول إلى جنة وحدانية الله. فهؤلاء لا تُفتح لهم أبواب السماء إلا عند تعلم أحكام

٨٧ الأعراف: ٤٠.



الشريعة وسبل الطريقة، وتطهير قلوبهم من الأنانية التي هي صفة الشيطان من خلال تزكية النفس وتصفية القلب تحت إشراف وتربية مرشد كامل.

ولا يمكن إصلاح وتهذيب النفس والأنانية الكامنة في الإنسان إلا بالمحبة، وإظهار العجز، وإخضاعها لسيف «لا»؛ أي ببلوغ حالة الفناء. ولكن بعد هذا لا بد لنيل الرحمة والنعمة من المرور بنجاح بالامتحان الضروري المتمثل بولوج ثقب الإبرة المحفوف بالآلام والمعاناة.

يرى يونس أمره أنه لا مكان لإحساس «الأنا» بالنسبة لمن يسير على طريق الحق سبحانه، فيقول:

ليس من الأصول،

أن تقول (أنا) في العالم الروحاني.

ونحن أبواب للعباد،

فليس من الصواب النظر نظرة حولاء خاطئة!..

ومن جهة أخرى؛ ينبغي أن لا يضل وينخدع العبد بالظن أنه هو من أظهر النور الذي أخذ يلمع ويضيء في قلبه وروحه، وإنما عليه الشكر الدائم بحالة من الإدراك التام أن هذا النور إنما حظ إلهي قُدم إليه هبة من الله تعالى. وإلا فإنه سوف يتعرض لخسران وشقاء عظيم، إذ ليس هناك شقاء للعبد أعظم من الاغترار بمثل هذا اللطف الإلهي والاعتقاد بأنه هو من ولَّد هذا النور في ذاته. فعاقبة الذين يقتبسون من نور نبي أو ولي، ثم يسلكون طريق الأنانية



والغرور بما حصلوه هي السقوط في وديان الظلمات مرة أخرى. فهذه الحالة تبعد الإنسان فرسخاً فرسخاً عن شرف العبودية لله تعالى، والانتساب إلى أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم. والتاريخ الإسلامي مليء بالكثير النماذج والقصص المشابهة لقصة قارون.

لذلك ينبغي النظر إلى المنعم، وليس إلى النعمة حتى لا يهوي الإنسان إلى أودية الضلالة. يلفت مولانا الرومي رحمه الله الأنظار إلى هذا الأمر بقوله:

«ما أكثر الأربطة والقصور التي ينبغي للمرء أن يتركها حتى يصل إلى منزله الحقيقي».

«إن رأيت الحديد قد احمرّ، فلا تظنن أنه احمر بطبعه، بل هو شعاع من إضرام النار فيه».

«وإن صارت الكوة أو الدار مليئتين بالنور، فلا تعتبرهما شيئاً منيراً، فهذا النور ليس إلا ضوء الشمس».

«تقول الشمس لكل شيءٍ يغتر بنفسه ويدعي أنه ينير من تلقاء ذاته انجراراً وراء الأنا: اصبروا قليلاً حتى أصل خلف هذا الجبل أو البحر وأغيب عن الأفق، فتدركوا حينها الحقيقة».

«وكذلك الجسد، فإنه لا يزال يظهر حسنه وجماله ويباهي بهما، إلا أن المجد والقوة للروح المخفية داخله».



فالذين يدركون هذه الحقيقة ويتحررون من الأنانية، أي يموتون قبل أن يموتوا بالتخلص من براثن طغيان النفس يقومون من الموت ويعيشون في المحبوب مكافأة لهم على هذه الحالة التي بلغوها. وفي هذه القيامة يصير الله بصرهم الذي يبصرون به، وسمعهم الذي يسمعون به، ورجلهم التي يمشون بها، ويدهم التي يبطشون بها. يعيش العبد في هذا المقام حال وصال عظيمة. فلا ينظر ولا يرى غير الحق سبحانه. يصف يونس أمره ذلك، فيقول:

لقد وجدت روح الأرواح،
فلتكن روحي نهباً لمن شاء!
لقد اجتزت ضياع المعاصي،
فليكن دكاني نهباً لمن شاء!
لقد اجتزت أنانيتي،
وأزلت حجاب عيني،
وبلغت وصال الحبيب،
فلتكن أوهامي وظنوني نهباً لمن شاء!
ما أجمل ما قلت يا يونس،
فكأنك أكلت حلواً وعسلاً،
لقد وجدت جوهر العسل وأصله،
فلتكن خليتي نهباً لمن شاء!

C



ومن أحد المقامات العالية التي يرتقي إليها العبد هو عدم رؤيته أي شيءٍ سوى ربه وحده وذلك كمظهر لتجلي ربه، وإن العبد الذي يرتقي إلى المقام يكون قد فني في الحق سبحانه. وفي هذا المقام تُدرك بشكل باطني هذه الحقيقة التي بينها أحد كبار أهل التصوف:

«إن الله غائب لشدة ظهوره!»، وذلك مثل الشمس تماماً؛ فالشمس عندما تسطع وتشرق بشدة فإنها تختفي عن العيون المحدقة بها لعجزها عن رؤيتها لشدة ضيائها وشعاعها.

وتُسمى هذه المرتبة نهاية مقام المشاهدة. وهذه الحالة هي مرتبة سير المحب. أي أن القلب يتحرر تماماً من خصال النفس وأسرها، فيبلغ العبد مقاماً حيث يكون فيه مع ربه عندما يكون مع الناس، ويكون مع الكل عندما يكون مع ربه.

وتبين الحادثة الآتية حال المعية مع الله:

ذات يوم كان الشيخ محمد بارسا متوجهاً إلى الحج، وخلال رحلته مر ببغداد. وبينما كان يسير في السوق رأى شاباً منير الوجه يعمل في تجارة الذهب. ووجد الشاب مستغرقاً كثيراً في العمل لكثرة مشاغله وزبائنه. فحزن الشيخ لانشغال الشاب المفرط بالدنيا، وقال في نفسه: "لقد أشغل نفسه بالأعمال الدنيوية في فترة ينبغي أن ينشغل فيها بالعبادة". ولما واصل مراقبته له لبرهة من الزمن دُهش لحال الشاب، حيث شاهد بأن قلب هذا الشاب المنكبّ على بيع



وشراء الذهب مع الله. فهذه الحالة، أي معية الله والبقاء معه حتى مع كونه بين الناس هي بلوغ حالة الوحدة في الكثرة.

وأما حالة كون العبد مع الجميع عندما يكون مع الله، فهي حالة الأنبياء والرسل، والخواص من العباد. فهي ماهية متعلقة بالقلوب الحية، وعلامة على الاهتمام بهموم الأمة ومشاركتها آلامها ومعاناتها.

إن الحالة التي عاشها النبي عليه الصلاة والسلام في لحظة الوصال مع ربه ليلة المعراج التي بلغت من القرب قاب قوسين أدنى والمجهولة ماهيتها بالنسبة لنا مثال مشخص للحالة التي نتناولها. فحتى في تلك اللحظة فكر النبي عليه الصلاة والسلام بأمته ولم ينسهم، فتضرع إلى الحق سبحانه وتعالى لأجلهم.

فالذين ينالون حظاً من هذه الأحوال المعنوية السامية يصبحون مع الله تعالى في كل شؤونهم وتقلباتهم وأحوالهم. وفي هذا المقام يتجلى المعنى الحقيقي للحديث القدسي:

«...**كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به!..**» [٨٨]

وهذا المقام هو المقام الذي بينه القرآن الكريم في الآية الجليلة:

﴿...**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى**...﴾[٨٩]

---

٨٨ البخاري، الرقاق، ٣٨.

٨٩ الأنفال: ١٧.



وأعظم خصوصياته هي كونها المقام المحمدي. والأولياء الكاملون لهذه الأمة يقتبسون حظاً من تجلي هذه الحالة بقدر محبتهم لرسول الله ﷺ. وحتى إن لم يبغوا ذاك المقام فإنهم مع ذلك ينالون مرتبة بنسبة ما لديهم من إخلاص وصدق في السعي.

والذين يبلغون هذا المقام هم القائلون:

"أنا لست أنا. وهذا النفس منه!"

وانطلاقاً من ذلك فإن قولهم في كل مرة "أنا" هو على سبيل المجاز، لأنهم متحررون من الأنا.

ويذهب شاعر آخر إلى أن الأنا بالنسبة للإنسان حجاب، ومن الضروري التخلص والتحرر منها، ويعبر عن ذلك بقوله:

لقد سرت في هذا الطريق،
فوجدت أن الأنا حجاب أمامي.
لقد قرأت، وفهمت، فعرفت،
أن الأنا حجاب أمامي.

C

كما أن بذرة القمح تسير في رحلة تنتهي بها في النهاية لأن تصبح خبزاً يدخل إلى بنية كائن حي، لتصير جزءاً من هذا الحي الذي دخل إليه؛ وكما أن حجر الكحل عندما يُطحن ويتحول إلى غبار، ويدخل إلى العين يفقد صفته الحجرية، ويمنح العين رؤية



أوضح، ويحل محل قوة النظر في العين؛ وكما أن جدول الماء يفقد صفته عندما يلتقي بالبحر، فيدخل في بنية البحر ويصير جزءاً منه؛ فكذلك الإنسان، إذا ما نال فيض وروحانية وعناية ولي من الأولياء يبدأ في روحه الكمال والعرفان. ويُبعث قلبه وتسري فيه الحياة من جديد، هذا القلب الذي كان من قبل ميتاً أمام حوادث الكون، والأشياء، والمخلوقات.

وتُعد القصة الآتية خير مثال لهذه الحالة:

كان يحيى بن يغان ملكاً على تلمسان، وذات يوم كان الملك قد خرج مع رجال قصره يتجول في المدينة ويحف به موكب كبير مؤلف من الخيل والأعوان، وترفرف في السماء الرايات وشارات الملك، وعندما سمع الناس الطبول خرجوا مسرعين لئلا تفوتهم مشاهدة الموكب، وبدأوا بالهتاف للملك وإلقاء التحية عليه. ولكن ما لفت أنظار الملك أكثر من هذه الحشود والجماهير والهتافات التي تعلو من أفواههم هو رجل كان يجلس وحيداً بعيداً عن هذا الصخب والضجيج، وتحيط به هالة من النورانية، والزهد، والتحرر من الدنيا ومظاهرها الخادعة. فسأل وزيره عنه، فقال الوزير:

- إنه ولي الله الشيخ عبد الله التونسي المشهور، الفقيه العابد الزاهد الذي فضل الخلوة في إحدى المغارات.

فسار الملك الذي داخله الفضول بفرسه إلى الشيخ التونسي وسأله عن أمر كان يجول في قلبه، فقال:



- يا شيخ! هل تجوز الصلاة بهذه الثياب التي ألبسها؟ وكان الملك يلبس ثياباً حريرية مطرزة بالذهب، ومرصعة باللآلئ والمجوهرات.

لم يرغب الشيخ التونسي بالإجابة على سؤال الملك، وأراد أن يوجه هذا السؤال إلى علماء قصره، ولكن لما ألح عليه رجال الملك، قال:

- فكر بحال الكلب، إنه يتمرغ في دم الجيفة وأكلها وقذارتها، ثم إذا جاء يبول رفع رجله حتى لا يصيبه البول.

فصرخ به الملك، وقال:

- ماذا تقصد بقولك هذا؟

فقال الشيخ:

- أنت وعاء مُلئ بالحرام، وحقوق العباد. وتسأل عما إن كان تجوز الصلاة بهذه الثياب!

وقعت هذه الكلمات على الملك كما يقع الماء على النار فيطفئ جذوتها. فترجل عن فرسه، وخلع عنه ثيابه ومعها الملك والسلطان، وألقى بسيفه، ثم خاطب الناس الذين كانوا يحدقون إليه بحالة من الدهشة، فقال:

- أيها المسلمون! سامحوني على ما أخطأت بحقكم، وابحثوا لكم عن ملك غيري.



ولازم الشيخ التونسي ملازمة من يقبل بصدق على الله تعالى، وصار أحد تلامذته.

بلغ الملك بالتربية المعنوية التي تلقاها على يدي الشيخ التونسي مقاماً عظيماً، حتى أن الشيخ عبد الله التونسي إذا جاءه الناس يطلبون منه الدعاء، كان يقول لهم:

- اطلبوا الدعاء من يحيى بن يغان، فإنه ملك تزهّد، وانقطع إلى الله تعالى وترك الملك، ولو كنت مكانه لما استطعت فعل ما فعله...

لو أن سلاطين وملوك الأرض يعرفون كنز السعادة الذي وجده الملك يحيى لحذوا حذوه، وضحوا بكل ما يملكون للحصول عليه.

C

إن السادة أهل الله يربون مخاطبيهم ومريديهم بأسلوب ومنهج يتلاءم مع مواطن ضعفهم، ومشاربهم، وأحوالهم. لذلك ما ينبغي الاستنتاج من هذه الحادثة أن "الإسلام لا يقر أو يستصوب تولي المناصب في الدولة". فالحكمة متعلقة بحال الملك يحيى. وقد كان إرشاده وتزكيته مختلفة لأنه كان غارقاً في الحرام، وغصب حقوق كثير من العباد.

وهناك أمثلة كثيرة على إرشاد السادة أهل الله بشكل مختلف عن هذه الحادثة. مثل ما حدث بين الشيخ آق شمس الدين، والشيخ



أبو الوفا وبين السلطان محمد الفاتح. فقد هاجر الشيخ آق شمس من إسطنبول ولم يمكث فيها بعد الفتح حتى لا يتسبب بإهمال السلطان محمد الفاتح لإدارة شؤون ومصالح الدولة من خلال الانشغال بحضور مجالسه الروحانية. وسار الشيخ أبو الوفا على النهج ذاته حيث أرسل إلى السلطان محمد الفاتح الذي أصر على لقائه:

«إن لسلطاننا العزيز قلب حساس ورقيق. وإذا ما دخل إلى عالمنا وذاق ما فيه من لذة، فإنه لن يخرج منه، ولن يعود إلى إدارة الدولة!.. بينما هذا المُلك وهذه الأمة أمانة في عنقه. فإذا لم يأت أحد قادر مثله ويملأ مكانه، فإن الملك والأمة سيتعرضان للخطر، وأكون متحملاً وزر ذلك!..

ثم إن روحه سوف تسيح في الأجواء المعنوية السائدة عندنا، وسوف يأتي بكل ما لديه وينفقه هنا. وإن كافة الموارد والأموال التي تصرف على الأرامل، واليتامى، وأبناء السبيل، والمشردين والمحتاجين سوف تتدفق إلى هنا!.. وفي الوقت نفسه سوف يدخل حب الدنيا ونعيمها في قلوب المريدين، ويفسد ما نحن فيه من وئام وانسجام!..

إننا ندعو ونتضرع لأجل سلطاننا العزيز من موقعنا. وإن قلبه داخل قلوبنا. وإن إرشادنا وتعاملنا الروحي معه سوف يكون على هذا المنوال مراعاة للمصلحة العامة!..».



وما يلفت الانتباه أيضاً هو التربية المعنوية للشيخ عزيز محمود هدائي.

فعندما كان الشيخ هدائي قاضياً تم إبعاده في بداية الأمر عن كافة الروابط الدنيوية، والمتعلقة بالمكانة والمنصب، وذلك تحت إرشاد الشيخ محمد أُفتاده. لأن منهج التربية الذي سيخضع له كان يقتضي ذلك. وفي نهاية المطاف وصل إلى مقام يؤهله لتربية وإرشاد سلاطين العالم. وأما الشيخ هدائي الذي نشأ بامتحان الفناء فقد اتبع أسلوب تربية السلاطين وهم في مواقعهم ومناصبهم الدنيوية متربعين على عرش السلطنة. وجعلهم بحالة يلقون فيها كل ما يتعلق بالدنيا خارج قلوبهم، وبالأخص السلطان أحمد خان الأول. فقد حصلت بينه وبين الشيخ وحدة حال لدرجة لا يمكن معها التمييز حتى بين أشعارهما لولا الأسماء.

فيجب فهم مناهج وأساليب التربية، أي أصول الإرشاد هذه المتبعة لدى الخواص من العباد في حالة الوفرة، والضيق، والعدم بشكل جيد. فهذه الأساليب تبرز فروقات واختلافات حسب البنى الروحية للمخاطبين، أي الخاضعين للتربية والإرشاد. فقد كانت عاقبة قارون وخيمة ومؤلمة على الرغم من إرشاد كليم الله موسى ، لأنه لم يدرك هذه النقطة، واتبع نفسه. وإن عاقبته تلك تحذير مليء بالعبر والعظات لأولي الألباب والعقول.

ولذلك فإن الشيء الأصح في هذا المضمار، أي في الإرشاد والامتحان في أحوال مختلفة هو التسليم للحق سبحانه وتعالى. وهذا بدوره لا يتم إلا بمحبة صادقة لرسول الله ﷺ، واتباع قلبي وروحي لمرشد كامل.

يقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«ما أسعد من تخلص من نفسه (كافة أهوائه ورغباته النفسانية)، وتآلف واتصل مع قلب حي (مرشد كامل)!».

إنه يدعو الإنسان إلى تأسيس وجدانه على المحبة التي سيجد مقامها في الأبدية، وليس على حياة جسمانية زائلة.

فإذا لم تمطر محبة القرآن الكريم على قلوبنا القاحلة مثل أمطار نيسان المليئة بالخير والبركة، فلا نحصل على موسم محمدي قوامه اللآلئ والجواهر النفيسة.

إن بساتين القلب تنتظر أمطار العمل الصالح مثل التراب العاشق للمطر. لأنه بهذه الأمطار تنمو وتزدهر بذور الخدمة، والشفقة، والرحمة، والمحبة تجاه المخلوقات من أجل الخالق. ويصبح الإنسان خلاصة كتاب الكون، والنسخة الكبرى للخلق. ويصبح الرب بصره الذي يبصره به، وسمعه الذي يسمع به. وتنتفع الأمة من يده، ولسانه، وقلبه.

وتعكس قصة عمر رضي الله عنه الواردة في المثنوي هذه الحالة بشكل جميل، وهذه القصة هي:



جاء رسول الروم إلى المدينة المنورة من أجل مسألة سياسية. ولما وصل المدينة سأل عن قصر عمر ﵁. فقال له الذين سألهم:

«ليس له قصر، ولعمر قصر واحد وهو الروح المضيئة بين جوانحه. ومع أن له صيتاً من الإمارة والخلافة بين العالم، إلا أنه كالدراويش لا يمتلك من الدنيا إلا كوخاً صغيراً. ولكن كيف لك أن ترى قصره المعنوي والروح أيها الأخ ما دام أن هناك شعرة واحدة في عين قلبك!..».

لما سمع رسول الروم هذا الكلام ارتسمت على محياه علامات الدهشة والاستغراب، وداخله فضول شديد للوقوف على حقيقة الأمر. فنزل عن فرسه، وترك الهدايا والأشياء التي جلبها معه، ثم أخذ يبحث عن عمر الفاروق ﵁. وصار يفتش في كل مكان ويسأل عنه كل من يصادفه، وهو يتمتم بينه وبين نفسه:

«أيوجد في الدنيا ملك مثل هذا الرجل، ويكون متخفياً عن أنظار الدنيا وكأنه الروح؟!..».

وظل يبحث حتى صادفته امرأة أعرابية، ودلته على عمر قائلة له:

«ذاك هو الخليفة الذي تبحث عنه، إنه هناك تحت ظل شجرة النخيل! كل الناس تنام على سرير، أو فراش إلا هو، فهو يفترش الرمل تحت ظل شجرة!..».



لقد أحاطت بالرسول هالة من الهيبة من رؤية عمر ﵁، وسرت إلى روحه حالة من الألفة. لقد استغرب الرسول من اتحاد الهيبة والمحبة في روحه على الرغم من أنهما خصلتان متناقضتان. فقال في نفسه:

«لقد قابلت الملوك والأباطرة والقياصرة، وكنت في حضرتهم عظيماً مقرباً! ولم تقع علي هيبة من الملوك ولم أهبهم، إلا أن هيبة ومحبة هذا الرجل سلبت لبي».

«هذا الخليفة نائم بلا سلاح، ولا حرس. ويرتعد جسدي كله أمامه! فما هذا الأمر، وما هذه الحال؟! إن هذه هي هيبة الحق وليست هيبة الخلق. إنها ليست هيبة هذا الرجل الذي يرتدي خرقة بالية!..».

وبينما كان هذا الرسول الرومي يمر بهذه المشاعر الروحية، استيقظ عمر ﵁ من نومه. فألقى عليه الرسول التحية والسلام، ورد عليه الخليفة التحية. ثم أنزل الرسول الذي كان يخفق قلبه ويكاد يقفز من صدره في قصره الروحي، وأمنه وطمأنه. فأصلح قلبه المحطم المنهار، وتحدث معه بكلام دقيق، ورقيق، وعميق مليء بالأسرار.

لقد شاهد الرسول الحال والمقام.

وتحول هذا الرسول الذي جاء إلى عمر ﵁ غريباً إلى حبيب. وغاب عن ذاته بلذة هذه الصحبة والحديث. فلم يبق في باله لا السفارة، ولا الرسالة التي جاء ليبلغها.



واستمر عمر ﷺ الذي سرت منه هذه الحالة إلى الرسول بحديثه بوجد مختلف. تحدث عن منازل الروح ورحلات النفس. استرسل بالحديث عما وراء الزمن، وعن المقامات العلوية لأولياء الله ذوي القدر والشأن السامي، وعن تحليق عنقاء الروح اللامحدود في قدومه إلى هذه الدنيا.

وفي النهاية أشرقت شمس الإيمان في قلب الرسول، فنطق الشهادة في حضرة الخليفة والتحق بقافلة السعادة.

C

يقول مولانا جلال الدين رحمه الله:

«كان عمر مرشداً كاملاً، والرسول طالباً مشتهياً متشوقاً لإدراك الحقيقة».

«ولما رأى ذلك المرشد المريد جديراً ومستعداً للإرشاد، غرس في أرضه الطاهرة بذور العرفان والتوحيد الطاهرة».

يُعرف الإنسان الصالح من نور الصلاح الذي يلمع في وجهه. وإن محياه ينشر في الأنحاء حالة من الطمأنينة والسكينة والتفاؤل.

وأما الفاسق فيُعرف أيضاً من العلامات المرتسمة على محياه، وتقدح منه شرارة القسوة والظلام.

إن نظرة العارفين تجذب القلوب المستعدة والمتشوقة إلى الأسرار والحكم والحقائق الإلهية كما يجذب المغناطيس براد



الحديد. وقوة نظرة العارفين هذه تستند على شكل سلسلة إلى رسول الله ﷺ.

C

ذات مرة زار محمد إقبال الذي يُعد المعماري المعنوي والروحي لباكستان بعض الحجيج العائدين من المدينة. وخلال الجلسة سألهم:

«لقد زرتم المدينة المنورة! فبأي الهدايا ملأتم قلوبكم من سوق المدينة الأخروي؟ إذ أن الهدايا المادية التي جلبتموها كالقبعات، والسبحات، وسجادات الصلاة سوف تهترئ وتبهت ألوانها بعد مدة من الزمن، ثم تُتلف وترمى. فهل جلبتم شيئاً من الهدايا الروحانية للمدينة المنورة والتي لا تتغير ألونها، وتبعث الحياة في القلوب؟

هل بين هداياكم صدق أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتسليمه؛ وعدالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ وحياء وكرم عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وحماس وجهاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه؟ هل يمكن أن تقدموا من قلوبكم لهذا العالم الإسلامي الذي يرزح تحت نير آلاف المشاكل والاضطرابات والمعاناة إحساساً واحداً من ذلك عصر؟».

يُعد محمد إقبال واحداً من كبار الشعراء والمفكرين المسلمين. وقد عاش حياته مهموماً وحزيناً على حالة الضياع والتشرذم والتشتت التي يمر بها العالم الإسلامي. وبذل جهوداً جبارة لإعادة



إحياء روح الإسلام، ونشر أَلَقها ونورها في المجتمعات المسلمة من جديد. ورد في الحديث الشريف:

«**مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له ضرتان، إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى**» [٩٠]

فكلما استجاب القلب لنداء الدنيا، ابتعد عن نداء الآخرة؛ وكلما زادت استجابته لنداء الآخرة، صار بعيداً عن نداء الدنيا.

يقول مولانا رحمه الله:

«إن قبلت أحد هذين الصوتين، فإنك لن تسمع الآخر! لأن المحب أعمى وأصم عن كل الأغيار ما عدا محبوبه».

«والوقوع في التردد، وقولك أأفعل هذا، أم هذا؟ يُعد سجناً للروح. ولا يدعها تذهب لأي مكان!».

«إن كلاً من حب الدنيا وحب الآخرة يشد الروح إليه. وكل واحد منهما يقول: إن طريقي هو الطريق المستقيم».

«وهذا التردد فخ على طريق الله. فما أسعد من لم تزل به القدم ولم يسقط فيه، أي الذي لم ينخدع بأهواء النفس ولم ينجر وراءها».

«يا أيها المتخبط الذي لا تعرف الطريق! إن كنت تريد أن تنجو بنفسك من هذا التردد، فابحث لك عن مرشد فاضل! إن كنت لا تريد أن تسير في الطريق تائهاً متحيراً، فاسلك طريق وليٍّ يقودك

٩٠ أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، جـ٤، ص٥١.



إلى جماليات لا توصف! وإلا فإنك من جهة سوف تظن أن كل بستان تراه من بعيد كتلة من نار، وتبقى محروماً من مشاهد الجمال؛ ومن جهة أخرى سوف تجري خلف السراب الذي تراه في صحراء الدنيا، إلا أن ذاك السراب الذي تظنه ماء الحياة ليس سوى رمل ملتهب يكوي حلقك!..».

«فإن كنت تريد النجاة من هذه الحال، فلا تضع قطن الغفلة في أذن قلبك! وأصغ إلى كلام أهل الحق، وكن قطمير طريق رسول الله ﷺ!».

إن قوافل المحبة التي ستفضي بهم الرحلة إلى يوم القيامة، ستجد المواساة والطمأنينة والسكينة بمحبته، وعشقه، ووجده، ودموعه الدافئة. يقول العاشق يونس أمره:

ليحترق العشق والعاشقون يا رسول الله!

لينهلوا من شراب العشق وليرتووا يا رسول الله!

اسق محبيك، واشفع لهم،

فإنك روح تلك الأبدان المؤمنة يا رسول الله!

صرت عاشقاً لذاك المعشوق، صرت بلبلاً لذاك البستان،

فلتحرق النار من لا يحبك يا رسول الله!

ما أسعد الذين يتأسون بشخصية رسول الله ﷺ النموذجية ومن عالمه الروحاني ويسرون نحو مقام الإحسان!..







هذه الليلة في الهند

«ممن نهرب؟ أمن أنفسنا؟! يا للخيال والمحال... وممن نُختطف ونختبئ؟ أمن الحق سبحانه؟ يا للوبال والوهم والضلال!..».

«ما هي الدنيا؟... الدنيا ليست الكساء، والمال، والتجارة، والنساء؛ وإنما الدنيا هي الغفلة عن الله!..».

مولانا جلال الدين الرومي



هذه الليلة في الهند

ذات يوم دخل رجل إلى قصر سليمان عليه السلام وقت الضحى وهو يهرول ويلهث. كان وجهه شاحباً وشفتاه مزرقتان من الخوف والفزع. فأخبر الحراس بأنه يريد لقاء سليمان عليه السلام ليكلمه في مسألة مصيرية، فأخذه الحراس فورًا إلى مجلس الملك سليمان. فسأل سليمان عليه السلام هذا الرجل:

- ما الأمر يا هذا؟ أخبرني ما بك؟ ولم ترتجف هكذا؟ هيا تكلم...

فقال الرجل بارتباك واضطراب شديد:

- لقد خرج عزرائيل عليه السلام في طريقي هذا الصباح. فنظر إلي نظرة تقطر غضباً، ثم ابتعد عني. فأدركت أنه قد قرر قبض روحي...

فقال له سليمان عليه السلام:

- وما الذي تريده مني الآن؟

فتوسل الرجل إليه قائلاً:

- يا حامي الأرواح، وملجأ المظلومين والمكروبين! أنت قادر على كل شيءٍ. فالذئاب، والطيور، والرياح، والجبال، والصخور طوع أمرك. فمُر الريح أن تحملني من هنا إلى الهند،



لعل عزرائيل يتيه عن أثري، فلا يجدني، وأنجو بروحي منه. فالمدد المدد أيها الملك!

تأثر سليمان عليه السلام بحال الرجل وتوسله، فنادى على الريح، وأمرها قائلاً:

- احملي هذا الرجل على وجه السرعة وخذيه إلى الهند!

فهبت الريح هبة قوية، ثم حملت الرجل وأخذته في لحظات إلى جزيرة نائية في المحيط في الهند.

وعند الظهيرة اجتمع سليمان عليه السلام مع رجاله وحاشيته. وفي هذه اللحظات حضر عزرائيل، فقال له سليمان عليه السلام:

- يا عزرائيل! لماذا نظرت في وقت الضحى اليوم إلى ذاك الرجل بحدة وغضب؟ لماذا تسببت بمفارقة ذاك المسكين لبيته خوفاً وفزعاً منك؟

فأجاب عزرائيل عليه السلام:

- يا ملك الدنيا المعظم! أنا لم أنظر إلى ذاك الرجل بحدة وغضب. وإنما نظرت إليه بتعجب وحيرة واستغراب. وهو أخطأ فهمي، وتوهم واختلط عليه الأمر. لقد دُهشت عندما رأيته أمامي هنا، لأن الله تعالى كان قد أمرني أن أقبض روح الرجل في الهند هذا المساء.

وأنا وقعت في حيرة من أمري، وقلت في نفسي: ما هذا الأمر العجيب! إن الرجل لن يكون هذا المساء في الهند ولو كان له مئة جناح. فهذا هو سبب نظرتي تلك إليه...



المثنوي:

«فممن نهرب؟ أمن أنفسنا؟! يا للخيال والمحال... وممن نُختطف ونختبئ؟ أمن الحق سبحانه؟ يا للوبال والوهم والضلال!».

«ما هي الدنيا؟ الدنيا ليست الكساء، والمال، والتجارة، والنساء؛ وإنما الدنيا هي الغفلة عن الله...».

وانطلاقاً من ذلك؛ يُعد إنشغالًا بالدنيا إفراطُ الإنسان في الرغبة بالجنة وطلبها والتطلع إليها، وكذلك إفراطه في التوجس والخوف من نار جهنم وانشغاله بكيفية الخلاص منها، وتحول ذلك إلى غاية بحد ذاته لدرجة تجعله بحالة غفلة عن الله تعالى. وقد تضرع يونس أمره إلى الحق ﷻ بسبب هذا الخطر المعنوي، حيث قال:

أعطي بعض القصور والحوريات لمن يطلبها،
ويقول الجنةأما أنا،
فأنت مرادي ومطلوبي!
لا أفرح بالغنى والثروة،
ولا أحزن على الفقر والعوز،
إنما العشق عزائي وسلواي
فأنت مرادي ومطلوبي!
الصوفيون بحاجة للصحبة والمجالسة،
والأسخياء لهم الجنة،
والمجانين بحاجة لليلى
وأما أنا؛ فأنت مرادي ومطلوبي!.



ولكي يبلغ العبد هذه الحالة فلا بد له من العمل على تزكية النفس، وتصفية القلب، وبذلك يرتقي. فيصبح القلب مركز تجمُّع للروحانية مستغرق بالنور الإلهي مثل عدسة المكبر التي تجمع أشعة الشمس وتركزها على نقطة واحدة، ويحرق كل ما سوى الله ويجعلها رماداً.

وهذه الحالة هي مرتبة القلب السليم. وبطبيعة الحال فإن القلب الذي سيلقى قبولاً حسناً عند الله تعالى هو مثل هذا القلب. حيث جاء في الآية القرآنية:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ. إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٩١]

ولكن بعض الناس غافلون عن هذه الحقيقة. فهذه هي الغفلة والدنيوية التي تصبح من خلال مغريات ومطامع مختلفة سبباً لهلاك العبد.

يقول مولانا رحمه الله:

«الخلق يهربون من الدروشة والفقر فيقعون فرائس في فخ الأهواء والرغبات والشهوات الدونية. فخوف الفقر يشبه ذلك الرعب والخوف (خوف ذلك الرجل من الموت)».

فما الكسب الذي يمكن أن يتضمنه الهرب من فضائل الدروشة والفرق في مستنقع الحرص والأهواء والشهوات؟

٩١ الشعراء: ٨٨- ٨٩.



يقول علي بن أبي طالب ﵁ عن ضعف الناس في هذا الخصوص بالرغم من الحقائق الموضحة آنفاً:

«يحرص الناس على صفاء الدنيا، وصفاء الدنيا ممزوج بالكدر».

C

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾[92]

إن تمهيد الأرض وتنظيمها وتهذيبها بعد المرور بعدة مراحل وأطوار، وجعلها شبيهةً مادياً ومعنوياً بمهد الطفل المجهز بكل شيءٍ أمر عجيب، ومشهد خلاب يأخذ بالألباب!

إن الدنيا التي تؤرجح البشرية مدة معينة من الزمن في عالم المتعة والصفاء، ثم تغرقها في نوم لا يقظة فيه إلا في الأبدية هي مهد العالم الفاني والباقي على حد سواء.

وقد زين مهد الدنيا من ناحية بالليل والنهار، والسحب والنجوم، ومختلف الألوان، وبتنوع الأقاليم المناخية والجغرافية؛ ومن ناحية أخرى جُهز بشتى أشكال المسرات والمآسي، والأفراح والأتراح.

وإن نهاية كل إنسان سواء استطاع النفوذ إلى أسرار الدنيا وحكمها وفنائها، أم لم يستطع؛ وسواء استشعر العظمة الأبدية أم لم يستشعر، هي النزول إلى القبر الذي يُعد مهد الآخرة.

---

٩٢ النبأ: ٦.



ثم سوف يوقظ الجميع في صباح المحشر ومعه ذكريات الدنيا والقبر.

لقد نظمت الدنيا بحياتها ومماتها على أن تكون مهد الآخرة بكل معنى الكلمة. يقول الشاعر:

يا ابن آدم أنت الذي ولدتك أمك باكياً ..
والناس حولك يضحكون سروراً.
فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا ..
في يوم موتك ضاحكاً مسروراً!.

والحق إن الإنسان من الناحية البدنية يقضي عمراً وهو يتأرجح ويهتز وكأنه في مهد، فهو في البدء كان في التراب على الأرض كعنصر من عناصر الطبيعة، ثم يقضي مدة وهو في صلب أبيه، ثم يقضي مدة متأرجحاً في بطن أمه وعلى ذراعيها، ثم بعدها يكون فترة من الزمن في قلب أبويه. وبعد ذلك يشيع من مهد الدنيا إلى مهد القبر ليسلك طريق الرحلة إلى يوم القيامة والآخرة.

منذ سنوات طويلة وهذه الدنيا الواسعة تتأرجح وتهتز حسب رياح القدر التي تهب على بني آدم، مثل مهد وضعت فيه فتاة صغيرة عرائسها وأخذت تهزه.

وفي الواقع؛ إن لم تكن الدنيا مجرد مهد صغير أمام أبدية الآخرة، فما تكون إذاً؟



فوا حسرتاه على من تقلبوا في أباطيل وترهات ولهو هذا المهد، وغرقوا بين أمواج الدنيا التي تقذف به يمنة وشمالاً دون أن يحققوا النضج والكمال الإيماني، فبقوا غافلين عن سر الحقيقة!

ونجد أبرز صور ومظاهر هذه الغفلة لدى جهلة قريش الأشقياء في مكة.

فقد كانوا ينظرون إلى النبي عليه الصلاة والسلام على أنه عبارة عن كتلة من لحم ودم مثلهم، ويقولون ساخرين مستهزئين:

«أيقدم هذا اليتيم الأمي علينا نحن السادة والأشراف في مكة؟! ويزعم أنه يأتيه خبر السماء... وأننا سنبعث بعد الموت!..».

وكان عمه أبو طالب يقول:

«إني لأعلم أن ما يقول ابن أخي حق، ولولا أخاف أن تعيرني نساء قريش لاتبعته».

هيهات أن ينتفع النيام من النيام!. إن مثل دنيا أهل الغفلة كمثل لعبة التخفي والاختباء التي يلعبها الأطفال الصغار بإغلاق أعينهم لا أكثر؟

لقد أدار أصحاب القلوب العمياء عن الحقيقة ظهورهم لطوق النجاة الذي ألقاه إليهم الأنبياء والأولياء لأنه يتعارض مع رغباتهم وشهواتهم النفسية والبهيمية. وحاولوا عمارة عالم خيالي بعيد عن الموت!



إنهم نتيجة حماقتهم المتمثلة برؤيتهم المتع والشهوات النفسية في هذه الدنيا المليئة بالقذارات سعادة، وإقبالهم عليها بنهم كما تقبل الذباب على الفضلات وتتغذى عليها بلذة ونشوة، يسيرون في هذه الدنيا ويعيشون فيها وكأنهم أموات يحملون أجسادهم، ثم يهلكون وينفقون كالأنعام. وسوف يأتي يوم على الطغاة والجبابرة وأهل الجشع والطمع الذين لا تعرف ظهورهم الأرض، يأتي يوم يستلقون فيه على التراب ويتحللون فيه...

إن الموت بالنسبة لمن نجوا بأنفسهم من ألاعيب الدنيا ودخلوا إلى إقليم القلب هو لحظة ولادة وإقبال على الحياة الحقيقية. الموت انتقال من عالم الظل إلى العالم الأصلي.

ووفقاً لما يروى عن سهل بن عبد الله أن:

«الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، فندموا. ولكن يوم لا ينفع الندم».

ولهذا فإن العارفين والصالحين يمضون عمرهم الذي يُعد عبارة عن أنفاس معدودة بالتسبيح والذكر، فيقتربون بذلك من الحقيقة. وينيرون أجسادهم بتعاليم موت مشترك ويحررونها من فنائيتها. وإن كل واحد منهم عندما يكون في مكان وفي نوم مختلف يصبح في تجلي مختلف.

إن تحويل كل ليلة لدورتها الزمنية إلى نهار يربطنا بفجر وردي جديد. وبمقتضى سنة الله في الكون يتحول الليل إلى نهار، والنهار



إلى الليل على الدوام دون خلل. وإن حقيقة مقولة "الحياة عبارة عن يومين وليلة" ربما تأتي بمعنى أن الدنيا العالم الفاني يوم؛ والقبر ليلة مؤقتة، وأما فجرها فيوم الآخرة، صباح الحقيقة الأبدي.

أليست رؤية الحياة على أنها دورة الليل والنهار لوحة أخرى مختلفة تحمل العبرة والعظة؟

إذ لو كان يجب الخوف والهرب من الموت، لوجب أن نرتعد خوفاً وهلعاً عندما يقترب المساء. في حين أننا عندما نغوص في أسرار الليالي لا نشعر بالخوف في داخلنا. لأن حلول الصباح سنة من سنن طبيعة الخلق، وتنظيم إلهي.

وعلى ذلك فينبغي أيضاً النظر إلى الاستيقاظ والنهوض من حضن الموت على صباح الحقيقة على أنه أمر طبيعي.

تشير الآية القرآنية بشكل جميل إلى أن كل لحظة تمر من شريط الزمن تقربنا إلى صباح الحقيقة أكثر، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[٩٣]

يرى أهل الحكمة أن الدنيا بالنسبة للعقلاء تأمل وتفكر بالتجليات، والتنظيم، والصنعة الإلهية للاتعاظ والاعتبار، وأما بالنسبة للحمقى والمغفلين فهي عبارة عن طعام وشراب وشهوة.

٩٣ يس: ٦٨.



فإلى أي مدى تتلاءم لامبالاة الإنسان تجاه أيام خريفه، وعواصف أجله، وتقويم عمره الذي يندفع كعربة انفجرت مكابحها، ونظره إلى هذا العالم بنظرة بلهاء عبثية وكأنه تمثال، وطرقه بقبضه على أبواب حديدية في سبيل أهوائه وشهواته الفانية، وخوفه وهروبه من اللغز التراب الذي سيدخل في حضنه يوماً، وجريه خلف حياة مادية متوحشة مع الشرف والكرامة الإنسانية؟

أليس مقام الإنسان الذي يُعد خلاصة كتاب الكون، وفاتحته، وتجلي كل الأسماء الإلهية، أليس مقامه في هذا النظام هو التغذي بالغذاء الروحاني والمعنوي ليكون النسخة الكبرى والزبدة الكاملة للخليقة؟

أليس الكفن الذي يُعد الثوب الأساس والأصيل في سوق الحياة، هو الذي يضع نقطة النهاية لكل الصفقات الفانية؟

ألا يُعد من يعيش الحياة الدنيا التي تمرّ كسحابة صيف دون التفكير بالآخرة وأخذها بالحسبان، كمن يعتبر النهار بلا ليل؟

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[٩٤]

---

٩٤ فاطر: ٥.



ونترك القول الأخير لمولانا رحمه الله، حيث يقول:

«لا تفرط في تغذية البدن ورعايته وتنميته، لأنه في النهاية قربان يُقدم إلى التراب. وإنما التفت إلى القلب وقم على تغذيته! فهو الذي سوف يصعد إلى الحق وينال التشريف والتكريم...».

«أقلل من إعطاء اللذائذ من الطعام والشراب لجسدك. فالذي يغذي بدنه يقع ضحية بين براثن أهوائه ورغباته النفسية، ثم يلقى مصيراً وخيماً».

«أعط الأغذية المعنوية للروح. قدم الأغذية الروحية، والفهم الدقيق والناضج حتى إذا ذهبت إلى المكان الذي أنت متجه إليه، ذهبت قوياً نشيطاً!».

يا رب! لا تجعلنا في هذا العالم الفاني من أتباع النفس! ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين! واشرح لنا صدورنا، واملأ قلوبنا بالنور في بحر الحقيقة!.. آمين!.

E





الكون، والقرآن، والإنسان

«كنت أسير ذات يوم كالمشتاق حتى أرى في البشر أنوار الحبيب (التي في داخلي). حتى أرى بحراً (قد تجلى) في قطرة، وحتى أرى شمساً قد اختفت في ذرة».

«لقد خُلِقَ هذا العالم والإنسان حتى لا تبقى كنوز وخزائن الحكمة والأسرار مدفونة ومخفية».

مولانا جلال الدين الرومي



لم يكن شيءٌ موجوداً في الأزل سوى الله وحده، ثم تعلقت إرادته بالتعريف بالكائن المشرف السامي وهو الإنسان فأوجد عالم الكثرة هذا بتجلي صفاته القدسية.

إن صفات الله تعالى المعروفة والمشهورة هي تسع وتسعون، ولكن في الحقيقة فإن عدد صفاته يفوق بكثير هذا العدد الذي نعرفه. وتنقسم هذه الصفات من حيث العلم بها إلى عدة أقسام. فأما أحدها فلا يعلم به إلا الله تعالى، إذ حجبه عن خلقه، وأما القسم الآخر فقد أطلع عليه الأنبياء والرسل دون غيرهم من البشر. وبقي هذا العلم محصوراً بهم. وهناك قسم آخر يعرفه العلماء الربانيون، حيث يطلع هؤلاء العلماء على الكثير من الصفات الإلهية خارج تلك التسعة والتسعين المعروفة.

هناك ثلاثة أماكن تتجلى فيها هذه الصفات الإلهية المعروفة والمجهولة، وهي:

أ- الكون.

ب- القرآن الكريم.

ج- الإنسان.



فأما الكون فهو المظهر الفعلي للصفات الإلهية، وأما القرآن الكريم فهو المظهر الكلامي لها. وفي الحقيقة؛ فإن القرآن الكريم يحتوي على الكمالات، والحقائق، والأسرار التي سوف يظل البشر يكتشفها ويتوصل إليها ويهتدوا بها حتى يوم القيامة. ويُعد القرآن من هذه الناحية معجزة لا مثيل لها ولا يمكن تقليدها أو الإتيان بشبيه لها أبداً. فقد جاء في الآية القرآنية:

﴿... وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٩٥]

ويمكن القول بعبارة أخرى: إن القرآن الكريم كونٌ بصورة كلام. وأما الإنسان؛ فإنه بمثابة جوهر الكون، ولبه وبذرته. وذلك لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد من جميع الكائنات الذي نال حظاً من كافة أسماء (صفات) الله تعالى!. ولهذا تحتوي فطرة الإنسان على استعداد وميل نحو الخير والشر، والإيمان والكفر على حد سواء.

يُعد الإيمان تكليفاً من الرب لعباده. وتكون قدرة العبد وتميزه حسب التفوق والغلبة الحاصلة في تجلي الصفات الإلهية أو حسب التجلي المهيمن والحاكم. ويشبه الأمر حقيقة مزج العديد من الألوان والأصبغة مع بعضها والحصول منها على لون واحد. فاللون المهيمن يكون أكثر تأثيراً على النتيجة. لقد تجلت كافة صفات الله في الإنسان، لذا فهو يُعد صورة مصغرة عن الكون، ومن

٩٥ الأنعام: ٥٩.



هنا يُطلق على الإنسان اسم «العالم الأصغر». فقد تركزت في بنيته التي هي عبارة عن لحم وعظام أسرارٌ، وأنوار، وحقائق التجليات الإلهية. فهو مظهر الألطاف، ومعجزة الصنع الإلهي. وهو عالم مخفي. وهو خلاصة كتاب الكون وفاتحته.

إن الحق سبحان وتعالى «جامع الأضداد». أي جمع في ذاته العلية الأضداد والمتناقضات. ونحن أيضاً لا نستطيع إدراك وفهم طبيعة الأشياء، والوقائع، والحوادث إلا من خلال الأضداد. فلكي نعرف الخير يجب أن نعرف الشر، ولنعرف الحسن لا بد من معرفة القبح، ولنعرف المستقيم لا بد أن نعرف الاعوجاج، ولنحصّل الإيمان لا بد أن نعرف الكفر. فهذه القيم تُعرف وتُدرك بأضدادها.

إن رحلة ومغامرة الإيمان والكفر لدى جميع الناس تسير بين صفتي الله تعالى «الهادي» و«المضل». ولكن لأن النتيجة مرتبطة بالتفوق والغلبة الحاصلة في تجلي الصفات الإلهية، فإن الشخصية تتشكل وتتحقق وفقاً للتجلي المهيمن. وكذلك الأمر بالنسبة لتجلي الصفات الأخرى، فهو مثل هذا الذي ذكرناه.

وإن الفروقات الذاتية القائمة بين الأنبياء والأولياء تعود إلى أسرار الأسماء الإلهية التي تتجلى بشكل مختلف.

فوظائف الأنبياء وصلاحياتهم ومهامهم وتكاليفهم ما عدا مسألة عقيدة التوحيد ليست ذاتها. فمثلاً، كان موسى عليه السلام قد أمر بتأسيس نظام عالمي. ولهذا فإن حياته كانت تعج بالمصاعب،



والمشاق، والشدائد. وكذلك فإن الصفة المميزة في مهمة ووظيفة نبي بني إسرائيل عيسى عليه السلام كانت تربية النفس. لأنه سمي بصفة «روح الله».

وأما نبينا وحبينا محمد عليه الصلاة والسلام فقد اجتمعت فيه أكمل تجليات الأسماء الإلهية، وصار «سيد الكون». فعلى الرغم من نشوئه بين الجاهلين في مجتمع أمي بعيد عن العلوم ومظاهر الحضارة فإنه أصبح رحمة للإنسانية وللكون أجمع إلى يوم القيامة من خلال تكوينه أمة عظيمة مزودة بالحقائق، والمعارف، والعلوم اللدنية؛ ومجالسه التي كانت بستاناً مزيناً بالمشاعر والأحاسيس الرقيقة التي لا مثيل لها، ودروس الحقيقة التي كان يلقيها على أصحابه وعن طريقهم على الناس جميعاً.

إن الأنبياء والرسل بُعثوا في مراحل وفترات زمنية معينة، ولكن سلسلة الأولياء والعلماء الذي ساروا على آثارهم، وكانوا قدوة ومثلاً لمجتمعاتهم كانت مستمرة دون انقطاع، وسوف تبقى متواصلة إلى يوم القيامة.

C

يقدم مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله في موضع بيانه وتوضيحه التجليات التي تختلف من إنسان إلى إنسان، أمثلة من الدقوقي، فيقول:



«قال الدقوقي:

كنت أسير ذات يوم كالمشتاق حتى أرى في البشر أنوار الحبيب (التي في داخلي)».

«حتى أرى بحراً (قد تجلى) في قطرة، وحتى أرى شمساً قد اختفت في ذرة».

«وعندما وصلت بخطى العقل والروح إلى ساحل، كانت الشمس قد أذنت بالمغيب، وحل المساء».

ثم يتحول مولانا رحمه الله إلى المجاز ويتابع القصة:

«فرأيت فجأة في البعيد سبعاً من الشموع على ذلك الساحل فأسرعت إليها».

«وكان نور كل شمعة منها قد ارتفع إلى عنان السماء».

«فاحترت حيرة شديدة، وزادت حيرتي حيرة! وتجاوزت أمواج الحيرة قمة العقل فسلبتني إياه!».

«فقلت في نفسي:

أنى لهذه الشموع الاشتعال والإنارة، وقد أعرضت عنها عيون الخلق؟ صار الخلق باحثين عن مصباح في وجود هذه الشموع التي كان نورها يفوق نور القمر! فهل هناك حجاب على عقول الخلق أعمت أبصارهم عن رؤية هذه الحقيقة، وعجزوا عن رؤية هذا القمر والبدر المنير؟».



يقول شارح المثنوي الشيخ إسماعيل الأنقراوي:

«إن المقصود بالشموع السبعة هو أولياء الله السبعة المعروفون بمصطلح «السبعة». وكان الدقوقي قد رأى نورانيتهم وروحانيتهم قبل رؤية جسمانيتهم. لأنه يوجد بين عالم الدنيا وعالم الآخرة ما يُعرف بـِ «عالم المثال». فلكل شيءٍ موجود في الدنيا مثال هناك. وذاك المثال يُشاهد في الأبدية بصورة مختلفة. وإن أغلب الأحلام التي يراها الإنسان في نومه هي من عالم المثال هذا. وإن بإمكان الصالحين والصادقين الدخول إلى ذاك العالم في الرؤيا؛ وأما خواص الأمة، أي المرشدون الكاملون فيدخلونه في حالة اليقظة».

ويتابع مولانا رحمه الله سرد كلام الدقوقي:

«فتقدمت مسرعاً وأخذت أشاهد هذه الشموع قائلاً: هل هي تجليات نور الحق سبحانه الذي يأخذ بالألباب؟».

«وأثناء ذلك سقطت فترةً من الزمن على الأرض مغشياً، بلا وعي ولا عقل».

«ثم عدت إلى وعيي، فنهضت أجد في السير كأنه لا رأس لي ولا قدم».

«فبدت تلك الشموع السبعة الرجال السبعة أمام النظر، وأنوارهم كانت تسطع حتى قبة السماء».



«وبدا ضوء الشمس في النهار أمام هذه الأنوار كدراً، فكانت أنوار الرجال السبعة تمحو كل الأنوار من شدة تألقها».

فهذه نتائج للتجليات المختلفة.

يعرض مولانا رحمه الله حال من يكون مظهراً للألطاف والتجليات الإلهية بقوله:

«إن ما يدركه ذاك الإنسان بنظرة في هذه الحال يعجز اللسان عن بيانه في سنوات طويلة! وإن ما يحس ويشعر به لحظة في الباطن لا يفهمه الأذن وإن استمع إليه لسنوات».

«فيا أيها السالك! توجه أنت أيضاً للتعمق الروحي! واعزم على أن تجد كل شيءٍ في ذاتك! فأنت جامع الكون الذي أعجز عن الثناء عليه بما يليق به».

لا مناص للإنسان في هذه الدنيا من الالتزام خلال مسيرة حياته بأوامر الله تعالى واجتناب نواهيه. فعاقبة الذين يحيون حياتهم بغايات دنيوية، وينساقون وراء أهواء وشهوات ورعونات أنفسهم الشقاء والتعاسة الأبدية في الآخرة.

ولهذا فإن الجن والإنس على حدٍّ سواء بحاجة شديدة إلى الأنبياء وورثتهم الذين يسيرون على نهجهم وآثارهم، أي المرشدين الكاملين. فلا يمكن بلوغ الحقيقة إلا من خلال هذه الشخصيات النموذجية والمثالية. إذ أنهم في هذه الدنيا مُثُل الفضيلة والحقيقة



الذين لا يُعلى عليهم. فجعل غاية الحياة متوافقة مع طراز حياتهم وسلوكهم ينتهي بالتخلق بالأخلاق القرآنية، أي التخلق بأخلاق الله ﷻ.

ما يدعو للاستغراب والاندهاش في هذه الدنيا أننا نجد بعض الناس يسارعون إلى الأطباء عندما يصيبهم مرض مادي، ولا يترددون في دفع أجرة التطبيب وإن كانت مبلغاً كبيراً. ولكن في الوقت ذاته نجدهم إذا ما أصيبوا بأمراض أخلاقية والتي تعتبر مرضاً معنوياً يمتنعون عن مراجعة المرشدين الكاملين لتلقي العلاج على أيديهم بالرغم من أنه مجاني دون مقابل.

يوضح مولانا رحمه الله الفرق بين الأطباء المعنويين والأطباء الماديين بقوله:

«إن أطباء الظاهر مختلفون، فهم ينظرون إلى القلب من خلال النبض. وأما المرشدون الكاملون فإنهم ينظرون إلى القلب دون الالتفاف إلى النبض. وإنهم يتميزون عن الأطباء الماديين بالفراسة والأسرار التي منحهم الله تعالى إياها. إن أطباء الظاهر ليسوا سوى أطباء الغذاء والدواء، ولا تعالج بالأغذية والأدوية المادية إلا الروح الحيوانية، أي أنها معالجة جسدية. ومعلوم أن الجسد سوف يفنى في التراب».

«وأما الأطباء المعنويون فإنهم مرايا ينعكس عليهم نور جلال وعظمة الله تعالى. ولهذا فإنهم يزيحون العوائق التي تمنع من



السير إلى الله. وإن أدلتهم هي الكشف، والإلهام والسر الإلهي. ولا يطلبون أجرة على معالجتهم لمرضاهم أبداً».

C

نورد فيما يأتي مثالاً فيه عبرة وعظة عن النبي عليه الصلاة والسلام:

كان أبو سفيان صديقاً للنبي عليه الصلاة والسلام قبل النبوة. وبعد النبوة ناصب رسول الله ﷺ العداء وكان ينظم شعراً يهجوه فيه. وكان شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضي الله عنه يرد على هجائه. وبعد فتح مكة انضم أبو سفيان من خلال العباس رضي الله عنه إلى قافلة الإيمان، وندم على ما فعل. ثم اعتذر من رسول الله ﷺ بالآية التي علمه إياها علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقرأ رسول الله ﷺ الذي كان بحر الرحمة والشفقة قول الله تعالى:

﴿... لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٩٦]

وعفا عنه وعن غيره من أهل مكة عما اقترفوه بحقه من قبل. وهكذا فقد شهد فتح مكة مظهر عفو لم يرى له مثيل في التاريخ البشري. وتُعد هذه الحالة أجمل تجلٍ لصفة الله تعالى الستار في العبد.

٩٦ يوسف: ٩٢.



يقول الشاعر ضياء باشا مستلهماً من هذه الحادثة:

ستُنطِق قدرة المولى الظالمين ذات يوم، ليقولوا:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا...﴾[٩٧]

C

ورد في الحديث النبوي الشريف:

«... فإن الله خلق آدم على صورته» [٩٨]

أي أن الإنسان مظهر لكل الأسماء الإلهية. فهو مرآة لكل أفعال وصفات الله تعالى، أي مكان تنعكس عليه.

يبين مولانا أن حكمة الخلق مختلفة من خلال قصة عن سيدنا موسى عليه السلام، فيقول:

«قال موسى عليه السلام: يا مالك الملك، يا إله الحساب! لقد صورت الكون والإنسان بأبهى وأجمل صور، فلم هدمت ما قد صورته ثانية؟! لقد صورت الذكر والأنثى في صورة تشرح الصدور ولم تلبث أن أهلكتهم، فلماذا؟

فقال الحق سبحانه وتعالى: يا موسى! إنني أعلم أن هذا السؤال منك ليس دافعه الإنكار، والغفلة، والهوى. وإلا لقمت بتأديبك وعقابك، ولقمت بإيذائك جراء هذا السؤال. لكنك تريد أن تبحث

٩٧ يوسف: ٩١.

٩٨ مسلم، البر، ١١٥/ ٢٦١٢.



عن الحكمة في أفعالنا، وتريد أن تصل إلى سر البقاء، والخلق ليطمئن قلبك.

ثم قال الله تعالى: يا موسى، يا ذا اللباب! ما دمت قد سألت، فتعال واسمع الجواب، واعرف الحكمة!.ديا موسى! ازرع بذرة في باطن الأرض حتى تصل بنفسك إلى الجواب في هذا الأمر!.

وعندما زرع موسى، ونمت زراعته، واستوت سنابلها طيبة جنية، تناول المنجل وطفق يحصدها. فبلغ إلى مسامعه نداء من الغيب:

يا موسى! لماذا تقوم بالغراس وترعى زرعك، ثم تقوم بقطعه وحصاده عندما يكتمل؟!.

فقال موسى عليه السلام: يا إلهي! إنني أقطع وأحصد وأدرس، ذلك لأن الحصاد يحتوي على الحبوب والتبن. والحبوب لا تليق بمخزن التبن، كما أن وجود التبن في مخزن القمح من قبيل الفساد. ولا يكون من الحكمة أن يوضعا معاً، بل ينبغي أن يفصل كل منهما عن الآخر عند الغربلة.

فقال الحق سبحانه وتعالى: يا موسى! من أين وجدت هذه المعرفة، حتى أمْلَت عليك حكمتك أن تقيم بيدراً؟!.

فقال موسى عليه السلام: يا رب! لقد وهبتني أنت معرفة التمييز، أليست تجلياً للأسماء الإلهية؟.



إن هناك من بين الخلائق أرواحاً طاهرة، كما أن من بينها أرواحاً كدرة علاها الطين.

وهذه الأصداف «الأجساد» ليست كلها في مرتبة واحدة، فبعضها يحتوي الدر، وبعضها الآخر ليس فيه إلا سبه«حجر أسود لا قيمة له».

ومن الواجب أن تفصل بين هذا الصالح والطالح، من الواجب التمييز بين الخصال الحميدة والقبيحة، وتربية وتزكية السفلية منها، مثلما تقوم بفصل القمح عن التبن.

يقول مولانا رحمه الله:

«لقد خلق هذا العالم والإنسان من أجل إظهار هذه الحكم، حتى لا تبقى كنوز وخزائن الحكمة والأسرار مدفونة ومخفية».

«فالله تعالى يقول: كنتُ كنزاً مخفياً. فأردت أن أُعرف، فخلقت المخلوقات. فاسمع هذا، ولا تضيع جوهرك، واعرف حكمة خلقك، أي عليك أن تبلغ العبودية وتصل إلى الحق سبحانه!».

C

يا أيها الإنسان! ها هي ذرة في الكون، وكل حرف في القرآن، وكل خلية في الإنسان تعبر بلسانها الخاص أنها لم تُخلق عبثاً وسدى! فهل بعد هذا ستبقى في سباتك وغفلتك، ولن تستيقظ لتسلك طريقاً يليق بالكمال الكامن في خلقك؟.



ينبغي الإصغاء بالقلب إلى قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[٩٩]

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١٠٠]

يا رب! أكرمنا بنصيب مما تحتويه هاتان الآيتان الكريمتان!..

آمين!.

E

---

٩٩ آل عمران: ١٩٠.

١٠٠ آل عمران: ١٩١.





ترجمة الحق

«اصمت، واسمع الأسرار التي لا تستطيع فهمها وتفسيرها من العارفين الذين يفهمونها ويعرفون تفسيرها».

«أغلق فمك، ولا تنبس بأي كلمة، وتوجه إلى الإنسان الكامل شمس الحقيقة!..».

«ليعلمك ويحدثك بكلام لم يرد في كتاب، ولم يسمع به أحد! لا تتكلم أنت، وإنما لتحدثك الروح بتلك الحقائق!..».

«دعك من السباحة طالما أن سفينة نوح موجودة!».

مولانا جلال الدين الرومي



إن أحد أسماء الله ﷻ المباركة «الحق». وبمقتضى هذه الصفة الإلهية فإن الملك والسيادة والحاكمية المطلقة منحصرة به وحده.

ومن لا يقبل بهذه الحاكمية والسيادة المطلقة للحق ﷻ فإنه سوف يتعرض عاجلاً أو آجلاً لانتقام وعقاب شديد، ويُلقى به في هاوية المذلة والهوان. فالالتجاء إلى الحق والالتزام به عزة وشرف للعبد؛ وأما الإعراض عن الحق وجحود الحق، واتباع النفس فمذلة وخسران.

إن الإنسان مخلوق في أحسن تقويم لذلك فقد أخضعت له كافة المخلوقات وجعلت طوع أمره بمشيئة إلهية. وهذا الأمر شرَّفه، وأكسبه تفوقاً وجملة من الحقوق المتميزة. وباعتباره خليفة الله في الأرض فإنه مكلف بالتصرف بعدالة ورحمة تجاه كافة المخلوقات. وإن مسؤوليته مختلفة عن سائر المخلوقات، حيث أن الحيوانات مثلاً تُحضر في الآخرة للمحاكمة بشأن الحقوق، ثم يقال لها «كوني تراباً!»؛ بينما الأمر يختلف بالنسبة للإنسان، إذ يُسجل عليه إخلاله بحقوق الحيوانات وسوف يحاسب ويعاقب عليها يوم القيامة.

C

إن أكثر من نصف آيات القرآن الكريم تنقل لنا الأحداث التي جرت في حياة الأمم والأقوام السابقة والتي تحتوي على



العبر والعظات. فهي تعرض العواقب الوخيمة والحزينة للذين هلكوا بالكفر والعصيان مقابل الذين صاروا أوابد شامخة بنضالهم وجهادهم في سبيل التوحيد كعبرة لأولي العقول والألباب.

إن الذين لا يدركون الحقائق الغيبية لما بعد الموت في حالة عجز، وبحاجة إلى إرشاد ولسان من يعلم الغيب. ويقوم بهذه الوظيفة الأنبياء والرسل وهم العباد المكلفون بها بصورة خاصة:

فقد نال شرف ترجمة هذا العالم الغيبي كل الأنبياء والرسل، ومنهم:

سيدنا **آدم** عليه السلام الذي أمرت الملائكة بالسجود له،

وسيدنا **إدريس** عليه السلام الذي حمل أسرار الإعجاب والاستحسان السماوي،

وسيدنا **نوح** عليه السلام الذي بطوفانه طهرت الأرض من الكفر،

وسيدنا **هود** عليه السلام الذي دمر ديار الإنكار والمنكرين بالعواصف الهوجاء وريح صرصر جعلت عاليها سافلها،

وسيدنا **صالح** عليه السلام الذي هز عروش الجبابرة والطغاة بالزلازل والرجفة،

وسيدنا **إبراهيم** عليه السلام الذي حول نيران نمرود إلى بستان بتسليمه وتوكله،



وسيدنا **إسماعيل** عليه السلام الذي أصبح رمزاً بصدقه، وإخلاصه، وتوكله، وتسليمه، والذي ستُذكر قصته على مسامع جميع المؤمنين في عبادة الحج إلى يوم القيامة،

وسيدنا **إسحاق** عليه السلام الذي جاء من نسله أنبياء بني إسرائيل،

وسيدنا **لوط** عليه السلام النبي الحزين ل «سدوم - عمورة» التي ابتلعتها الأرض بمن فيها من الطغاة والبغاة الذين غرقوا في الفواحش والفساد الأخلاقي،

وسيدنا **ذو القرنين** عليه السلام الذي حمل راية التوحيد من المشرق إلى المغرب،

وسيدنا **يعقوب** عليه السلام الذي اكتوى بنار المحبة والشوق وصار آبدة من أوابد الصبر،

وسيدنا **يوسف** عليه السلام الذي صار سلطان مصر والقلوب، وأخمد بنوره نور البدور بعد تعرضه للعبودية فترة من الزمن، ثم معاناته في السجن الوحدة، والغربة، والألم والاضطراب، والمشقة، واتباعه فيه الرياضة الروحية ومجاهدة النفس،

وسيدنا **شعيب** عليه السلام الذي نال بأسلوب خطابه البليغ الذي يبعث في القلوب الوجد لقب «خطيب الأنبياء»،

وسيدنا **موسى** عليه السلام صاحب العصا المعجزة التي أغرقت فرعون الطاغي الأحمق في مياه البحر الأحمر،



وسيدنا **هارون** عليه السلام الأخ الصالح الذي كان عوناً وسنداً لأخيه موسى عليه السلام في كل مكان وزمان،

وسيدنا **الخضر** عليه السلام الذي علم موسى عليه السلام الأسرار الإلهية،

وسيدنا **داوود** عليه السلام الذي كان بذكره تخشع وتستغرق الجبال، والحجارة، والوحوش،

وسيدنا **سليمان** عليه السلام الذي أبقى ملكه العظيم خارج قلبه،

وسيدنا **عزير** عليه السلام الذي بُعث بعد مئة عام من الموت ليكون مثالاً على البعث من جديد يوم القيامة،

وسيدنا **أيوب** عليه السلام الذي صار رمز الصبر بتحمله وعمق تفكره وتأمله،

وسيدنا **يونس** عليه السلام الذي تغلب على الظلمات بتعمقه في حقيقة الاستغفار، والدعاء والتضرع، والذكر بحالة وجد عظيمة،

وسيدنا **إلياس** عليه السلام الذي صار مظهراً للإطراء والرضا الإلهي بخطاب «سلام على إلياس»،

وسيدنا **أليسع** عليه السلام الذي فضل على العالمين،

وسيدنا **ذو الكفل** عليه السلام الذي أغرق بالرحمة الإلهية،

وسيدنا **لقمان الحكيم** عليه السلام شيخ حكماء الظاهر والباطن والذي صار أسطورة بوصاياه الحكيمة،

وسيدنا **زكريا** عليه السلام النبي المظلوم الذي حافظ على توكله وتسليمه، ولم يتأوه حتى عندما قطع جسده الطاهر بالمنشار إلى نصفين،



وسيدنا **يحيى** عليه السلام الذي استشهد مثل أبيه،

وسيدنا **عيسى** عليه السلام السماوي المتميز بتزكية النفس، والذي كان بالتجائه وتضرعه يفشي المرضى، ويحيي الموتى،

وفي الخاتمة سيدنا **محمد المصطفى** صلى الله عليه وسلم الذين أيقظ العالم من سباته وأنار درب الإنسانية من غار حراء.

إن هذه الوظيفة الإلهية التي قام بها الأنبياء بحياتهم الفانية لم تنته بخروجهم من ساحة هذه الدنيا وانتقالهم إلى جوار ربهم، وإنما سوف تستمر إلى يوم القيامة على يد العلماء والمشايخ المباركين الذين هم ورثة أولئك الأنبياء.

إن أحوج ما يحتاجه الإنسان هو أن يرى بعين قلبه، ويسمع بأذن قلبه. لأنه وفقاً لما جاء في القرآن الكريم أن الصم والعمي قلبياً محرومون في الدنيا والآخرة.

حيث يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة النمل:

﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ. وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾[١٠١]

C

١٠١ النمل: ٨٠– ٨١.



إن تاريخ الكفر، والظلم، والعصيان، والطغيان مليء بأمثلة رهيبة ومروعة للانتقام والغضب الإلهي. فتعرض العصاة الذين يخالفون الطريق المستقيم الذي بينه الله ورسله لتجليات القدرة والجبروت والعذاب الإلهي الشديد سواء عاجلاً أم آجلاً قانون إلهي ثابت لا مفر منه، ولا يتغير أبداً.

ويستعرض لنا مولانا رحمه الله مشاهد معبرة في بعض أبياته، حيث يقول:

«ألم تر ماذا فعلت الريح الصرصر بقوم عاد؟ ألم تسمع ماذا فعلت المياه والطوفان؟».

«ألم تعلموا كيف أهلك ذاك البحر الهائج (البحر الأحمر) فرعون؛ وكيف ابتلعت الأرض قارون!..».

«ألم تروا ماذا فعلت طيور الأبابيل بجيش الفيلة، وكيف التهمت بعوضة صغيرة حقيرة رأس نمرود الذي ادعى الألوهية!..».

«ألم تعلموا كيف أمطرت الحجارة على قوم لوط الذين أتوا الفواحش، وكيف غرقوا في المياه في الظلمات؟!..».

«لو أردت التحدث بإسهاب عن العون الذي قدمته الكائنات الصامتة في هذه الدنيا التي يُعتقد أنها بلا روح (الجمادات) للأنبياء وكأنها بشر عاقلون... فإن حجم المثنوي سوف يكبر ويتضخم حتى يعجز عن حمله أربعون ناقة».



«إذا أمرت عينك بمجافاتك فإنها سوف تنتقم منك بمئات الأشكال».

«وإذا أمرت أسنانك بإيلامك واضطرابك، فإنك لن تتحمل آلامها وعذابها».

«افتح كتاب الطب واقرأ بحث الأمراض! وانظر ماذا تفعل جنود البدن!».

«فما دام روح أرواح كل شيءٍ هو الله تعالى؛ فاخش إذاً من معاداة روح الأرواح! واتبع أمره!».

كأن صفحات التاريخ المليئة بالعبر مقابر الأمم.

يُعد انعدام الإيمان، والفساد الأخلاقي، والظلم من أهم وأجلى أسباب هلاك الأمم واندثارها. وإن «سكرات موت» الأقوام الظالمة والملحدة البعيدة عن الإيمان تُعد لوحة انتقام وعذاب إلهي مريع ورهيب. فمدينة بومبي تقدم لنا اليوم على الرغم من مضي أكثر من ألف وتسعمئة سنة عليها لوحات تحمل الكثير من العبر والعظات، فهي تشير إلى أناس كأنهم رجموا نتيجة لانغماسهم في الرذيلة والفواحش. كأن ما في هذه اللوحات أشباح أناس تحولوا إلى حيوانات!..

إن الذين لا يرون حقيقة هذه التجليات المليئة بالعبر، وينظرون إلى الحوادث بمشاعر نفسانية عبارة عن هياكل في صورة بشر لأنهم بلهاء ومغفلون محرومون من الإدراك.



فتلك القصور الفارهة المنحوتة من الحجر والمرمر العائدة لقوم عاد وثمود الذين ظنوا بأن الدنيا عرش سعادتهم ومتعتهم، ومدينة سدوم، عمورة مكان الأشقياء البغاة، وأهل الرذيلة والفواحش الذين ابتلعتهم الأرض، ظنوا أنها عرش سعادتهم ومتعتهم، وألّهوا أهواءهم وشهواتهم، تلك القصور لا يجول فيها اليوم إلا الخفافيش!.. يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[١٠٢]

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[١٠٣]

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[١٠٤]

فالذي يكون إنساناً صورة، وسيرة؛ أي مادياً ومعنوياً يكون من أصحاب الجنة. وأما الذي يكون إنساناً صورة «مادياً»، وحيواناً سيرةً «معنوياً» فهو من أصحاب النار.

١٠٢ مريم: ٩٨.
١٠٣ الأعراف: ١٧٩.
١٠٤ الحشر: ٢٠.

يظن أصحاب النار بأنهم ذوو وعي وحنكة ويقظة. والحال أنهم فقراء السعادة ولم يتذوقوا لذة الحق.

وأما الذي يكون إنساناً مادياً ومعنوياً فإنه يكون متيقظ القلب حتى في النوم. حيث يقول النبي عليه الصلام والسلام:

«**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي...**»[١٠٥]

C

تعد الحالة التي نوردها فيما يأتي للسلطان ألب أرسلان رجل الدولة الذي وصل إلى مقام العباد الصالحين الذين يملأ الرب قلوبهم، ويرون ويسمعون بنور ربهم، تُعد خير مثال على الحقيقة التي ذكرناها آنفاً:

ارتدى السلطان ألب أرسلان ثوباً أبيض قبل الدخول إلى ميدان معركة ملاذكرد ١٠٧١، وقال:

-إن قتلت فهذا كفني!.

أي أنه أعد نفسه للشهادة بحالة من الحماس الإيماني، وليس لنيل شهرة دنيوية. وإن إخلاصه مكنه من الانتصار على الإمبراطور الروماني رومانوس ديوجينس الذي كان يمتلك جيشاً يفوق جيشه بخمسة أضعاف. وألقى السلطان قبل الدخول إلى المعركة خطبة وجيزة على جنوده، وقال فيها:

١٠٥ البخاري، التهجد، ١٦، التراويح، ١؛ مسلم، المسافرين، ١٢٥/ ٧٣٨.



إما أن أبلغ الغرض وأنتصر، وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة. فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني، ومن أحب أن ينصرف فليمض مصاحباً! فما هاهنا سلطان يأمر ولا عسكر يؤمر، فإنما أنا اليوم واحد منكم، وغاز معكم، فمن تبعني، ووهب نفسه لله تعالى فله الجنة إن استشهد أو الغنيمة إن بقي حياً. ومن مضى حقت عليه النار في الآخرة، والفضيحة والعار في الدنيا.

يقول السلطان العثماني عثمان الغازي مؤسس الدولة العثمانية التي استمرت أكثر من ستة قرون في وصيته لابنه أورخان والتي يخاطب من خلاله سلاطين ورجال الدولة الذين سيأتون من بعده:

«يا بني! أُوصيك بعلماء الأمة العارفين، أدم رعايتهم، وأكثر من تبجيلهم، وانزل على مشورتهم، واجعل لهم مكاناً في قصرك! وإياك أن تغتر بجيشك أو ثروتك! وخذ العبرة من حالي هذا، فأنا الآن مثل النملة التي لا قوة لها، وقد أصبحت مظهراً للكثير من ألطاف الله دون أن أكون أهلاً لها. سر في ذات الطريق الذي سرتُ فيه!

واحفظ دين سيدنا محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام، واحم أتباع هذا الدين القويم، ومن دخل في ذمتهم وطاعتهم واحفظ حقوقهم! وارع حقوق الله والعباد. واقتنع بدخلك الذي عينه ديننا من بيت المال، ولا تنفق مصروفات زائدة عن الاحتياجات الضرورية للدولة. لتتخذك الأجيال القادمة من بعدك قدوة لهم.



لا تظلم، وكن عادلاً ومنصفاً على الدوام. لا تفسح المجال للظلم! وابتعد عن الظلم! وأبعد عن دولتك كل من يقودك إلى الظلم كي لا يدفعوك إلى عاقبة وخيمة ومحزنة!..».

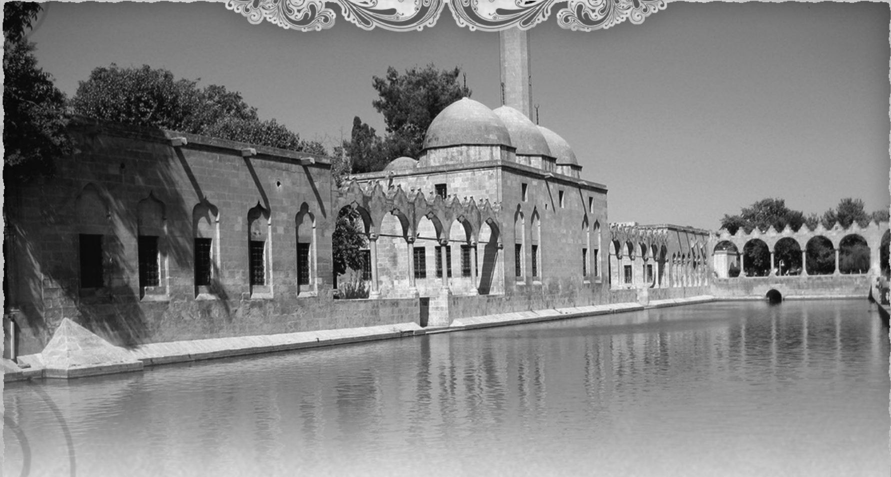
يشهد التاريخ بأن الذين تغلبوا على أنفسهم والتزموا الحق كما في المثالين اللذين ذكرناهما قد نالوا العزة، وخلدت ذكراهم العطرة، وصاروا مشاعل للإنسانية. وأما الذين تجاوزا الحق ووقعوا أسرى لأنفسهم فقد غاصوا في مستنقع الذل والمسكنة، وسقطوا في مزابل التاريخ وصاروا الوجه الأسود للبشرية.

اللهم أعنا نحن عبيدك الضعفاء العجز على التزام الحق، والسير على طريقه المستقيم السامي!..

آمين!.

E





الحكمة من الاستثناءات في سنن الله

«لما حطت بعوضة على قشة فوق الماء أحست بأن لها مكانة كبيرة، وأخذت تنظر إلى نفسها نظرة القائد والقبطان».

«وقالت: أنا الأعلم في البحر، والسفن! لأنني الآن القبطان الذي يصدر أفضل التوجيهات والتعليمات والأوامر على هذه السفينة التي تسير في بحر عظيم».

«فيا أيها الإنسان الذي ينظر إلى حجمه الصغير بعين هذه البعوضة! ألا تفكر ما الذي سوف يحل بك إن سحب عزرائيل هذه القشة من تحتك؟..».

مولانا جلال الدين الرومي

الحكمة من الاستثناءات في سنن الله

لقد أخضع الله الذي كلف الإنسان بالإيمان، وأرسله إلى الدنيا لهذه الغاية، أخضع العالم الذي يعيش فيه هذا الإنسان لجملة من القوانين والدساتير التي يسير وفقها، والتي يطلق عليها تسمية سنة الله. وإن القانون والنظام الكوني الذي حدده الله ﷻ مثل شروق الشمس وغروبها، وتعاقب الليل والنهار لا يتغير، ولا يمكن تغييره أبداً. وحتى بعض الظواهر التي تبدو خوارق للعادة مثل السحر، والمغنطة وغيرها فإنها في الحقيقة تتم باستعمال جزء من القوانين الإلهية والتي يطلق عليها كما ذكرنا اسم سنة الله. فالانسجام والتوازن القائم في هذا العالم مرتبط باستقرار عادة الله تعالى.

إن وصول الإنسان المجهز بالإدراك والوعي إلى الحقيقة يكون بتيسير إلهي بالكشف عن هذه السنن واتباعها، إلا أن أمر الوصول إلى الحقيقة يصعب ويتعرقل أحياناً بسبب الغفلة والشرود عن طريق الحق. وفي هذه الحالة يظهر مولانا سبحانه وتعالى تجليات خارقة غير قابلة للتفسير بالقوانين التي حددها في الكون من أجل تأييد الأنبياء والرسل المكلفين بدعوة البشر إلى الحق ﷻ، وتأمين توفيقهم في مهمتهم. فالخوارق التي تظهر على أيدي الرسل



والأنبياء بصورة معجزة هي نتيجة لهذا الذي ذكرناه. وهذه الخوارق المعجزة هي أيضاً لقطع طريق الأعذار والحجج أمام الذين لم تسعفهم عقولهم فعاندوا، وضلوا عن الطريق القويم.

تُعد مثل هذه التجليات التي تبدو في نظر الإنسان غير متوافقة ومؤتلفة مع عادة الله، عوناً ومكرمة عظيمة من الله للبشرية. ولهذا فإن الأنبياء لم يكونوا يسلكون هذا السبيل خلال قيامهم بمهامهم طالما لم يتعرضوا لمواقف عصيبة ومستعصية. وكذلك فإن الأولياء الذين هم ورثة الأنبياء يظهرون عند الضرورة ذاته كرامات بحسب قدراتهم وشخصياتهم. بيد أن الأساس هو الاستقامة، وليست الكرامة. لأن الكرامة ليست عبادة.

ويمكن تقديم أمثلة لا حصر لها في هذا المجال.

C

يُقال للقوم الذي آمنوا بموسى عليه السلام السبطي، ويقال لقوم فرعون الذين أبوا الإيمان القبطي. وقد استمر الظلم الذي مارسه فرعون وقومه الأقباط على الأسباط حتى حادثة غرقهم وهلاكهم في البحر الأحمر.

وكان من إحدى معجزات سيدنا موسى عليه السلام تحويل مياه نهر النيل إلى دم على القبطيين بضربه النهر بعصاه. فعندما كان يرد السبطيون النهر للشرب والاغتسال من مياهه، كانت المياه تحافظ



على صفائها وطبيعتها الأصلية؛ ولكن كانت تتحول إلى دم عندما يرد إلى النهر القبطيون.

يبين مولانا جلال الدين الرومي رحمه الله الفرق المعنوي بين السبطي والقبطي، فيقول:

جاء قبطي وقد اشتد به العطش إلى منزل سبطي. فشكى إليه حاله واستدر عطفه قائلاً:

«إنني صديقك الحميم المقرب، وصرت اليوم في حاجة إليك».

«لقد قام موسى بسحره وتعاويذه على النيل حتى صار ماؤه دماً علينا».

«فقم واملأ لنفسك وعاءً من الماء، لكي يشرب صاحبك القديم من مائك».

«فإنك عندما تملأ هذا الوعاء من أجل نفسك لا يكون دماً، بل يكون ماء صافياً طاهراً».

ولما رأى السبطي أن القبطي أدرك المعجزة، ملأ وعاءً من ماء النيل ورفعه إلى فمه فشرب نصفه. ثم أدار الوعاء القبطي الذي طلب منه الماء، وقال له:

هيا اشرب أنت أيضاً!

ففرح القبطي ورفع الوعاء إلى فمه ليشرب، ولكن صار الماء فجأة دماً أحمراً. ولما رأى السبطي ذلك أخذ الوعاء من يده، فعاد



الماء إلى حالته الطبيعية صافياً زلالاً. فانفجر القبطي الفرعوني غيظاً وكدراً وغضباً. وظل برهة من الزمن حتى سكن غضبه، ثم استدار إلى السبطي وقال له:

«أي حل لهذه العقدة أيها الأخ العزيز؟ ما سر هذا الأمر؟».

فقال السبطي:

«إنما يشرب هذا الماء من كان تقياً. والتُقى هو مفارقة طريق فرعون، والدخول إلى طريق موسى. فلن تشرب من هذا الماء الصافي الزلال إلا إذا فارقت فرعون واتبعت موسى!».

ثم تابع السبطي حديثه ناصحاً القبطي، فقال:

«تصالح في البداية مع القمر، ثم انظر إلى ضوء البدر!».

المقصود بالقمر هنا هو موسى عليه السلام، وأما المقصود بالبدر فهو معجزة النبي.

«فإن غضبك وكرهك وحقدك تجاه عباد الله جعلك أعمى وأصماً ووضعت بينك وبينهم مئات الآلاف من الحجب المظلمة».

«وإنك تسير عمياناً في وادي الكفر والضلالة، ولا ترى الحقيقة».

«فاجعل جبل الكفر الجليدي يذوب بالاستغفار لتبلغ الهداية! ولتشرب أنت أيضاً من كأس المغفورين».

«كيف تستطيع أن تشرب من هذا الماء بهذا الاحتيال والمكر، إذا كان الحق قد حرمه على الكافرين؟».



«هل تظن أيها القبطي أن النيل على عصيان الفرد الصمد وتكون له خواص الماء مع الكافرين؟!».

ولما سمع القبطي هذه الكلمات انقشع الضباب عن قلبه، وبدأ يشاهد نور شمس الحقيقة. فندم على ما كان عليه من الإنكار والعصيان، وقال للسبطي:

«ادع لي! فلست أملك فماً (للدعاء) من السواد الذي ران على قلبي! ادع لي! لعله يفتح قفل هذا القلب، ويصبح للقبيح مثلي موضع في محفل الحسان! فإن المسخ ينقلب منك إلى صاحب جمال، ويصبح إبليس مرة ثانية في الملائكة المقربين. وببركة يد مريم عليها السلام يجد الغصن الجاف رائحة المسك والنضرة والإثمار».

فسجد السبطي في تلك اللحظة، وتضرع إلى الله تعالى قائلاً:

«يا إلهي! يا عالماً بالسر والعلن! أمام من يرفع العبد يده بالدعاء إن لم يكن أمامك؟ فالدعاء منك والاستجابة منك يا الله. أنت تهب العبد في البداية الميل للدعاء، وأنت تجازيه في النهاية على الدعاء! فإنك الأول والآخر، ونحن بينهما هباء. فيا من تميل قلوبنا للدعاء! اقبل دعاءنا برحمتك...».

وبينما كان السبطي في دعائه وتضرعه بإخلاص وصدق، إذ انطلق فجأة من قلب القبطي صياح وصراخ وضجة عظيمة. وانفجر نبع عينه يسيل دمعاً. وأمسك بيدي السبطي في الحال قائلاً:



«هيا أسرع! يكفي أني أضعت عمري إلى الآن هباء! فأعني على الدخول إلى بستان الإيمان! وأعرض علي ما أقول وما أفعل، حتى أمزق سريعاً الزنار القديم وأتخلص من ظلمات الكفر والضلال!».

«لقد ألقوا النار على أعماق روحي. فلعلهم يكرمون إبليساً مثلي هذا الكرم العظيم. يا لسعدي أن لي صديقاً مخلصاً مثلك يأخذ بيدي إلى الهداية! إنك مثل وردة تذبل، مثل غصن من نخيل الخلد، وعندما أمسكت به حملني إلى الخلد!

لقد جئت إليك لأشرب الماء، فوصلت إلى بحر الحقيقة. ونلت من ذاك البحر درراً كثيرة».

فملأ السبطي الوعاء بالماء وقدَّمه للقبطي، وقال:

«خذ الماء، فتستطيع الآن شربه!...».

إلا أن القبطي لم يأخذ من يده، وحتى لم ينظر إلى الماء. وقال:

«امض في سبيلك فالمياه الآن أمامي لا قيمة لها. فقد شربت شربة من ماء «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم» ولن يصيبني من بعدها الظمأ حتى يوم الحشر. وإن الله الذي أجرى المياه في الأنهار والينابيع فتح عين ماء في داخلي، وتلك الكبد التي كانت متحرقة طالبة شربة ماء، صار الماء ذليلاً أمام همتها. لقد شربت ماءاً معنوياً ليس لمذاقه مثيل في مياه الدنيا كلها. وقد جئت إلى باب الإيمان لأشرب شربة ماء من طوفان الدم هذا، ولكن من أين لي أن أعلم



أن الله صاحب النور والإيمان سيقوم بكرمه ولطفه بتبديل حالي، ويجري نِيلاً في داخلي!».

«لقد علمت مدى شقاء وتعاسة الذين لم يدركوا الحقيقة فتجرعوا الدماء القانية بدلاً من شرب مياه نقية صافية! إنهم يستحقون على غفلتهم التي يصرون عليها أن تنقلب عليهم مياه الدنيا كلها إلى دماء، وليس ماء النيل فحسب!».

C

يبين مولانا رحمه الله بأن المصائب والبلايا التي تصدر من الجمادات، أي الأشياء التي يعتقد أنها بلا روح ليس مجرد حوادث طبيعية، وإنما هي حوادث تتشكل وتقع بناء على تصريف وأمر إلهي، وتعد لوحات عبرة وعظة لذوي العقول والألباب. حيث يقول:

«إن نهر النيل والبحر الأحمر بمقتضى الأمر الإلهي أتاحا الطريق لموسى عليه السلام وأتباعه، وأغلقا الطريق على فرعون وجنوده وأهلكاهم».

«وهكذا فإن الله تعالى أعطى لنهر النيل والبحر الأحمر إدراكاً خاصاً، فميزا به بين موسى عليه السلام وفرعون».

«وبالمقابل فإن قابيل العاقل المدرك قد وقع في العصيان بسبب قصور وعجز عقله، وصار كأنه بلا عقل ولا إدراك. واحتار ماذا يفعل بجسد أخيه الذي قتله».



«لقد قتل قابيل أخاه الصالح هابيل بسبب امرأة. ولم يدر ما يفعل بجثته. ثم رأى أن غراباً يحفر حفرة الأرض ويدفن فيها غراباً ميتاً، فقال:

يا ويلتاه! أعجزت أن أكون مثل غراب!».

«إن العقل يصير بالتربية مثل المطر رحمة للمؤمنين، ولكن لا تسقط حتى قطرة واحدة من ذلك المطر على من استحق الغضب الإلهي!»

«وتظهر هذه الحالة دائماً في معجزات الأنبياء. فهم يبعثون الروح في الحجارة والعصي».

«فقد نطقت الحجارة في يد أبي جهل كمعجزة لنبينا ﷺ، وقالت: لا إله إلا الله محمد رسول الله!».

«وأما العصا فقد صارت في يد موسى عليه السلام حية عظيمة، فأرعبت فرعون وابتلعت في لحظات العصي والحبال التي ألقاها السحرة».

ويتابع مولانا رحمه الله كلامه، فيقول:

«فقس الجمادات الأخرى، أي التي يُظن أنها خالية من الروح على العصا والحجارة المذكورة».

ذات يوم خرج النبي ﷺ بصحبة أبي بكر وعمر وعلي رضي الله عنهم إلى جبل أحد. فاهتز جبل أحد واضطرب لوجود مثل هؤلاء الأشخاص المباركين فوقه. فقال النبي ﷺ:

«اثبت أحد، فإنما عليك نبي، وصديق، وشهيدان!».[١٠٦]

فهدأ الجبل وسكن بعد هذا القول.

يستنطق مولانا رحمه الله الجمادات بلسان الحال. فيقول بلسانها:

«نحن نعرف الله تعالى ونطيعه. فلم نُخلق صدفة ولا عبثاً».

«نحن الجمادات نشبه كلنا البحر الأحمر. فهو ميز بعون الله تعالى فرعون وقومه الذين أغرقهم وأهلكهم عن موسى عليه السلام وقومه».

«وكذلك فنحن الذين أخذنا ذاك الشقي العاصي قارون إلى باطن الأرض وأهلكناه».

«اعتبرونا مثل القمر الذي ما إن رأى إشارة النبي ﷺ وسمع أمره حتى انشق في الحال إلى قسمين في كبد السماء».

C

يقول الشيخ محي الدين بن العربي:

«إن كل المخلوقات تذكر الله عز وجل بصورة مخصوصة بحالها. إلا أن أحوالها هذه مختلفة عن بعضها البعض. ففي الدرجة الأولى تأتي الجمادات. أي العالم الخالي من الروح، مثل: الحجر، والماء، والمعدن وغيره. فقد جاء في القرآن الكريم:

١٠٦ البخاري، أصحاب النبي، ٦؛ الترمذي، المناقب، ١٨/ ٣٧٠٣.



﴿... وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾[107]

وبعد الجمادات تأتي النباتات. ولهذه بعض الحاجات مثل الماء، والهواء، والشمس. فهي متكاملة أكثر من الجمادات. وإن المواد الكيماوية التي تمتصها من التربة تتركب بقدرة إلهية لتنتج أزهاراً، وأوراقاً، وفاكهةً مختلفة الألوان، والأشكال، والنكهات.

وبعد ذلك تأتي الحيوانات. إن الظروف والشروط والوظائف الحياتية للحيوانات أكثر تكاملاً من النباتات. ولذلك فإن احتياجاتها أكثر.

وأما الإنسان فإنه أوسع وأعلى أفقاً من الجميع في الزوال والكمال. وهذا الأمر نتيجة طبيعية لكونه مخاطب بالتكليف الإيماني. وفي الواقع فإن الأنانية، والأوهام، والخواطر، والشهوات والأهواء الدنيوية تدفع الإنسان على الدوام إلى الغفلة والشرود عن جادة الحق».

يصور الله ﷻ حال هذه الأصناف الأربعة بشكل رائع في القرآن الكريم، حيث يقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ...﴾[108]

١٠٧ الأنبياء: ٧٩.

١٠٨ الحج: ١٨.

إذاً؛ إن العالم بأسره، بأحيائه وجماداته خاضع للتنظيم الإلهي. وحتى أن الأنبياء عليهم السلام لا يطلعون على الغيب والنظام الإلهي إلا بقدر ما أتاحه الله ﷻ لهم من أمور خارقة ومعجزة.

يقول الشيخ سعدي الشيرازي في كتابه «غول ستانه»:

«جاء رجل إلى يعقوب عليه السلام وسأله قائلاً:

يا نبي الله! يا من تملك عقلاً راجحاً، وقلباً منوراً! إنك أحسست برائحة قميص يوسف وهو ما يزال في مصر، فلِمَ لم تره عندما كان يقاد إلى الجب وهو قريب منك؟

فقال يعقوب عليه السلام:

إن الفتح الإلهي الذي نناله في هذا الشأن مثل لمعة البرق. ولهذا فإن الحقائق تظهر لنا جلية أحياناً، وتُحجب عنا أحياناً أخرى!..».

C

يقول الحق سبحانه وتعالى في كتاب الكريم:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا﴾[١٠٩]

يحتمل «حمل الأمانة» أوجهاً ومعانيَ كثيرة، ولكن حسب رأي أكثر المفسرين أنه تحمل التكاليف الشرعية من الإيمان والعمل

١٠٩ الأحزاب: ٧٢.



الصالح. وقد وصف الإنسان بالظلم والجهل لأنه لم يحمل هذه الأمانة وينفذ التكاليف التي تستوجبها بالشكل اللائق. وهذا الوصف من أجل إبراز ثقل الأمانة.

ويبين الله تعالى في كتابه الغفلة المخيفة للإنسان، فيقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾[١١٠]

تشبه هذه الغفلة حكاية البعوضة التي يحكيها لنا مولانا رحمه الله:

«لما حطت ذبابة على قشة فوق الماء أحست بأن لها مكانة كبيرة، وأخذت تنظر إلى نفسها نظرة القائد والقبطان».

«وقالت: أنا الأعلم في البحر والسفن! لأنني الآن القبطان الذي يصدر أفضل التوجيهات والتعليمات والأوامر على هذه السفينة التي تسير في بحر عظيم».

«فيا أيها الإنسان الذي ينظر إلى حجمه الصغير بعين هذه الذبابة! ألا تفكر ما الذي سوف يحل بك إن سحب عزرائيل هذه القشة من تحتك؟».

C

إذا عاد الإنسان إلى ربه بمشاعر إيمانية صادقة، وخضع له بعبودية مخلصة فإنه يصبح مظهراً للعون الإلهي في كل أمر. فتخضع الجمادات لأمره. وتنجلي أمامه حقيقة الأشياء، وأسرار

١١٠ يس: ٧٧.



التجليات الإلهية المكنوزة في داخله. وأما إن أعرض، فوقع في الغفلة، وانكب على المتع والشهوات الدنيوية الفانية فإنه يصبح عرضة لخسران أبدي عظيم.

يرى محي الدين بن العربي أنه لا يمكن بلوغ أعماق حقائق القرآن إلا برقة ورهافة قلبية.

إن الاسم الأعظم يتجلى عندما تذكر كل أسماء الله بلسان وقلب مخلص.

C

فعندما تتفوق المعنويات على المادة، فإنها تخضعها لتأثيرها على الدوام. فقد قال هاميلتون القائد الإنكليزي في معركة «جاناك قلعة»:

«إن الذي هزمنا هو القوة المعنوية للأتراك، وليس تفوقهم وقوتهم المادية. إذ لم يكن قد بقي لديهم حتى بارود يطلقون به الرصاص علينا. ولكننا شاهدنا قوات تنزل من السماء!».

كما أشرنا من قبل؛ إن الكون بأسره وبما فيه خاضع للإرادة الإلهية، وللتنظيم والأمر الإلهي، ولا يشذ عن ذلك شيء أبداً. وجاء في القرآن الكريم:

﴿... **فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ** ...﴾[111].

١١١ يوسف: ١١١.

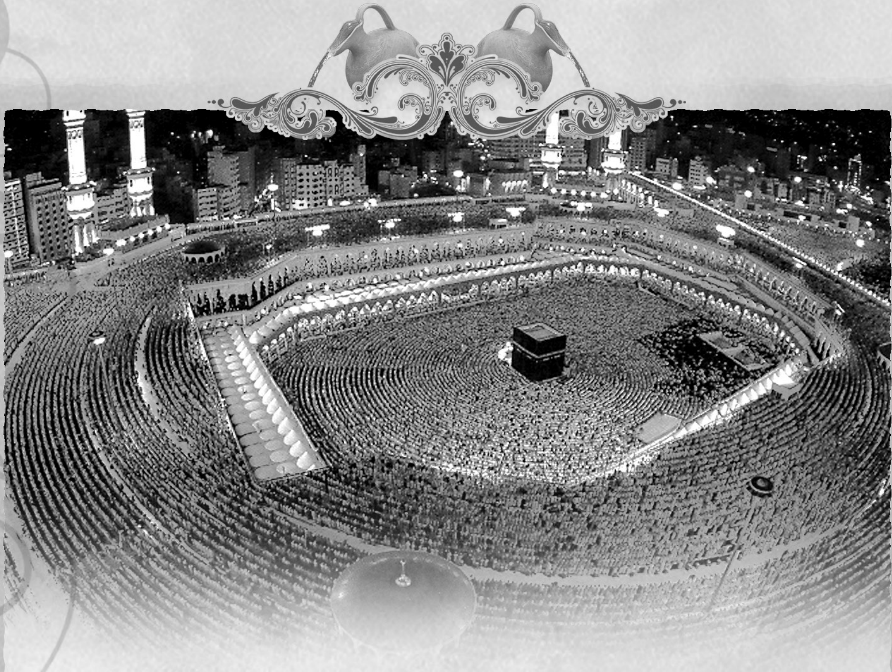


فالدنيا هي مكان العبر والعظات لذوي العقول والإدراك السليم. وأما بالنسبة للحمقى والغافلين فهي دولة الهلاك والدمار.

اللهم اجعل حياتنا مظهراً لغلبة اسمك الهادي من بين تجليات أسمائك، وارزقنا الثبات على طريقك المستقيم الذي أريتنا إياه!..

آمين!

E



نزعة الوحدة الكامنة في العالم

«ولو لم يكن ما في هذا العالم انعكاس أشجار سرو السرور و البهجة والنشوة التي في عالم القلب، لما قال الله تعالى عن هذا العالم الوهمي دار الغرور».

«إن أعظم أثر للرحمة الإلهية هو القلب. فكل ما عداه في العالم بمثابة ظل لهذا الأثر العظيم».

مولانا جلال الدين الرومي

إن كل حب ينبع من رؤية المحب لخاصيته في المحبوب.



يرى مولانا جلال الدين بأن ما يُعرف ب «النفسانية» و «الروحانية» ماهيتان متضادتين، وفي صراع فيما بينهما، وأن كل واحدة منهما طبيعية. ويبين ذلك من خلال أمثال وحكايات مختلفة. ويذهب مولانا إلى أنه لا يمكن لم يريدون الكشف عن الروحانية الوصول إلى غاياتهم إلا عن طريق العشق الحقيقي. ويوضح هذا الأمر في الحكاية الآتية:

«وصل خبر إلى مجنون أن ليلى راحلة عن الديار. فأسرع إلى ناقته، فركبها وخرج بها في طريقه إلى القرية التي تذهب إليها ليلى. كانت الناقة حديثة الولادة، وبقي مولودها في منزل مجنون، لذا كانت خلال الطريق تتجه بعينها إلى الوراء حيث بقي صغيرها. ولما أصاب التعب والإرهاق وبدأ يغفو على ظهرها، استدارت في الحال وعادت أدراجها إلى صغيرها. ولما استيقظ مجنون من غفوته وتنبه للأمر ثنا الناقة عن العودة، وأعادها بشق الأنفس من جديد إلى طريق قرية ليلى. وتكرر الأمر عدة مرات».

«فمجنون كان ملتاعاً لوصل ليلى، وأما الناقة فقد كانت ملتاعة للجري نحو وليدها».



«وفي نهاية النهار أخذ مجنون يلتف حوله بفضول ليعرف أين وصل، وتبين له أنه بهذه التحركات التي اتسمت بالتقدم والتراجع لا يزال في المكان الذي انطلق منه في الصباح، ولم يتقدم في الطريق حتى فرسخاً واحداً. حينها نادى مجنون الناقة قائلاً:

«آه أيتها الناقة! أنت عاشقة لصغيرك، وأنا عاشق لليلى!.. فطريق كلينا مختلف. فأنت تقطعين علي طريقي، وأنا أقطع عليك طريقك!.. لذا لا يمكن أن نترافق معاً. فأنت عاشقة لبدن فانٍ، وأنا عاشق لروح أبدية.. يجب أن نفترق عن بعضنا!»».

إن المراد بمجنون في هذه الحكاية هو «الروح السلطانية» وهي مجذوبة للحسن المطلق (الله تعالى). وأما المقصود بالناقة فهو «النفس». وأما صغير الناقة فهو المتع الدنيوية التي يُطلق عليها «الأهواء والشهوات».

لقد اجتمع في هذه الحكاية مجنونان متضادان، أي الروحانية، والنفسانية. وتم التعبير عن صراعهما بمشهد تمثيلي.

C

يورد مولانا رحمه الله في بعض أبياته المتعلقة بهذه الحكاية جملة من التشبيهات، فيقول:

«إن مثل الروحانية، والنفسانية كمثل مجنون والناقة، فإحداهما تريد التقدم، والأخرى تريد التراجع».



«وإن لحظة غفلة من مجنون تدير الناقة نحو صغيرها».

«ولأن بدن مجنون يمتلئ بعشق ليلى فإنه بين الحين والآخر يغوص في الخيال ويغيب عن وعيه».

«وأما العقل الذي من شأنه إرشاده، فمغيب بشغف وحب ليلى».

«ولكن الناقة، أي «النفس»، فإنها كانت متنبهة ومتيقظة وكلما غفل مجنون وغاب عن وعيه، فإنها كانت تستدير وتعود إلى صغيرها (أهوائها وشهواتها)».

«إن الروح كانت تخفق بجناحها للصعود إلى الأعلى والوصول إلى المراتب السامية الرفيعة، وأما النفس فإنها كانت تغرز ببراثنها ومخالبها في الأرض ولا تريد مفارقة هذا العالم الفاني».

«وفي نهاية الأمر توجه مجنون إلى الناقة، وقال:

أيتها الناقة! إن كل واحد منا عاشق لنقيض الآخر. لذا لا يمكن أن نترافق على هذا الطريق. وطالما أنا معك فإن روحي تبقى بعيدة عن ليلى».

«وكما أن قوم موسى قضوا سنوات في صحراء التيه، فإني كذلك قضيت معك هذا العمر على هذه الأحوال».

«أيتها الناقة! مع أن طريق الوصل عبارة عن خطوتين، إلا أن مكرك وحيلك حرمتني من الوصل سنوات طويلة. والحال أن الطريق كان قصيراً وقريباً جداً...».



«ولكني تأخرت كثيراً. فأنا سئمت من الركوب على ظهرك، وحملك إياي!..».

«فقفز مجنون من ظهر الناقة وألقى بنفسه على الأرض بشكل مروع».

«لقد ألقى ذاك البطل المجنون بنفسه بقوة حتى أن رجله كسرت بالقضاء الإلهي».

«فربط رجله. وجعل نفسه مثل كرة. وبدأ يتدحرج مثل عجلة نحو منزل ليلى».

إن الحقيقة التي تم بيانها في الحكاية هي: أن أصل الكون وحقيقته هي الوجود المطلق. وإن إحدى القوانين الرئيسية لعالم الكثرة الذي أوجد بالإرادة الإلهية وبتجلي صفة اللطيف هي الشوق والنزعة نحو الوحدة وعودة الإنسان إلى أصله.

ووفقاً لما بيّنه الحديث القدسي القائل:

«كنتُ كنزاً مخفياً، فأحببت أن أُعرف، فخلقتُ الخلق لأُعرف»، فإن سبب خلق الكون هو العشق والمحبة.

ولهذا؛ فإن العامل المؤثر والوحيد الذي يخلص الإنسان والذي هو أشرف المخلوقات والكائنات من الروابط الفانية، ويرفعه إلى ربه، ويوصله إلى مرتبة أحسن تقويم هو العشق والمحبة. ولكن الجري في الطريق وراء الأهواء والشهوات النفسية بدلاً من العق



والمحبة اللذين يُعدان الغذاء الروحاني، يناقض هذه الغاية الإلهية، ويؤدي إلى الشقاء والتعاسة.

فالذي على السالك في كل الأحوال هو الحذر من النفس وعدم الانخداع بحيلها ومكائدها، والتغلب على الابتلاءات والامتحانات التي يتعرض لها وتجاوزها، والتوجه نحو الوصل الإلهي.

يبين مولانا رحمه الله بأن المستوى الروحي، والاستعدادات والملكات، وماهية النفس تختلف من إنسان لآخر، وأن كل إنسان يرى نقوش وانعكاسات الكون في مرآة ذاته من زاوية مختلفة، وبشكل مختلف عن الآخرين. وذلك من خلال الأمثلة الآتية:

«ذات يوم دخل أحد المتصوفين إلى بستان ذو أشجار وأزهار جميلة من أجل الغوص في التأمل والتفكر. فسكر أمام الألوان والأشكال التي كانت وكأنها تتراقص من فرط جمالها وزهوها حتى الثمالة. فأغلق عينيه وغاص في التفكير والمراقبة».

«مر رجل غافل بالمكان، ولما رأى الصوفي مغمض العينين ظنه نائماً. فدهش لحال الصوفي، وامتعض منه، فنادى عليه قائلاً:

لِمَ تنام هكذا؟ افتح عينيك وانظر إلى عناقيد العنب، وأزهار الأشجار، والمروج الخضراء! انظر إلى آثار رحمة الله من حولك!».

فأجابه الصوفي:

«يا أيها الإنسان الغافل! اعلم أن أعظم أثر للرحمة الإلهية هو القلب. وإن كل ما عداه بمثابة ظل لهذا الأثر العظيم».



«إن الجدول يتدفق بين الأشجار ويذهب في سبيله. وإنك ترى في مائه البراق انعكاسات وآثار الأشجار المتناثرة على طرفيه».

«وإن ما ينعكس ويرى داخل الماء بساتين وحقول وهمية خيالية. وأما البساتين والحقول الأصلية فهي في القلب. لأن القلب محل النظر الإلهي. وإن منعكساته اللطيفة والرقيقة هي على عالم الدنيا المؤلف من الماء والطين».

«ولو لم يكن ما في هذا العالم انعكاس أشجار سرو السرور و البهجة والنشوة التي في عالم القلب، لما قال الله تعالى عن هذا العالم الوهمي دار الغرور».

يقول الحق سبحانه وتعالى في القرآن الكريم:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[١١٢]

«ولكن كل المغرورين والغافلين اتجهوا إلى هذا الظل والصورة، ظانين أنها دار الجنان».

«ويهربون مبتعدين عن أصول هذه البساتين، أي عن أولياء الله، ويوجهون كل هذا الهيام إلى الخيال».

١١٢ آل عمران: ١٨٥.



«وعندما يرفعون رؤوسهم من نوم الغفلة ذات يوم، يرون الحقيقة ويعلمون جدوى هذه الرؤية. ولكن ما فائدة تلك الرؤية في النفس الأخير؟!».

«ثم في القبور يرتفع النواح والتحسر والصراخ، ويصيحون واحسرتاه حتى يوم القيامة».

«وما أسعد ذاك الذي مات قبل الموت، واشتمت روحه رائحة عطر من حقيقة البستان...!».

وفي الحقيقة؛ إذا ما أشاح العبد بوجهه عن المتع والملذات النفسانية للدنيا ولم يبال بها، فإن الله تعالى سوف يجعل روحه صافية نقية شفافة، وقلبه منيراً.

قرأ رسول الله ﷺ:

﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[١١٣]،

ثم قال رسول الله ﷺ:

«إذا دخل النور القلبَ انفسح وانشرح».

قالوا: يا رسول الله، وهل لذلك من علامة تعرف؟ قال:

«نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزول الموت»[١١٤]

C

---

١١٣ الأنعام: ١٢٥.

١١٤ الطبري، التفسير، ٨، ٣٧/ ١٣٨٥٦.



سئل الجنيد البغدادي عن التصوف، فقال:

«التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبعية،وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الربانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واتباع الرسول في الشريعة».

فالإنسان الذي يكون صافي الروح، طاهر القلب، منار الباطن يقف في الصف الأول بين يدي الله تعالى. وأمثال هذا الإنسان هم الصوفيون الحقيقيون. وتكون معارفهم وعلومهم صحيحة عند الله. وهم يثقون بربهم ﷻ ويتوكلون عليه، ويرضون بقضائه.

إن قلب كل المخلوقات في الكون يختلف حسب استعداداتها وملكاتها الإيجابية أو السلبية. ولكن حب الذات، أي انجذاب الكائن إلى ذاته صفة متأصلة فيه. ولهذا فإن كل كائن أينما يشاهد الخصائص أو الأمور المشتركة مع ذاته ينجذب إليها. وهذا الأمر نتيجة لرؤية ومشاهدة ذاته في غيره. بمعنى أن الكائنات من ذات الجنس تنجذب إلى بعضها. فكل محبة تنبع من رؤية المحب لخاصيته وجوهره في المحبوب. فهذه المعية والتشابه شرط للجذب والانجذاب. فالحياة النفسانية تجذب الفاسقين، والحياة الروحانية تجذب الصادقين والصالحين، والكفر يجذب الكافرين، والإرشاد يجذب المسترشدين. وقانون الجذب هذا يهيمن على المادة، والمعنى، والخير والشر على حد سواء.



يقول رسول الله ﷺ في حديث متعلق بهذا الشأن:

«**الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف**».[115]

ويقول مالك بن دينار:

«ذات يوم مررت برجل وألقيت السلام. فرد علي السلام وذكر اسمي. فدهشت، وقلت له: كيف عرفتني ولم نلتق من قبل؟. فقال الرجل: لقد عرفني عليك ربي لأن روحي التقت بروحك في عالم الملكوت!..».

وذات يوم ألقى رجل السلام على أويس القرني رحمه الله، فرد عليه أويس السلام وذكر اسمه. فقال الرجل المسكين: من أين عرفت أني هرم بن حيان؟. فقال له أويس القرني: لقد عرفت روحي روحك!.

C

جاءت امرأة إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقالت له:

يا أمير المؤمنين! لقد صعد ولدي إلى سطح الدار، ووصل إلى حافته فإن ناديته لن يستجيب، وإن تركته سقط! فماذا أفعل؟.

قال علي رضي الله عنه: يا امرأة! أحضري ولداً من أقرانه واصعدي به إلى السطح. فإن رآه ابنك جاء إليه. فتحمليه وتنقذيه من السقوط!.

---

١١٥ البخاري، الأنبياء، ٢؛ مسلم، البر، ١٥٩/٢٦٣٨.



فجاءت المرأة بولد وفعلت كما قال لها أمير المؤمنين. فلما رأى ابنها قرينه الذي من جنسه، التفت إليه وزحف نحوه. وزال عنه الخطر.

يقول مولانا رحمه الله:

«الجنس عاشق أبدي لبني جنسه».

«ولهذا اختير الأنبياء المبعوثون لتخليص العباد من الضلال والأخطار، اختيروا من البشر».

«ولذلك ليس من العجب طعن الأحمق بالعاقل، وكفران الجاحد بالنعمة تجاه المنعم».

«لقد صار عيسى عليه السلام، وإدريس عليه السلام مثال الملائكة نتيجة مجاهدة النفس والرياضة الروحية التي لم يكن لها نظير. ووصلا إلى مرتبة كادا معها لا يأكلان، ولا يشربان شيئاً. وقد رفعا إلى السماء لأنهما صارا وكأنهما من جنس الملائكة».

«وأهبط الملكان هاروت وماروت من السماء إلى الأرض لأنهما صارا من جنس البدن».

يبين مولانا بهذه الأمثلة أن عيسى عليه السلام، وإدريس عليه السلام رفعا إلى السماء مثل الملائكة لأنهما وصلا إلى حالة اللطافة والشفافية بالرياضات الروحية ومجاهدة النفس، وأن هاروت وماروت أنزلا إلى الأرض بالرغم كونهما ملكين لأنهما دخلا إلى الكثافة النفسانية.



كان رسول الله ﷺ يتحرر أحياناً من عالم البشرية، ويتحول إلى اللطافة والروحانية. وقد جاء في الحديث الشريف:

«أنا من نور الله، والمؤمنون من نوري».

ويقول مولانا رحمه الله:

«كان موسى عليه السلام سيئاً في نظر فرعون وهامان. وهما كانا ظالمين وسيئين أكثر في نظر قوم موسى عليه السلام».

«كانت روح فرعون وهامان تجذب إليها القبطيين من أمثالهم. وأما روح موسى عليه السلام فكانت تجذب إليها طالبي التوحيد. وهذا أثر لفرق الماهية بينهما».

«إن معدة الحمار تهضم التبن، ومعدة الإنسان تهضم حساء القمح».

«فإن لم تكن تعرف أحداً بسبب ظلمة الغفلة والجهالة فانظر من أستاذ ذاك الإنسان، ومن هم أصحابه!.. فإن كان يقتدي بإنسان كامل، ويقوم بأعمال المتقين، فاعلم بأنه إنسان يسير على طريق الكمال والرشد الحقيقي».

سأل رجل سهل بن عبد الله التستري عمن يصاحب. فنصحه سهل قائلاً:

«أوصيك بالصوفيين. فالزمهم، ولا تفارقهم. فإنهم لا يمنون عليك بما قدموه لك من عون، ولا يعيبونك على ما يرونه فيك من نقص وعيوب، ويعذرونك في كل تصرف تأتيه».



ويقول بن عطاء:

«خصلتان لا ينفع الإنسان شيء مثلهما:صحبة الزهاد. وتعظيم الأولياء».

C

سأل يوسف بن حسين ذا النون المصري عمن يصاحب، فقال ذو النون رحمه الله:

«اصحب من لا يحمل في قلبه شيئاً من الدنيا، ولا يعيب حالك أبداً، ولا يتغير عليك مهما تغيرت أنت!..لأن أكثر وقت تحتاج فيه إلى الأصحاب، هو أكثر وقت تغيرت فيه».

إذا كان الانجذاب بين شخصين متولداً عن المعية الروحانية، فلا يمكن أن يؤثر به أي مؤثر، ولا يقف أمامه أي عائق. ولا ينتهي بالوصل والإشباع.

وأما الانجذاب المتولد عن أسباب نفسانية فإنه سرعان ما ينهار أمام أي عائق بسيط، كما أنه ينتهي ويخفت تدريجياً عند كل وصل وإشباع. وتنتفي الروحانية. إن القانون الوحيد للتقدم على طريق العلوية والتسامي هو تأمين تحقق الانجذابات بالميول والدوافع الروحانية.

إن أعظم مؤثر في ترقي حياة البشر أو هبوطها مرتبط بتوجه مؤشر المحبة والكراهية. فإذا ما توجهت المحبة لمن يليقون بها،



والبغض والكراهية لمستحقيها فإن الشخص يرتقي بنسبة شدة ذاك التوجه. وأما إن حصل العكس، أي إذا توجهت المحبة لمن لا يليقون بها، والبغض لغير مستحقيه، فعندها أيضاً يهبط مستوى الحياة بنسبة شدة التوجه.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[١١٦]

اللهم اجعل سائر أحاسيسنا وأفكارنا متآلفة مع رضاك! ويسر لنا استعمال العقل والقلب في مرضاتك!..آمين!.

E

---

١١٦ الكهف: ٢٨.





التصوف والعلم اللدني

«العلماء كثير، ولكن ليس لكثير منهم نصيب من العرفان. إنهم صاروا حفاظاً للعلم، إلا أنهم لم يصيروا أحباب الله».

مولانا جلال الدين الرومي

التصوف والعلم اللدني

لقد تلقى النبي عليه الصلاة والسلام من ربه ثلاثة أنواع من العلوم. فأما الأول فمحصور بينه وبين الله سبحانه وتعالى. ولم يُفشى بهذا العلم للناس لأنه يتجاوز مستوى الإدراك البري. فبقي مخصوصاً برسول الله ﷺ وحده دون غيره.

وأما العلم الثاني، فهو للعامة. وهو الذي يستطيع عامة الناس فهمه بما لديهم من مداركهم وملكات. وعالم الإنس بأسره مكلف بالإيمان والعمل بالمعلومات والعلوم التي تدخل ضمن هذا الصنف. والاسم الآخر لهذا العلم هو الشريعة.

وأما العلم الثالث، فمخصوص لبعض الناس ممن هم أهل له؛ وهو التصوف، والزهد، والوصول إلى مقام الإحسان. أي أن هذا العلم متعلق بالحياة القلبية. وإلى جانب ذلك فإن الإنسان مسؤول في هذا الباب بقدر استعداده وطاقته، وقابليته. والعبد مجبور لكشف هذا الاستعداد من أجل سلامته. ويكون ذلك بتزكية النفس، وتصفية القلب.



فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾[117]

﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا﴾[118]

وجاء في الحديث النبوي الشريف:

«ما تحت ظل السماء من إله يعبد من دون الله – أعظم عند الله من هوى متبع»[119]

C

العلم اللدني هو عطاء وهبة من الله ويصل إليه العبد في التصوف نتيجة التدريب والمجاهدة والتربية المعنوية. وقد تحدثت الكثير من الآيات القرآنية عن هذا العلم.

وبدأت إشارات هذه الحقيقة في وقائع الوحي الأولى المتعلقة بموسى عليه السلام.

كان موسى عليه السلام متجهاً مع أهله من مدين إلى مصر. وخلال الرحلة ولد له مولود في ليلة مظلمة شديدة البرد والمطر. واحتاج إلى النار والضوء. فرأى ناراً على مسافة بعيدة من مكان نزولهم.

---

١١٧ الأعلى: ١٤؛ وكذلك الشمس: ٨. كان موسى عليه السلام متجهاً مع أهله من مدين إلى مصر. وخلال الرحلة ولد له مولود في ليلة مظلمة شديدة البرد والمطر.

١١٨ الفرقان: ٤٣.

١١٩ الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١، ١٨٨/ ٨٩٥.

كانت هذه النار التي رآها من بعيد في الأصل إشارة إلى إعداده وتحضيره للنبوة. فأراد الذهاب إلى تلك النار ليأتي منها بقبس لتدفئة أهله ومولوده الجديد. ولما وصل إلى مكان النار جاءه نداء من الله عزّ وجلّ:

﴿... يَا مُوسَى. إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[120]

فسر العلماء عبارة «فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ» بتفسيرات كثيرة مختلفة، وحملوها معاني إشارية. ومن جملة هؤلاء العلماء القشيري والبورصوي. فقد بين القشيري في كتابه «لطائف الإشارات»، والبورصوي في كتابه «روح البيان» معنى الآية بالشكل الآتي:

«النعلان يمثلان الدنيا والآخرة؛ إذ يقول الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام:

أفرغ قلبك من الانشغال بالدنيا والآخرة! وتجرد من كل شيءٍ للحق، وامح ذاتك في معرفة ومشاهدة الله!».

وبعبارة أخرى:

«أترك الطبيعة والنفس! تعال إلي، ودع التفكير بنفسك وبكل شيءٍ متعلق بها!».

«دعك من الدليل الفكري! لأنه لا فائدة لذلك بعد المشاهدة والعيان».

١٢٠ طه: ١١- ١٢.



ولهذا فإن الشيخ شبلي قد أحرق كل الكتب بعد الوصول إلى الله تعالى.

C

بعد غرق فرعون وجنوده في البحر الأحمر أمام أعين بني إسرائيل، جمع موسى عليه السلام قومه. ثم وعظهم بأسلوب فصيح وبليغ. فأعجب بعلم موسى عليه السلام. فقال أحدهم:

يا نبي الله! هل على وجه الأرض من هو أعلم منك؟

فقال موسى عليه السلام:

لا أعرف أحداً أعلم مني.

وفي تلك اللحظات نزل عليه الوحي، وقيل له:

«يا موسى! إن عند مجمع البحرين عبد من عبادنا. وآتيناها علماً من لدنا. فاخرج إليه مع أحد من أمتك!».

فاصطحب موسى عليه السلام صاحبه يوشع بن نون وخرجا إلى أمرهم في الحال.

وجد موسى عليه السلام الرجل الذي أشار إليه الوحي جالساً على صخرة، وعليه عباءته. فألقى عليه السلام، وقال:

أنا موسى..

فقال خضر عليه السلام:

إذاً؛ أنت موسى نبي بني إسرائيل!



سأله موسى عليه السلام:

أأنت أعلم الناس الذي أخبرني الله تعالى عنه؟

فرد عليه الخضر عليه السلام:

يا موسى! لقد آتاني الله علماً ليس عندك مثله،وآتاك علماً ليس عندي مثله.

فأخبره موسى عليه السلام برغبته في تلقي العلم منه. وقد كان تعلم منه بعض الحقائق غير القابلة للفهم من حيث الظاهر، والتي تبدو غريبة وعجيبة في نظره. وخرجا في تلك الرحلة المشهورة...

يبين مولانا جلال الدين رحمه الله في المثنوي هذه الحادثة مشيراً إلى النقاط المليئة بالعبرة والحكمة. فيقول:

«أيها الكريم! تعلم من كليم الحق موسى عليه السلام الشوق المعنوي، وانظر إلى ما يقوله الكليم».

«ومع ما كان له من نبوة ومنصب ومكانة وجاه قال: أنا طالب للخضر بريء من الغرور».

فقال قومه له لما طفق يبحث عن الخضر عليه السلام:

«يا موسى! لقد هجرت قومك، وصرت مريداً في إثر مبارك القوم».

«أيها العظيم! لقد نجوتَ من الخوف والرجاء. فإلامَ تسعى، وعمَّن تبحث؟ وإلى أين تذهب؟»



«إن مطلوبك معك، وأنت واقف عليه. فيا أيها النبي المترفع حتى السماء! إلى متى تبحث في الأرض؟..».

فقال موسى عليه السلام لقومه:

«قللوا من هذا الملام، وقللوا قطع الطريق على الشمس والقمر. فأنا القمر والخضر الشمس».

وتابع موسى عليه السلام يقول:

«إنني أمضي إلى مجمع البحرين، حتى أصير في صحبة سلطان الزمن».

«أجعل الخضر لأمري سبباً، وأمضي وأسري حقباً حتى أجده وألتقيه».

«ولأحلّق سنوات بالجناح والقوادم، بل وآلاف السنوات. أجل لأمشي وأسير، ألا يستحق هذا؟ فلا تَعتبر عشق الأحبة أقل من عشق الخبز!».

إن صفة موسى عليه السلام هي «كليم الله». ولما تكلم الله عز وجل مع موسى عليه السلام تكلم معه ب «الكلام» الذي هو صفته في الأزل. ولا تشبه أي صفة من صفات الله تعالى لصفات المخلوقات. فهو يعلم؛ ولكن هذا العلم ليس كعلمنا. وهو القدير وصاحب القدرة؛ ولكن قدرته ليست كقدرتنا. وهو يتكلم؛ ولكن ليس ككلامنا!.. فنحن نتكلم باستعمال أداة وأحرف، مثل اللسان واللغة. أما الله تعالى



فمنزه عن ذلك. إذ أن الأحرف مخلوقة، وأما كلام الله ﷻ فليس بمخلوق، و بلا أحرف وأدوات. ولما تكلم موسى عليه السلام مع الله ﷻ لم يتمكن لا الموجودون من قومه الذين بلغ عددهم السبعين شخصاً، ولا جبريل عليه السلام من ملاحظة وإدراك هذا الكلام.

وقد نال موسى عليه السلام من هذه المكالمة قدراً عظيماً من اللذة الروحية حتى نسي أهو في الدنيا أم في الآخرة، وقال:

يا رب! أرني نفسك! أرني أنظر إليك!

إلا أن ﷻ رد عليه قائلاً:

﴿لَنْ تَرَانِي﴾[121]

يفسر السادة أهل اللغة هذه العبارة التي قالها الله ﷻ لموسى بقولهم:

«يا موسى! إنك لن تراني طالما أنت أنت! ولكن إذا تغلبت على نفسك، ومحوت ذاتك وأنانيتك، حينئذ يمكن أن تراني. عندها تراني، ولن تكون أنت؛ وإنما أكون أنا. لأنك عندها تكون فيَّ!».

إن مطلب موسى عليه السلام هذا كان بسبب ما في قلبه من محبة الله وعشق الله. فهو كان البحر الذي أصابه المد والجزر بشكل جنوني وكأنه ثمل عندما رأى وهج ولمعان القمر في السماء. وقد اهتز الجبل الذي كان يقف عليه موسى من شدة حالة العشق هذه، وأما

١٢١ الأعراف: ١٤٣.



الجبل المقابل الذي نال حظاً بسيطاً من سر العشق هذا فقد تصدع وتشقق. وكذلك فإن صعود إدريس عليه السلام، وعيسى عليه السلام إلى السماء بأشكال ولأسباب مختلفة كان نتيجة لهذا التجلي. وكذلك فإن هذا الاشتياق قد جعل نبينا وسيدنا محمد ﷺ مستغرقاً بتجلي الوصل إلى الله بسوية أعلى وأكبر من الأنبياء السابقين، فصعد به إلى المعراج. وهذه الأحوال ليست مجازية، وإنما عين الحقيقة.

ويقول شراح المثنوي على لسان مولانا رحمه الله بشأن هذه المسائل العميقة أسرارها :

«لو كنا متصاحبين مع الأحبة فقط، ولو كان من صحبناهم هم من الأحبة والأصدقاء الذين يفهموني تماماً، ولم يكن في مجالسنا بعض الأغراب لحدثتكم عن الكثير من الأسرار من خزائن الغيب التي تظهر بعد على لسان الحال. لكلمتكم عنها وشرحتها لكم. ولكن إن لم يكن هناك صاحب ورفيق يتحمل أسراري، فالسكوت خير لي وأصوب. لأنه يجب تكليم كل إنسان على قدر عقله. وإلا فإن الحديث عن الحكمة والمعرفة لمن لا يفهم الحال ظلم للحقيقة».

يقول رسول الله ﷺ:

«**إذ وضعت العلم في غير أهلها ظلمتها**»[122]

والمعنى الآخر لهذا الحديث:

122 الدارمي، المقدمة.



«إذا منعت الحكمة والأسرار عن أهلها ظلمتهم».

يعتبر مولانا رحمه الله العلم اللدني عطاءً إلهياً، ولا يهبه الله تعالى إلا لمن لديهم استعداد قلبي، ويبين ذلك بقوله:

«كانت الخوارق التي رآها يعقوب عليه السلام في وجه يوسف عليه السلام مخصوصة به وحده. ولم تصبح رؤية ذلك النور من نصيب إخوة يوسف عليه السلام. إذ كان علم قلوب الإخوة بعيداً عن رؤية يوسف وفهمه وإدراكه».

«إن غذاء الروح العشق. وأما الأبدان فغذاؤها الجوع».

«كان في داخل يعقوب عليه السلام جاذبية يوسف عليه السلام. ولأجل ذلك فقد وصلت إليه رائحة قميص يوسف من مكان بعيد. وأما أخوه الحامل للقميص فقد كان محروماً من اشتمام تلك الرائحة».

«لأن قميص يوسف عليه السلام كان عارية في يد أخيه. وكان الأخ مكلفاً بأخذ القميص وتسليمه ليعقوب عليه السلام. أي ذاك القميص في يد أخيه كان مثل جارية ذات شأن وأهمية في يد آسرها. فهي ليست لنفس الآسر، وإنما مرسلة من بائع إلى آخر».

«العلماء كثير، ولكن ليس لكثير منهم نصيب من العرفان. إنهم صاروا حفاظاً للعلم، إلا أنهم لم يصيروا أحباب الله».

لأن العرفان لا يحصل بالقلم والكتاب الظاهري. فلا يقدم ولا يكرم به إلا العبد الذي استطاع أن ينير قلبه بنور المعرفة. وقد عبر



يونس إمره الذي كان يمتلك مثل هذا القلب، عبر عن هذه الحقيقة بشكل جميل بقوله:

«أنا يونس أمره الذي صار فقيراً، قرأ من كتاب القلب، ولم يأخذ بيده قلماً...».

إن العلم لدى أرباب العلم المحرومين من هذه المرتبة السامية، أي لدى الذين لم يستطيعوا أن يرتقوا بعلمهم إلى حالة العرفان هو عبارة عن قيل وقال، وسفسطة. إنهم محكومون وأسرى للعلوم الظاهرية. وحتى إن كان محيطهم يعج بالأولياء فلا ينتفعون منهم بشيءٍ. إذ أنهم بسبب نظرهم من الزاوية الضيقة للعلوم الضحلة والسطحية التي يحملونها يعجزون عن مشاهدة الحقيقة بكاملها وكليتها، وإلى جانب ذلك فإنهم ينسبون هذا العجز والنقص لديهم إلى أهل الله الموجودين في محيطهم. أي أنهم ينظرون إلى كل ولي على أنه نقص، ويتيهون بين ضباب العلم الظاهري الذي يحملونه، فيصابون بقصور النظر والإدراك.

يقدم الله ﷻ لمثل هؤلاء مثلاً من الأمم السابقة، فيقول:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[123]

---

١٢٣ الجمعة: ٥.



فالذين ورد ذكرهم في الآية الكريمة هم مثل الحمار الذي شُبهوا به تماماً، فلا يفهمون ولو كلمة واحدة من الكتب التي يحملونها حق فهمها، وحتى أنهم لا يلاحظون ما يحملونه من كتب على ظهورهم. ومثل هذا العلم هو من نوع العلم الذي استعاذ منه رسول الله ﷺ بقوله:

«... **اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع...**»[١٢٤]

إذا لم يغذى العلم بالتقوى والإخلاص فإن ضره يكون أكبر من نفعه. وأما العلم المزين بالتقوى فأولاً مقبول عند الله ﷻ، وثانياً يفتح لأهله أبواب عالم الأسرار. وعندها يحصل العبد على العلم المكنون بين السطور والذي لا يكون إلا ببركة التقوى.

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿...**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**...﴾[١٢٥]

فقد وصل كبار الشخصيات والعلماء أمثال الإمام الغزالي، والشيخ عبد القادر الجيلاني إلى قمة العلوم الظاهرية أولاً. إلا أنهم لم يصلوا إلى الطريق الحساس، والدقيق المتجه إلى الله والأسرار والدقائق الغيبية إلا من خلال التعمق القلبي وفي مرحلة متأخرة جداً، فصاروا بعدها من أهل الحق. لقد أفشى الله ﷻ الأسرار

١٢٤ مسلم، الذكر، ٧٣/ ٢٧٢٢.

١٢٥ البقرة: ٢٨٢.



والأمور الخاصة بذاته في هؤلاء، وبعض من أمثالهم. وهم بدورهم أزالوا كافة العوائق والعلائق التي من شأنها منعهم من الانشغال بالله تعالى. وحولوا أجسادهم بالذكر، والمجاهدة، والمصاحبة، والمراقبة إلى نور. فحصلوا مرتبة الشهود والاطلاع على الأسرار. وإن الله ﷻ لا يهب مثل الألطاف المعنوية إلا لعباده الذين اختارهم واتخذهم أحباباً لنفسه في الأزل.

جاء في الحديث النبوي الشريف:

«ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بسر وقر في صدره»[126]

وقد أخبرت الكثير من الآيات القرآنية بأن أولياء الله تعالى يدخلون جنات تجري من الأنهار لا خوف عليهم، ولا هم يحزنون بما وقر في قلوبهم من مشاعر الإحسان.

وورد في حديث نبوي يرويه أبو هريرة رضي الله عنه:

«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه»[127]

126 الإحياء، جـ ١، ص، ١٠٠.

127 الإحياء، جـ ١، ص، ٢٠.



يبين الإمام الغزالي رحمه الله أفضلية علماء الباطن على علماء الظاهر بالأمثلة الآتية:

كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب، ويسأله كيف يفعل في كذا وكذا. فيقال له:

- مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول الإمام الشافعي:

- إن هذا وفّق لما أغفلناه...!.

كان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويحيى بن معين يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه. ولما سئلا عن سبب التجائهما إلى الكرخي، قالا:

وكيف لا نفعل وقد سئل رسول الله ﷺ: أرأيت إن عرض لنا أمر لم ينزل فيه قرآن ولم تمض فيه سنة منك؟ قال:

«**تجعلونه شورى بين العابدين من المؤمنين، ولا تقضونه برأي خاصة**»[١٢٨]

لا ريب أن علماء الباطن يحملون الكثير من أسرار العوالم الخفية غير المرئية.

كان السري شيخ جنيد البغدادي يدعو له فيقول:

«جعلك الله صاحب حديث صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث».

١٢٨ الهيثمي، مجمع الزوائد، ١، ١٧٨/ ٨٣٣.



مشيراً إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه. وكان أيضاً يوصيه بمجالسة حارث بن أسد المحاسبي، وأخذ العلم والأدب منه.

C

لما توفي عمر بن الخطاب ﷺ، قال عبد الله بن مسعود ﷺ: ذهب تسعة أعشار العلم. فقال له الصحابة: ما زال فينا العلماء! فقال ابن مسعود: إنما أريد علم المعرفة.

يطلق العلم بكل عام على المعارف والعلوم الظاهرية. ومثل هذه العلوم تعتمد على العقل، والنقل، والتجربة والمشاهدة المرئية. وأما المعرفة أو العرفان، فيستند على الكشف، والإلهام، والتجربة الداخلية أو الباطنية.

وحسب رؤية الصوفيين فإن الصفة الجوهرية والأساسية للإنسان هي الجهالة.

وتتحدث الآيات القرآنية عن الإنسان أنه أوتي القليل من العلم، وأنه جاهل وظالم.

إن العلم صفة من صفات الله تعالى. وإن العبد يصل إلى حالة العارف بما يكرمه الله به من مقام «الإحسان» وبالعلوم التي يمنحها الله سبحانه وتعالى له. ويعمل على نيل حظ من المعرفة، أي من معرفة الله سبحانه وتعالى.



لا يكفي العقل وحده حتى وإن كان في مستوى الكمال لمعرفة الإنسان ربه سبحانه وتعالى بالشكل الأمثل، وبما يليق به. وذلك لأن العقل بمثابة أداة بيد الإنسان. ولا يعرف الإنسان بهذه الأداة إلا ما يعرف عن نفسه. ولا يمكن أن يعرف الله إلا من خلال آثاره التي تدل عليه. فالحق سبحانه وتعالى لما سأل الأرواح في الأزل، لم يقل لها: من أنا؟ وإنما قال لها: ألست بربكم؟!.

لا تتم تزكية النفس بالعقل، وإنما بالقلب. حيث جاء في الآيات القرآنية:

﴿...أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١٢٩]

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا﴾[١٣٠]

يقول ابن عطاء الله:

عرف الله العوام على ذاته بواسطة مخلوقاته، فقال:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟﴾[١٣١]

وعرف الخواص على ذاته بكلامه وصفاته، فقال:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ؟﴾[١٣٢]

---

١٢٩ الرعد: ٢٨.

١٣٠ المزمل: ٨.

١٣١ الغاشية: ١٧.

١٣٢ النساء: ٨٢.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ...﴾[١٣٣]

﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾[١٣٤]

ونقل أبو الحسن بن أبي ذر عن الإمام الشبلي قوله في تعريف التصوف:

علم التصوف علم لا نفاد له ... علم سنيّ سماوي ربوبيّ.

فيه الفوائد لأرباب يعرفها ... أهل الجزالة والصنع الخصوصي.

يصعب التعبير عن هذه المقامات دون معايشتها والشعور بها. في بعض الأحيان استعمل الصوفيون الذين عاشوا هذه الحالة كلمات وعبارات إشارية ورمزية في كتب التصوف، مثل «فصوص الحكم». والهدف أو السبب في ذلك هو الحيلولة دون فهمها فهماً خاطئاً من قبل الذين يحاولون ذلك من تلقاء أنفسهم ولم ينالوا حظاً من العلم القلبي، ومن ثم الوقوع في الضلال والانحراف...

يُعد أصحاب الحق أمثال: الإمام الغزالي، وبهاء الدين نقشبند، ومحي الدين بن العربي، والإمام الرباني السرهندي في مجال حكم وأسرار ودقائق الدين شخصيات ذات ملكات واستعدادات استثنائية استطاعت الصعود إلى فضاء المعرفة بشكل فعلي.

---

١٣٣ الإسراء: ٨٢.

١٣٤ الأعراف: ١٨٠.

وهناك روايات كثيرة تدل على أن الصحابة المبشرين بالجنة كانوا بسبب علم المعرفة هذا في حالة خوف وخشية دائمة أمام العظمة الإلهية، ويشعرون بعدميتهم، وعجزهم المطلق.

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول:

«لوددت أني تمرة ينقرها الطائر».

وأما عمر رضي الله عنه فكان يقول:

«يا ليتني مثل هذه النبتة! ليت أمي لم تلدني، ليتني لم أكُ شيئاً».

وقالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها:

«يا ليتني كنت شجرة».

وقد قال عنها عمار بن ياسر رضي الله عنه على منبر الكوفة:

«أشهد أنها زوج النبي عليه الصلاة والسلام في الدنيا والآخرة».

وقال أبو بكر رضي الله عنه أيضاً:

«لما نزل قول الله تعالى:

﴿... **مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ...﴾[١٣٥]

فلا أعلم إلا أني وجدت انقصاماً في ظهري حتى تمطيت لها».

إن تعبير هؤلاء القامات عن أحوالهم بمثل هذه العبارات نابع من شدة حرصهم وقلقهم على الإقدام على عمل يخالف رضا الله

---

١٣٥ النساء: ١٢٣.

تعالى، وعن حضور قلبهم الدائم، وحيائهم الشديد من ربهم ﷻ، وتعبير منهم على عظمة قدرة الله ﷻ. جاء في القرآن الكريم:

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[١٣٦]

يبين يوسف أسباط عيش حالة التواضع بالمعنى الكامل والتي هي نوع من الاستشعار بالعجز والضعف والعدمية:

«أن تخرج من بيتك فلا تلقى أحداً إلا رأيت له الفضل عليك. والتواضع أن تعلن القبول إذا قال لك أحد حقاً، وترى من هم أدنى أفضل منك. وتكون ليناً مثل الشمعة. وأن يستوي عندك المحسن والمسيء، والقادح والمادح. وأن ترجع إلى الله في كل شيءٍ، وتشكر على الخير والشر.

العارف من يرى أن ما يصيبه من خير، وفضل من الله، وأن النقص والشر من نفسه...

علامة العبد الصادق أن يكون لسانه مع قلبه، وفعله مع نيته».

إن فهم الدين بالجانب الظاهري فقط، وعدم الولوج إلى الباطن، أي عدم الغوص في أعماق الروح خسران مريع. فالمرء عدو ما يجهل. فالابتعاد عن بيئة الصالحين، والصادقين، وأرباب الفضيلة، وعن مجالسهم وأحاديثهم، والاكتفاء بالبقاء بين صفحات الكتب يضيّق آفاق القلب والروح والوجدان، ويطفئ الأنوار الداخلية

١٣٦ الإسراء: ١٤.



والخارجية. ويحرم المرء من الحكم والأسرار الدقيقة للكتاب والسنة، ومن الضياء الروحاني لأهل الأحوال. ويضيع على الإنسان المشاعر والأحاسيس الرقيقة التي تفضل الله بها على الإنسان والتي تُعد رأسمال الحياة، ويجعله أسير النفس. ومن يكون هذا حاله يصبح المغفل والأحمق الذي ينظر إلى الكون بعين عليها غشاوة.

C

يُعد سيدنا موسى عليه السلام النبي المرسل لإقامة الشريعة في قوم بني إسرائيل الطغاة المنكبين على المادة، والممتلئة دواخلهم بعواصف النفس البشرية. قال موسى لخضر عليهما السلام:

﴿...هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾[١٣٧]

فقال له خضر عليه السلام:

﴿...أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[١٣٨]

لقد قام خضر عليه السلام بهذه الكلمات بالكشف والمعاينة الأولى على الحالة النفسية الداخلية لموسى عليه السلام، كان يعرفه على نفسه، حيث أن ما قاله كان سيتحقق في نهاية الأمر. وقد كان الدرس الذي يتلقاه موسى عليه السلام هو درس معرفة مكانته، والصبر. فخضر عليه السلام كان يقول لموسى عليه السلام:

---

١٣٧ الكهف: ٦٦.

١٣٨ الكهف: ٧٢.

ليس بمقدورك الصبر على صحبتي. وأنت معذور في ذلك. لأنك لم تُعط كمال هذا العلم بعد...

فقال له موسى عليه السلام:

ستجدني إن شاء الله صابراً! ولن أعصي لك أمراً، ولن أتدخل في عملك.

فقال خضر عليه السلام:

﴿...فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾[١٣٩]

إذاً؛ إن السؤال الذي يشكل نصف العلم بالمسألة والاطلاع على جوانبها في العلوم الأخرى، محظور في هذا العلم. فنفس الطالب هنا سوف يتم إعدادها من ناحية المهارة والقابلية أكثر من النشاط.

من خلال النظر في قصة حياة موسى عليه السلام يتبين لنا بأن هذا العلم لم يتكون نتيجة للقائه بالخضر عليه السلام فحسب، وإنما أُعطي هذا العلم بوسائل مختلفة.

ويمكن أن نقدم عدة أمثلة على ذلك:

عندما كان موسى عليه السلام في مصر وعد بني إسرائيل أنه إذا هلك فرعون سوف يأتيهم بالتوراة. ولما هلك فرعون تضرع موسى إلى

١٣٩ الكهف: ٧٠.



الله تعالى طالباً منه التوراة. فأمر في البدء بالصيام ثلاثين يوماً، ثم أضيفت عليه عشرة أيام لتصبح مدة الصيام أربعون يوماً.

إن مكوث موسى عليه السلام أربعين ليلة على جبل الطور أربعين ليلة تحتوي على الدلالة أو الإشارة الآتية:

إن بلوغ تجلٍ عظيم لا يمكن إلا بالمرور بساعات معاناة واضطراب مظلمةٍ كالليل والوصول إلى فجر المعرفة. إذ أن الصباحات المشرقة المليئة بالتوفيق آثار لأسحار الليالي المظلمة المضطربة. وإن أشد ساعات الليل ظلمة تنير ببزوغ فجر مشرق.

لقد صام موسى عليه السلام في جبل الطور ثلاثين يوماً دون انقطاع (أي صام صيام الوصال). فلم يجع ولم يعطش. ثم أُمر بالرحيل للقاء الخضر عليه السلام. ولم يمض على رحلته نصف يوم حتى نفد صبره، وأصابه الجوع. فقال لصاحبه:

﴿...آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾[140]

لأن ذهابه إلى الخضر عليه السلام كان امتحاناً له. وأضيف إلى الامتحان الابتلاء. ففي رحلته بجانب المخلوق داهمه الجوع خلال نصف يوم. وأما وجوده في جبل الطور فكانت رحلة الوصل إلى الله، وتكليمه. وإن هيبة وعظمة المكان الذي كان يتواجد فيه أنسته الطعام والشراب. وحجبته عن كل شيءٍ سوى الله تعالى.

١٤٠ الكهف: ٦٢.



إن إرسال موسى عليه السلام الذي يُعد من أولي العزم إلى الخضر عليه السلام لتحصيل العلم اللدني ملفت للانتباه لدرجة كبيرة. ولا يعد تحصيل العلم اللدني في تلك الفترة من شخص عالم به نقيصة بحق موسى عليه السلام.

فمثلاً؛ تُعد المهارة والبراعة والقوة العلمية للمعماري سنان أعلى وأكثر تفوقاً على مهارة كل أرباب الصنعة الذي شاركوا في بناء وإشادة جامع السليمانية. ولكن عدم معرفة سنان بفن نحت وصقل المرمر مثل أي عامل في بناء ذلك الجامع لا يُعد نقصاً بحقه. لأن أولئك الصناع والفنانين والعمال خاضعون لتعليمات سنان. وإنهم يتعلمون دقائق صنعة المرمر منه.

ويتبين مما تقدم أن موسى عليه السلام لم يكن يعلم كل شيءٍ، وأن هناك علماً لم يُعطه من الله تعالى. وأعطي هذا العلم فيما بعد على يد من هو أقل مرتبة منه وهو الخضر عليه السلام، وهذا بدوره يدل على أنه حتى الأنبياء والرسل يقفون عاجزين أمام العلم الإلهي، وكذلك فإن العلم الذي امتلكه موسى عليه السلام والخضر عليه السلام يعلمنا بأن مقام سيدنا محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم هو المقام الأكمل من خلال تلقينه علم الدنيا والآخرة عياناً والذي سيأتي في مرحلة زمنية لاحقة لهم...

اللهم اجعلنا من عبادك الذين أنيرت قلوبهم بالنور الإلهي، ونالوا نصيباً من بحر المعرفة، وصاروا مظهراً لتجليات لطفك وكرمك وإحسانك!.. آمين!





الفتح والفاتح

«احصل من أهل المعنى ومن المساكين على الفضائل والألطاف، وأشكال الإحسان، واكتسب منهم قوة معنوية وروحية، لتبقى شاباً فتياً بالمحبة الإلهية».

«إن الروح الكائنة في هذا البدن إذا غفلت عن المعنى، والعشق فإنها تكون مثل السيف الخشبي داخل الغمد».

«فعندما يكون ذاك السيف الخشبي داخل الغمد يبدو لمن يراه ذو قيمة وفائدة، ولكن إذا ما سلّ من الغمد فإنه لا ينفع إلا أن يكون حطباً للنار».

مولانا جلال الدين الرومي

الفتح والفاتح

لقد أشار النبي ﷺ قبل ما يزيد عن أربعة عشر قرناً إلى أهمية إسطنبول، وإلى المرتبة الرفيعة والمشرفة للقائد والجيش الذي سوف يفتح هذه المدينة المباركة، مشجعاً بذلك على فتحها.

وقد كان مقدم جيوش الصحابة الكرام المتتالية، وقطعها لمسافات شاسعة على ظهور الدواب وسيراً على الأقدام عبر الصحاري المقفرة والجبال الوعرة والتي بلغت ثلاثة آلاف كيلو متر، كان ذلك من أجل نيل هذا الشرف الذي بشر به الرسول ﷺ. ولأن محيط أسوار المدينة صار مقبرة للكثير من الصحابة بجوار أبي أيوب الأنصاري، فقد حرص العثمانيون في عهدهم على أن لا تطأ المكان أقدام غير المسلمين شأنه كشأن مكة والمدينة. لأن احتواء المكان على قبور ما يقارب من عشرين إلى ثلاثين صحابياً معروفاً، إضافة إلى الآلاف من المجهولين حقيقة تاريخية.

لقد صار شرف هذا الفتح الذي كان يشكل غاية وأمنية كل المجاهدين الأشداء الذين تحملوا مختلف ألوان المشاق والصعاب، من نصيب السلطان محمد الفاتح الذي عاش ربيع حياته بهذا الفتح



عام ١٤٥٣م/ ٨٥٧ هـ. لأن الموعد كان قد حان، ولم يكن الفتح يحتمل المزيد من التأجيل والتأخير. فوقت الفتح المحدد في أسرار القرآن الكريم كان قد أزف. فوفقاً للحسابات الأبجدية التي أجراها العلامة مولا جامع للعبارة القرآنية ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾[١٤١] فإنها تقابل رقم العام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣ م).

وإلى جانب ذلك؛ فإن الأسباب الظاهرية والباطنية للنتيجة المنتظرة كانت قد بلغت الكمال والتمام. وذلك كالتالي:

إن القوة الأساسية والجوهرية للفاتح وجنوده كانت تنبع من التضرعات والالتجاءات المستجابة المرتفعة إلى الباري ﷻ من آلاف المجاهدين الممتلئين بالحماس ابتداء من بشرى رسول الله ﷺ. لأن شوق الفتح السامي الذي يفيض من قلوب آلاف المؤمنين كان وصل إلى نقطة لا بد معها من انتقال الفتح إلى مرحلة الظهور، وذلك مثل غيوم المطر التي بلغت إلى درجة الإشباع الأعظمي وصار إفراغها ونزولها مطراً ضرورة واضطراراً لا مناص منه.

يقول الشيخ محي الدين بن العربي في كتابه «فصوص الحكم»:

«يروى بأن فرعون قتل ما يقارب سبعين ألف مولود بريء للقضاء على موسى عليه السلام المنتظر ظهوره. لقد كان هؤلاء الأطفال جميعاً يقتلون ليكونوا مدداً لموسى عليه السلام في حياته، ولتقوية

---

١٤١ سبأ: ١٥.

روحانيته. لأنه وإن لم يكن فرعون وأهله يعرفون موسى بعد، إلا أن الله تعالى كان يعرفه. ولا بد أن كل حياة مسلوبة من أحد هؤلاء كانت تعود إلى موسى. لأنه كان هو الغاية».

وعلى ذلك فكل حملة لفتح إسطنبول كانت تقوية روحانية للفتح المستقبلي المبين. أي كأن هناك تشابهاً قدرياً بين ظهور موسى عليه السلام وفتح إسطنبول.

وهناك أمر آخر؛ وهو لكي تكون الخدمة الشريفة التي قدرها الله تعالى لأحد من عباده ممكنة في الظاهر، لا بد أولاً من أن يتفضل على ذاك العبد بعامل الكفاءة والاستحقاق. فإذا نظرنا من هذا الجانب فإننا نجد بكل جلي أن الكمال الظاهري والباطني في شخصية الفاتح أحد أسباب تحقق الفتح. كما شوهد هذا الكمال والأهلية والاستحقاق في كل أفعال وتحركات الفاتح، فإنه ظهر أيضاً في أوقافه الكثيرة التي لا حصر لها. ونورد فيما يأتي أحدها:

وقف الفاتح

«أنا العبد العاجز السلطان محمد الفاتح، فاتح إسطنبول. أوقفت وقفاً صحيحاً بالشروط التالية:

عدد ١٣٦ حانوتاً معلومة الحدود، وواقعة في «طاشلق» بإسطنبول، كنت قد اشتريتها بمالي الخاص الذي اكتسبته من كدّ يميني وعرق جبيني؛ عينتُ شخصين على كل شارع في إسطنبول



بالمال الذي يتحصل من غير المنقولات المذكورة، على أن يتجول المذكوران في الشارع في أوقات معلومة من اليوم، ويكون في يد كل واحد وعاء فيه جص ورماد يضعان منه فوق البصاق على الأرض لإزالة أثره، وليأخذ كل واحد منهما ٢٠ آقجه يومياً. كما عينت ١٠ جراحين، و ١٠ أطباء، و ٣ مجبّرين، حيث يخرجون هم أيضاً إلى شوارع إسطنبول في الأوقات المحددة، ويطرقون كل الأبواب، ويسألون هل يوجد عندهم مريض أم لا، وإذا كان هناك مريض فليقوموا بتطبيبه، أو يذهبون به إلى دار العجزة مباشرة، دون انتظار أي مقابل.

وإذا حدث، لا قدر الله، أي أزمة في المواد الغذائية، فليتم إعطاء أهل الأرباب ١٠٠ سلاح تركتها لمواجهة هذا، وليخرجوا إلى غابات البلقان، وليصطادوا الحيوانات الوحشية في غير وقت التبييض والولادة، حتى لا يبقى فقراؤنا ومرضانا جوعى من غير طعام.

وليأكل فقراء إسطنبول وأسر الشهداء في المطعم الخيري الذي أسسته في كليتي، بشرط ألا يخرج المذكورون بأنفسهم للحصول على الطعام المذكور، بلُ يجلب الطعام إليهم في أوعية مغلفة تحت جنح الظلام دون أن يرى أي شخص الطعام وهو ذاهب إليهم!...».

C

كما يتبين مما تقدم فإن السلطان الفاتح يضع أدق وأرق معايير ومبادئ أدب التعامل مع أفراد المجتمع المحتاجين إلى



الرعاية والحماية. وإنه يتخذ تدابير دقيقة تجاه الأفعال المستهجنة والمكروهة التي نادراً ما كانت تحدث في عهده، مثل «البصق على الأرض». وبينما يأمر من جهة بتغذية المرضى بلحوم الحيوانات البرية عن طريق اصطيادها، فإنه من جهة أخرى يبدي حرصاً شديداً في مجال حماية توازن الطبيعة، فيمنع الصيد في فصول الحمل، ووضع البيض. فهو إلى جانب رحمته وشفقته بالأمة، يراعي حقوق الحيوانات ويحافظ عليها.

إن أخذ «توازن الطبيعة» و «تلوث البيئة» الذي جعل مستقبل العالم مظلماً اليوم بعين الاعتبار قبل ما يزيد عن خمسة قرون ونيفٍ لملفت للأنظار، وجدير بالتوقف.

وإن وضع الطعام في علب مغلفة وتوزيعها على عوائل الشهداء تحت جنح الظلام يُعد نموذج وفاء مثالي لا يُعلى عليه بشأن الحفاظ على كرامتهم وشرفهم وعزتهم. ويُعد في الوقت ذاته درساً في الأدب الرفيع لأجيال المستقبل.

يقول مولانا رحمه الله:

«سألت عقلي: ما الإيمان؟. فانحنى عقلي إلى أذن قلبي وهمس قائلاً : الإيمان هو الأدب...».

فكل هذه ومضات للنضوج والكمال الروحي، وللشخصية الإسلامية المنعكسة على الأمة. وأمثلة رقيقة، ومرهفة، وحساسة لطبيعة نظرة الإسلام إلى المخلوقات والإنسان. إنها ميراث



توجيهي، ونور يضيء الطريق لسائر البشرية. إنها الخصال العظيمة التي أضاعها الإنسان اليوم، وعجز عن تحصيلها بشتى السبل.

ما الذي جرى لنا اليوم؟ لقد أضعنا هويتنا وجوهر ذاتنا المتميز! فنحن نتخبط في محاولات واختلاجات البحث عنها!..

ينهي المرحوم الأستاذ نجيب فاضل كتابه «Ata Senfoni» بالجمل الآتية:

عاد مجاهد إلى قريته بعد سنوات طويلة من الفراق، فوجدها خراباً يسودها الصمت والوحشة. صادف في طريقه شيخاً كبيراً فسأله بدهشة وحيرة:

أيها الشيخ الجليل! لم تكن هذه القرية خراباً وموحشة هكذا من قبل. إنما كان فيها أناس طيبون، وجياد بغاية الجمال. فما الذي جرى لهم؟

فأجابه الشيخ قائلاً:

يا بني! لقد امتطى أولئك الناس الطيبون ظهور تلك الجياد الجميلة ورحلوا! ولم يعد أحد منهم أبداً!..

يا رب! لا تحرم أبناء الفاتح من أهل الحق الذين يحمونهم من عاديات الزمان!.. آمين!

E



العيد الحزين

«إن كان لك قلب، فطف حول كعبة قلبك!...».

«فقد فرض الله عليك الطواف بالكعبة المعروفة بشكلها وهيئتها، لتحصل قلباً مصفى ومطهراً من الأدران والسيئات».

مولانا جلال الدين الرومي



العيد الحزين

إن الخطأ وما تبعه من الألم والاضطراب والمعاناة يبدأ مع بداية خلق الإنسان. فقد زلت القدم بجدنا الأول سيدنا آدم عليه السلام بمقتضى المشيئة الإلهية. وبطرده من الجنة نتيجة لهذه الزلة وإرساله إلى الأرض ذاق الألم والاضطراب الأول.

لقد أمطر على الصلصال الذي خلق منه آدم عليه السلام تسعة وثلاثون سنة حزن، وسنة واحدة من السرور والفرح. فهيمنة الكدر والحزن قديمة ومتجذرة لهذه الدرجة.

تبدأ حياة الإنسان بألم واضطراب الأم، وبصراخه وبكائه. وفي نهاية المطاف ينزع ويُعرى من البدن ويقاد إلى رحلة أبدية. فالاضطراب مهيمن على قدومه ورحيله على حد سواء.

إذا ما نظر الإنسان إلى المسافة الزمنية الممتدة بين القدوم والرحيل بعين القلب فإنه يجد بأن الحياة مليئة بآلام، وخسارات، وأهواء وشهوات وأحوال مضطربة ليس لها حد. والحياة في نظر أصحاب الأرواح العظيمة الذين مزقوا حجب الغفلة، واطلعوا على حقائق العالم الذي جاؤوا إليه عبارة عن امتحان؛ وأما الموت فهو



ليلة الزفاف، أي أنه وصال. وقد أمضى مولانا الرومي رحمه الله حياته كلها وهو ينتظر بشوق عظيم لحظة الوصال هذه.

إن النجاحات النفسانية التي تتحقق في ساحة الحياة الفانية محكومة بالمحو والزوال مثل الألعاب والمجسمات والمنازل التي يصنعها الأطفال من الرمل على شاطئ البحر ثم يأتي عليها الموج فجأة فيمحوها ويحيلها إلى أثر بعد عين.

إن غاية خلق الإنسان هو معرفة ربه، والخضوع له بالعبودية، والسيطرة على نفسه والتحكم بها.

وبعض المؤثرات الفردية والاجتماعية في الحياة الدنيا تحرك المشاعر والأحاسيس النفسانية، وبعضها الآخر يحرك المشاعر الروحانية.

والأعياد تشحذ وتهيج مشاعر الشفقة، والرحمة، والوفاء، والإيثار لدى الإنسان الذي يتقلب بين الأحاسيس التي أشرنا إليها.

فتجعله يشعر بمتعته الشخصية، وبمتعة إسعاد الآخرين وإدخال السرور في قلوبهم على حد سواء.

إن الأعياد ليست فرحاً وسروراً فردياً، وإنما هي سرور معنوي للمجتمع كله، وتشارك لهذا الشعور، ودخول إلى القلب، وإحساس بالأخوة الإسلامية قلباً وقالباً.

يقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي:



«ما وسعني سمائي ولا أرضي؛ ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن» [142]

العيد هو محبة جميع المسلمين لمحبة الخالق، والشفقة بهم، والتعامل معهم برقة ولطف، وتقديم العون لهم.

يبدأ يوم العيد باحتضان المحزونين والمكروبين، والمحرومين، والمضطربين وإدخال السرور إلى قلبهم واكتسابها.

وبمقتضى الحديث الشريف فإن المعايدة الأولى ينبغي أن تبدأ مع الذين يرقدون تحت أشجار السرو الحزينة والكئيبة ممن سبقونا من إخواننا وأجدادنا الذين هم بأمس الحاجة إلى الاهتمام والمنتظرين للمساعدة والشفقة. فهذا الأمر يُذهب حسرة وحنين الأحياء مع الأموات، ويوحّد الحال بينهم. وتُعد قراءة الفاتحة وتقديم الصدقات أداء لدين الوفاء مع الذين سبقونا.

كان أجدادنا يجعلون المقابر في وسط المدن ليرى الناس عاقبتهم، ويعتبروا منها. وقد قال رسولنا الأكرم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم:

«تركت فيكم واعظين ناطقاً وصامتاً. فالناطق القرآن، والصامت الموت». [143]

---

١٤٢ العجلوني، كشف الخفاء، ٢، ١٩٥/ ٢٢٥٦.

١٤٣ محمد زكريا الكاندهلوي، فضائل الأعمال، ص، ٣٨٣، دار الأرقم، اسطنبول ١٩٩٧.



وحقيقة، فإن الإنسان الذي يدخل القبر كمن يسقط في مستنقع خطر، حيث ينتظر المدد والعون من يد تمتد إليه.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«ما الميت في قبره إلا يشبه الغريق المتهوب ينتظر دعوة من أب أو أم أو ولد أو صديق ثقة فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن الله ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الور أمثال الجبال وإن هدية الأحياء للأموات الاستغفار لهم والصدقة عنهم»[١٤٤]

إن الدنيا ديار غربة الروح ممتدة بين الأزل والأبد. والعيد يوم سرور تفضل الله به على عباده في عالم الغربة الممزوج بالسرور، والكدر والاضطراب والمعاناة.

إلا أن الأعياد الحقيقية تتحقق بالقرابين والأضاحي الحقيقية. فلما هم سيدنا إبراهيم عليه السلام بالتضحية بسيدنا إسماعيل عليه السلام بتسليم عظيم، أنزل الله تعالى كبشاً عظيماً وأهدى سيدنا إسماعيل عليه السلام لأبيه، وشكلت هذه الحادثة بداية الأعياد التي ستستمر إلى يوم القيامة.

وكذلك عندما يُقدم الشهداء الحقيقيون في المعارك، أي القرابين فلا بد أن يعقبه النصر حتماً.

---

١٤٤ الديلمي، الفردوس بمأثور الخطاب، بيروت ١٩٨٦، ٤، ١٠٣/ ٦٣٢٣؛ علي المتقي، ١٥، ٦٩٤/ ٤٢٧٨٣؛ ١٥، ٧٤٩/ ٤٢٩٧١.

إن العبد عبد لربه، ويستحيل أن يصير عبداً وأسيراً للعباد. وهذه حقيقة لا مرية فيها. فكما لا يمكن تصور ملاءمة القفص للأسد وقبوله به، فكذلك لا يمكن تصور الأسر والعبودية لغير الله بحق الإنسان المؤمن الصادق. فالمؤمن ليس بأسير حتى لو في حجرة زنزانة ضيقة بمفرده وغلت يداه ورجلاه بالسلاسل والأصفاد؛ وإنما هو حر أبي... لأنه تحت رعاية وضمان ربه سبحانه وتعالى. فلا يصبح أسيراً حتى ولو فصل رأسه عن جسده! لأنه خضع لربه ودان له وحده بالعبودية. والله ﷻ لا يأذن أن يقع من خضع له بالعبودية أسيراً في يد غيره! إنهم يصبحون أطول عمراً من جلاديهم. وربما يكرمهم الله تعالى بعمر معنوي أبدي. وهكذا، فإن «سلسلة الخالدين» سوف تستمر إلى يوم القيامة بمثل هؤلاء الذين لا يموتون معنوياً، ولتستمر بهذه السلسلة أيضاً صفحات التاريخ المشرقة والمشرفة.

إن مراحل وصفحات التاريخ الذهبية شاهدة على أن كبار الشخصيات المعنوية، والسائرون على طريق الحق سبحانه وتعالى لهم أعمار مستمرة إلى الأبد.

ولكن إذا لم تقدم قرابين حقيقية في المعارك، فلن يكون هناك نصر حتى وإن ماتت جنازات حية. وإنما ستكون النتيجة الخسران، والهزيمة، ودمار.



لما وصل السلطان مراد خان الأول إلى أسوار كوسوفو هبت عاصفة شديدة فكان الغبار يرتفع إلى عنان السماء، ولم يكن الجندي يبصر الجندي بجانبه. فصلى السلطان ركعتين، تم توجه إلى ربه داعياً ودموع الخشية والحزن تنهمر من عينيه، فقال:

«يا رب إن كانت تلك العاصفة قد هبت بذنوب عبدك العاجز هذا (مراد) فلا تعاقب جنودي الأبرياء بها!..

يا رب إنهم ما أتوا إلى هنا إلا من أجل إعلاء كلمتك وتبليغ الإسلام!..

يا رب! إنك لم تحرمني من النصر حتى الآن، ودائماً كنت تستجيب دعائي. وها أنا ألجأ إليك، وأتضرع على أعتابك الآن فتقبل دعائي! وأغثنا غيثاً تزول به عنا سحابةُ الغبار هذه، ونتمكن من رؤية جنود الكفار ونحاربهم وجهاً لوجه!..

إلهي! إن الملك لك، و هذا العبد لك، وأنا عبدك العاجز، وأنت تعلم ما أسر وما أعلن، وتعلم أن هدفي ليس المال أو الملك. بل هدفي هو رضاك فحسب!..

يا رب! لا تهزم تلك الفئة المؤمنة، وتهلكها على أيدي الكافرين!..

اللهم أكرمهم بنصر من عندك يكون عيداً عند كل المسلمين! وإن شئت جعلت عبدك العاجز مراداً هذا فداء وقرباناً في يوم العيد هذا!..



إلهي! لا تجعلني سبباً في هلاك جنودك المسلمين! اللهم أمدهم بمددك، وامنحهم النصر على أعدائك! وأنا أجعل روحي فداء لهم، يكفيني أن تقبلني في زمرة الشهداء!.. فأنا أرضى أن أسلم الروح من أجل جنود الإسلام والمؤمنين، فلتكن روحي قرباناً في سبيلهم. لقد جعلتني يا رب غازياً فتلطف بي وتقبلني بكرمك شهيداً!..آمين!...».

ولم تمض لحظات على هذه المناجاة حتى تلبدت السماء بغيوم الرحمة، وانهمرت أمطار غزيرة على ميدان كوسوفو. ثم توقفت العاصفة، وانقشع الغبار.

فالتقى الجيشان، وحمي وطيس المعركة. ولما اشتدت ضربات المسلمين على العدو بدأ جنوده بالتقهقر والانهزام. وتقبل الله تعالى دعاء السلطان مراد، حيث بعد تحقق النصر المؤزر للمسلمين نال الشهادة، وانتقل إلى جوار ربه.

كانت الكلمات الأخيرة للسلطان قبل استشهاده وتسليمه الروح لبارئها هي:

«لقد دعوت الله بأن يسقيني من كأس الشهادة إذا كان فيه نصر الإسلام، والحمد لله أنه استجاب دعائي، وجعل آخر حياتي أن رأيت نصر جنود الإسلام!..

أستودع الله إياكم ودولتي وجنودي المنصورين...».



وبعد تلك الكلمات تخضب نعشه المطهر بدماء الشهادة المباركة، وخرج السلطان في الرحلة الأبدية!..

تُعد كوسوفو اليوم ميراث السلطان مراد الأول الذي تركه لنا مقابل دمه المبارك الذي دفعه ثمناً لها. يذكر المرحوم عاكف بهذا الميراث بهذه الأبيات الجميلة، فيقول:

أينما أنظر يظهر أمامي هذا الوادي الدامي

هل أنت أم خيالك؟ أيتها ال «كوسوفو» عديمة الوفاء!

أين خطواتك التي كان في واحدة منها ألف فخر؟

أين الطريق الذي شق في صدرك وسار فيه «يلدرم»؟

أين الجندي، وأين الشهيد اللذان يرقدان في باطنك؟

آه أين أضحية النصر اليوم؟

وأين عظيم الشهداء الذي يرقد في قلبك؟

قل أيها المشهد! لأقبِّل ترابك وأسجد لله عليه.

ألا يوجد فيك قطرة أو قطرتان من دماء مراد؟

...

هل سيدوس حذاء الصرب على صدرك؟

...

إن صرب الأمس هم صرب اليوم ذاتهم، ولا فرق بين الاثنين سوى فرق الزمن.



أليس علينا اليوم ونحن الوارثون الطبيعيون لكوسوفا، للبو سنة إجراء محاسبة ذاتية وتاريخية لأنفسنا؟!

يقول مولانا جلال الدين رحمه الله في المثنوي:

«إن كان لك قلب، فطف حول كعبة قلبك!».

«فقد فرض الله عليك الطواف بالكعبة المعروفة بشكلها وهيئتها، لتحصل قلباً مصفى ومطهراً من الأدران والسيئات».

ويقول الشاعر الحزين يونس أمره:

إن القلب عرش الإله

ونظر الإله إلى القلب

فمن هدم القلب

فهو الشقي في الدارين.

ويقول في موضع آخر:

يقول يونس أمره أيها الشيخ

إن شئت اذهب إلى الحج ألف مرة

فأفضل حج منها

هو الدخول إلى قلب!

إن قلب ونبض المسلمين ينبغي أن يكون كقلب ونبض رجل واحد.



فلا يمكن الاقتراب من حقيقة العيد إلا بفرح وسرور التعاون والتضامن وتقديم العون والمساعدة. فالذين يوفقون لهذا الأمر يكونون من الذين تغلبوا على عائق النفس، ووصلوا إلى سعادة إظهار الجوهر الإنساني الحقيقي. حيث تُعد كافة تصرفاتنا العلوية مظهراً لتخلصنا من أغشية الغفلة المحيطة بأرواحنا. فمثل هذه الأعياد فرصة استثنائية ونادرة في تحقيق رفعة وسمو البشرية، الإنسانية جمعاء.

فما أسعد الذين يستثمرون هذه الفرصة بحقها، ويدركون حقيقة العيد!..

E



الألفة

«إن كنتَ ماء الورد، فمكانك الوجوه المنيرة والطاهرة. وأما إن كنت نجاسة، فأنت بلاء ومشكلة في كل مكان تحل فيه!.....».

«انظر إلى وجهات دكاكين بائعي العطور! إنهم يزينون ويجملون كل جنس بجنسه...».

«لقد أرسل الله الأنبياء وأنزل عليهم الكتب ليميز الأرواح الطاهرة الصادقة النقية، عن الأرواح الفاسدة السيئة النجسة».

«إن كان تفكيرك ورداً، فأنت أيضاً بستان ورود!..».

مولانا جلال الدين الرومي

إن الأضداد في هذا العالم تكمّل بعضها بعضاً لتشكل لوحة متعددة الأشكال والألوان. وتهيمن عليها صفات وخصائص كثيرة، وإحدى هذه الصفات هي الألفة والانسجام. وأي فساد وخلل ولو صغير في هذه الخاصية يؤدي إلى «الفوضى»؛ وأما الخلل على مستوى الكون فيؤدي إلى «القيامة»، قيام الساعة.

إن وجود تضادات وتناقضات وفروقات بين الكائنات الحية وغير الحية مقابل وجود صفات مشتركة بينها يعود إلى تقدير وتنظيم إلهي. عند النظر بهذه النظرة نجد بأن الأقطاب المتضادة في العالم الفيزيائي تنجذب إلى بعضها مثل الكهرباء، إلا أن عالم الأحياء يعرض لنا ماهية عكسية تماماً. أي أن الكائنات ذات الأرواح تريد التآلف مع أشباهها والتلاحم والتوحد معها، وليس مع أضدادها. وإن نزعة أو ميل التوحد المتولد عن كون الوجود من أصل واحد، يُعد مظهراً للانسياق والجريان نحو الوحدة في هذا العالم. إلا أن انجذاب الأضداد إلى بعضها في عالم الكائنات غير الحية، وبالمقابل ظهور حالة معاكسة لذلك في عالم الكائنات الحية نابع من دافع أو ميل الأنانية لدى الأحياء.



وفي الحقيقة؛ فإن إحدى أكثر النزعات أو الميول هيمنة لدى الكائن الحي ذي الروح هي الأنانية. وتوجد ذروة هذا الدافع في عالم الأحياء لدى الإنسان. لذا فإن أصعب وآخر شعور أو ميل نفسي يمكن أن يقضي عليه الإنسان الذي ينكب على تصفية الروح ويسلك طريق الوصول إلى الله هو شهوة أو طمع الرياسة والسياسة النابعة من الأنانية.

لدى تحليل الأنانية التي تبلغ ذروتها لدى الإنسان والمظاهر المرتبطة بها «المحبة، والكراهية» يتبين بأن كل إنسان يتوجه خلال حياته نحو المحبة بقدر أوجه التشابه، ونحو المعاداة والكراهية بقدر أوجه التناقض والتضاد. وهذا الأمر يشير إلى حقيقة «حب الإنسان لذاته فحسب». وإن افتتان الشخص بالآخرين بنسبة شبههم به يعود إلى الحقيقة التي بيناها. فسيدنا يعقوب عليه السلام شاهد في يوسف عليه السلام كينونته، وخصائص هذه الكينونة، فانجذبت روحه نحو يوسف عليه السلام من تلقاء ذاتها وبشكل لا إرادي. لأن التشابه يعد أحد الأسباب الرئيسية للمحبة بين الكائنات.

إن هذه الكيفية حاكمة ومهيمنة على الكائنات ذات الروح لدرجة يمكن مشاهدتها حتى بين الحيوانات، ولذلك فقد صارت مضرباً للمثل بين الناس، ومن ذلك: قالوا لبلبل: غرّد! فلم يغرد. فقالوا له مرة أخرى: غرد! فلم يغرد. فهددوه قائلين: سوف نحولك إلى قفص ذهبي؛ ولكن سنضع معك غراباً!..فبدأ البلبل يغرد.



فعلى الرغم من القفص الذهبي وإغرائه إلا أنه خاف من المعاناة التي سيتعرض لها بالتواجد مع غراب، لذا بدأ يغرد...

فمن خلال هذا المثل يعبر العوام من الناس بشكل بسيط وجميل عن الحقيقة التي أردنا بيانها في الأعلى بصورة معمقة وشاملة.

ولكننا نشاهد الأجمل من هذا في الحكاية الواردة في المثنوي. حيث يبين مولانا رحمه الله هذا السر الموجود في الفطرة بشكل تمثيلي من خلال الحكاية الآتية:

ذات يوم أمسك أحد الصيادين غزالاً، ووضعه في الحظيرة بلا رحمة. لقد حبس الغزال في حظيرة مليئة بالحمير والثيران كما يفعل الظلمة. فأخذ الغزال من خوفه واضطرابه يجري في الحظيرة من زاوية إلى زاوية. ولما جاء الليل وضع الصياد القش والتبن أمام حيواناته. فأقبلت الحمير والثيران تأكل التبن بشهية وكأنه أحلى من السكر. وأما الغزال فكان أحياناً يرتعد ويجفل فيهرب بعيداً، وأحياناً يشيح بوجهه من الدخان والغبار المتصاعد. وهكذا بقي الغزال ذلك الحيوان اللطيف الذي يفوح من بطنه رائحة المسك في محنة وعذاب داخل الحظيرة. فقال أحد الحمير لأصحابه ساخراً ومستهزئاً:

اصمتوا! إنه حيوان فيه طباع الملوك والأمراء!

وقال حمار آخر:

إذاً؛ ليمض هذا الحيوان بهذه الرقة التي فيه إلى عرش الملك وليتكئ عليه!



ودعاه حمار ثالث كان يراقب الوضع من بعيد إلى تناول التبن. فقال الغزال:

لا، إليك عني، فلا شهية لدي!

فرد عليه الحمار:

أعلم أنك تظهر الدلال!

فقال الغزال:لقد كنت أقفز طليقاً في البساتين والمروج الخضراء، وأتنزه على ضفاف جداول المياه العذبة البراقة. وأشاهد الآيات الإلهية. فإذا كان القضاء قد ألقى بي في العذاب، فمتى تمضي عني تلك الجبِلة، وهذه الحالة الروحية؟!. لقد كنت أرعى السنابل، والشقائق، والرياحين وأنا زاهد فيها، وأتقلب في الدلال. وكنت أشاهد بإعجاب انسجام وتوازن مظاهر القدرة الإلهية الكامنة في الطبيعة. فعندما نستغرق إعجاباً وإكباراً، وتمتلئ عيوننا وقلوبنا بالدمع ونحن نتأمل على ضفاف الماء يصطادنا الصيادون...

فأجابه الحمار:

قل ما شئت... فمن السهل الكذب في الغربة والادعاء بلا دليل.

فرد عليه الغزال:

«إن نافجة المسك التي في بطني شاهدة على قولي. فإنها تنشر رائحة العود والعنبر. وأما حالكم فظاهر للعيان. ولا ريب أن كلماتي تبدو كذباً بالنسبة لكم. فقد صرت بينكم غريباً، عاجزاً، ضعيفاً...».



يقدم مولانا رحمه الله الحوادث والحقائق المجردة التي يصعب على الفكر البشري فهمها وإدراكها من خلال حكايات بسيطة وتشخيصية. فمن أجل بيان استحالة امتزاج وتآلف الأضداد مع بعضها أعطى في هذه الحكاية مثالاً من الحيوانات المتباينة والمتضادة من حيث طبيعة خلقتها.

تُعد الغزلان من أكثر الحيوانات رقة وحساسية من ناحية طعامها، وشرابها، وتنفسها، وبنيتها، وأحاسيسها، وطبيعتها الجميلة. فيجلس الصيادون بين المروج على ضفاف جداول المياه الرقراقة ويعزفون على الناي بحالة من الشاعرية. فتجذب تلك النغمات الشاعرية المنبعثة من الناي الغزلان المتواجدة في الأنحاء، وتأتي لتتجمع حول الصياد. وفي اللحظات التي تفيض أعينها وقلوبها بالدموع يطبق عليها الصيادون الظلمة بشراكهم دون رحمة، ويصطادونها. فيحكمون بالموت على تلك الحيوانات الرقيقة ذات المشاعر الحساسة والمرهفة بسبب عطر المسك الذي يستخرج من بطونها، وبسبب جلودها، ولحمها.

وأما الحمير والثيران فهي حيوانات تعيش حياة نفسانية بأصواتها المنكرة القبيحة، ومشاعرها وطباعها الجلفة والخشنة.

وبعد بيان مولانا رحمه الله في حكايته الاضطراب والمعاناة التي تنتج عن اجتماع الأضداد من خلال المثال المذكور، يعبر عن ألم التضاد في أبيات تحوي على الكثير من الحكم:



«كل ما وضع مع ضده في مكان واحد؛ فإنه عذاب له مساو للموت».

«وإن القريب من الحق سبحانه يعاني من العذاب بسبب وجوده في هذا الجسد. لأن طائر روحه قد وضع مع النفس التي هي من غير جنسه».

«إن الروح مثل طائر البلبل بين الطيور. وأما النفس فهي الغراب. وإن البلبل يُفترس من الغربان وطيور البومة. لذا فإنه يشعر بالمعاناة والاضطراب إذا ما وضع معهم في مكان واحد».

«إن طائر البلبل يئنّ وينوح بين غربان النفس المستكبرة، وبومة النفس ذات النظرة الصفراوية».

C

ورد في القرآن الكريم:

﴿...**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي**...﴾[145]

فالروح آتية من ربها سبحانه وتعالى إلى قفص البدن هذا. وكيفية المجيء مجهولة على البشر، ولا يحيط بها إدراكهم. وهناك شوق وحنين وميل في الشعور الباطني لدى الإنسان نحو العالم الذي جاء منه. فالروح ليست حرة. وإنما محبوسة في سجن البدن. فهي في الدنيا تتقلب في معاناة واضطراب الغربة عن عالم الأرواح

١٤٥ الحجر: ٢٩.



الذي جاءت منه. وهذه الغربة والاضطراب والمعاناة سوف تستمر قائمة حتى تحقق الوصل إلى الله. وإنها في مواجهة وصراع مع عائق النفس حتى تلك اللحظة. وما الأولاد، والأموال، والمقامات، والمناصب، والجاه، وتوجيهها وفق رغبات وأهواء النفس إلا عبارة عن ملهيات الدنيا الخادعة. إذ يبني الإنسان لنفسه بميوله وأهوائه النفسية عالماً خيالياً، ويلهو به. ثم يقضي عمره بشتى ألوان القلق، والوساوس، والهواجس.

إن حال الروح في البدن الذي يتحرك وفق هوى النفس كحال الغزال بين الحمير والثيران تماماً. فكما أن الغزال غريب بين الغرباء عنه، فكذلك الروح غريبة في الجسد، فهي في غربة وامتحان طيلة الأيام العصيبة التي تقضيها في الجسد.

إن إيثار الروح يضيق ذرعاً بأنانية النفس. وإن هذان المتناقضان يجعل الجوانب المادية الحياتية والجوانب الروحية في عالم الإنسان بحالة صراع مستمر مع بعضها، وهذا الأمر مشترك بين الجميع.

وإذا ما نظرنا إلى هذه الحكاية من زاوية قلبية أخرى، فإننا نجد الأشخاص الكاملين المتمتعين بطبيعة رقيقة وسامية يعانون أمام الجهلة والحمقى والسفهاء من اضطراب وألم أشد من عذاب الموت.

وأكثر من تعرض لهذه المعاناة والاضطراب هم الأنبياء والرسل، الذين ساروا على دربهم ونهجهم من بعدهم. وكثيراً ما يعيشون حالة من الغربة والوحدة بين الناس المحيطين به.



فقد أُلقي بسيدنا إبراهيم عليه السلام الذي رفع راية التوحيد في وجه الوثنيين، وعبّاد الأصنام، ألقي به في النار. وعانى سيدنا يوسف عليه السلام من وحدة عظيمة وموحشة حتى وهو قائم بين إخوته، ثم تعرض للافتراء خارج وطنه ومملكته ليُجبر على تذوق مرارة الغربة مدة من الزمن في الزنازين. وتخلّى بنو إسرائيل عن سيدنا موسى عليه السلام وتركوه وحيداً في مواجهة قوم من الطغاة والمتجبرين، وقالوا له:

﴿... فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[١٤٦]

وكذلك فإن النبي المظلوم سيدنا زكريا عليه السلام شُق إلى نصفين بالمنشار من قبل قوم بني إسرائيل الطغاة الظلمة، وغدروا كذلك بابنه سيدنا يحيى عليه السلام وقتلوه. وحوكم سيدنا المسيح عيسى عليه السلام مع اللصوص والأشقياء. وأما فخر الكائنات الأبدي سيدنا محمد المصطفى عليه الصلاة والسلام فقد رُجم بالحجارة من قبل أشقياء وحمقى الطائف. وهناك الكثير والكثير من الأمثلة الأخرى.

وأبدى هؤلاء تحمّلاً وجلداً عظيماً بالصبر الذي أوتوه من الرب سبحانه وتعالى، فنالوا المقامات العالية والدرجات الرفيعة. وأحياناً أحاط الحق سبحانه وتعالى الصالحين بحفظه ورعايته وقاية لهم من الظلمة والطغاة.

---

١٤٦ المائدة: ٢٤.



فلأن أصحاب الكهف كانوا صالحين في مجتمع منحرف ضال فقد أخذهم الله في حفظه ورعايته، فأنامهم في الكهف، ووقاهم من شرور الظالمين. لأن النوم بين الغافلين أولى وأحب. لذلك لم يوقظ أهل الكهف حتى جاء قوم صالح.

يشبه مولانا الرومي رحمه الله العارفين بالبلابل، ويبين أن تآلفهم وتجانسهم مع أصحاب الروح الفاسدة غير ممكنة على الإطلاق، فيقول:

«إن مُقام البلابل المروج، والأشجار الخضراء، والبساتين. وأما الوطن الأصلي لحشرات الرواسب فهو مواضع النجاسة والعفن».

إن بين الأجناس والأوساط التي تقيم فيها جاذبية دائمة. فالبلبل يهوى المروج والمراعي الخضراء، وجداول الماء التي تصدر بتدفقها صدى كالموسيقى؛ وأما حشرات الرواسب فإنها بفطرتها وغريزتها تهوى النجاسات، أي تستمتع بالفواحش، والفساد، والنفاق. ويعبر عن هذه الحالة بلسان حال برعم الورد الجميل وهو يخاطب الحشرة:

«يا حشرة النجاسة والقذارة! أتهربين من بستان الورود! أما تعلمين أن هروبك ونفورك منه دليل على كمال البستان!..».

إن هذه الفوارق نتيجة للموازنة الإلهية بين الخير والشر. فالسادة أهل الله يصنفون توازن الجاذبية الذي بين الأجناس



كعشق وأنس وتآلف أزلي، ثم يسعون جاهدين لإعادة الإنسان الذي خلق مكرماً في أحسن تقويم ثم هوى إلى أسفل سافلين، إلى توازنه الأصلي.

لا يمكن في هذه الدنيا المليئة بشتى ألوان الآلام، والمعاناة، والاضطراب، والكدورات، العثور على سعادة التوفيق في إيجاد أبواب الأبدية إلا بملازمة الصالحين من أهل العرفان والكمال. فهكذا ينكشف استعداد الروح التي تعود إلى العالم الأبدي، وتخلص ذاته من معاناة واضطراب النفس التي تعود إلى عالم الفناء. ولهذا يُعد من الضروري حفظ القلب وإبعاده عن مجالس الغافلين.

يقول مولانا رحمه الله في معرض بيانه لهذه الحقيقة:

«إن الطائر لا يطير إلا مع جنسه. ولقاؤه مع غير بني جنسه كأنه دخول إلى القبر».

«وطالما أن كل جنس ينجذب إلى جنسه، فكيف لغزال لطيف رقيق أن يعيش بين الحمير والثيران؟»

إن كل حالات التلاقي والمعية تتحقق في إطار المفاهيم والأفكار المشتركة للعوالم المشتركة. فالذين يعيشون في عوالم متناقضة ومتضادة لبعضها، حتى وإن تلاقوا في مكان بشكل اضطراري فإنهم يتقلبون في معاناة واضطراب أشد حتى من الموت.



فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ...﴾[١٤٧]

يشير الإمام الغزالي لبيان هذه الحقيقة إلى أن العدوى لا تقتصر على الأمراض، والجراثيم والمكروبات، وإنما تشمل الأحوال، والأخلاق، والطباع أيضاً، فالذين يصاحبون الطيبين تنعكس عليهم أحوالهم وطباعهم الطيبة، والذين يلازمون السيئين والخبيثين تنعكس عليهم طباعهم وخصالهم الخبيثة والسيئة.

فقد ورد في الحديث النبوي الشريف:

«إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير. فحامل المسك، إما أن يُحذيَك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً خبيثة»[١٤٨]

وإن المثل الدارج على ألسنة العامة:

«من ينام بين العميان يستيقظ أحولاً» يعبر بشكل دقيق عن هذه الحقيقة. لأن الطباع النشطة تحمل خاصية العدوى.

١٤٧ النور: ٢٦.

١٤٨ البخاري، البيوع، ٣٨؛ مسلم، البر، ١٤٦/ ٢٦٢٨.

يا رب! ارزقنا في هذه الدنيا صحبة عبادك الصالحين ممن يمتلكون خزائن الحكم والأسرار! واحشرنا معهم نحن عبيدك الضعفاء يوم الدين!.. آمين!.

E



فقدنا أما!

«كن حذراً ويقظاً بحق الأم! واحملها على الرأس دوماً! فلولا آلام المخاض والولادة التي تحملتها الأمهات، لما وجد الصغار طريقهم إلى الدنيا...».

مولانا جلال الدين الرومي

فقدنا أماً!

إن الصفة المشتركة في بداية الكائنات الحية هي مجيئها إلى الدنيا ضعيفة عاجزة. ولهذا السبب فإنها بأمس الحاجة إلى الرحمة والشفقة للخروج من هذا العجز والسير على طريق البلوغ والنضوج والقوة. فحال كافة الكائنات الحية هي ذاتها ابتداءً من فسيلة الشجر وانتهاء بوليد الإنسان.

إن الشفقة والرحمة تتجلى بأبهى وأجمل صورها في قلوب الأمهات. وإن خاصية الأمومة لدى الإنسان تمتاز بأفضلية وتفوق فريد لدرجة لا يمكن مقارنتها مع مفهوم الأمومة لدى أي من المخلوقات الأخرى. لأن وليد الإنسان لا يجد في الأم الغذاء لوجوده المادي فحسب، وإنما في الوقت ذاته يجد فيها الغذاء المعنوي الذي سيقدم لروحه. فالأم البشرية، هي تلك الأم التي تلد الإنسان المجهز باستعداد ليكون أقرب الكائنات إلى ربها ﷻ. فكل كائن بشري اعتباراً من الأنبياء والرسل وحتى أكثر الأفراد عجزاً وضعفاً يتلقى غذاءه الأول من الأم، سواء الغذاء المادي أو الروحي. والأمهات هن الكائنات التي نالت أكبر نصيب من الرحمة الإلهية للخالق ﷻ.

ومع ذلك فإن مفهوم الأمومة مثل نظارة لا رقم لها وحدها. فالعقرب التي تحمل صغارها على ظهرها أم، والأم المنعدمة



الوجدان والضمير التي تأخذ صغيرها التي ولدته وتلقيه في زاوية من الحديقة لأي دافع كان أيضاً أم؛ وكذلك التي تحيط ولدها المصاب بإعاقة جسدية أو عقلية منذ ولادته بالرعاية والرحمة والشفقة، وتتألم لألمه، وتضطرب لاضطرابه طيلة حياته أم أيضاً!

إن ملك سعادة النساء يبدأ من اللحظة التي تصبح فيها أماً فاضلة. ويُعد الحديث النبوي الآتي أعظم شهادة محمدية بحق الأمهات، حيث يقول رسول الله ﷺ:

«**الجنة تحت أقدام الأمهات!..**»[١٤٩]

لقد قدم فخر الكائنات ﷺ، والعارفون وأهل الله أعظم وأرقى الأمثلة على احترام وبر الوالدين، وعلى الأخص بشأن الأم.

كان فخر الكائنات عليه الصلاة والسلام يزور أمه في الرضاعة السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها، فيفرش لها رداءه على الأرض، ويجلسها عليه. وكان عليه الصلاة والسلام إذا خرجت مرضعته من الحجرة ثم دخلت يقف على قدميه احتراماً لها، وتعظيماً لشأنها.

وقدم الإمام الأعظم والولي الكبير أبو حنيفة مثالاً رفيعاً لا يُجارى في محبة الأم، إذ عندما كان يتلقى في زنازين بغداد سياط الظلم على جسده الطاهر، كان يقول:

١٤٩ أحمد، مسند، جـ ٣، ٤٢٩؛ النسائي، الجهاد، ٦.



«إياكم أن تسمع أمي بحالي؛ فإنها ستنهار إن علمت! ولا طاقة لي لتحمل حزنها ودمعها!..».

يضع الشيخ شاه نقشبند محمد بهاء الدين البخاري الذي يُعد من المرشدين الأجلاء السائرين على طريق المعنويات، يضع أمام أعيننا نصيحة، وحقيقة إلهية تحمل صفة وصية. حيث يقول الشيخ:

«إذا جاء أحد لزيارة قبري، فليزر قبر أمي أولاً!».

فالذين يذهبون اليوم لزيارة قبر شاه نقشبند يتوجهون أولاً لزيارة قبر أمه.

قال الشيخ عبد الرحمن الجامي رحمه الله:

«كيف لا أحب أمي وهي التي ضمتني في بطنها مدة، ثم في حضنها زمناً طويلاً، ثم حملت في صميم قلبها الشفقة والرحمة بي حتى مماتها. لا أعلم شيئاً في الدنيا أخبث وأسوأ وأشنع من عقوقها والتقصير في برّها!..».

من الحقائق التي لا ريب فيها هي ضرورة احتلال الأمهات الفاضلات مكانةً متميزةً وفريدةً ومتجذرةً من الاحترام، والتبجيل، والبر، والمحبة العميقة في القلوب!.

إن جوهر الفضيلة والصبر الذي يداوي تعب الآباء ويزيله، ويذيب تنهدات وشهقات الأطفال المرهقة والمضجرة هو قلب الأم لا غير.

إن الأم هي حضن الرحمة الموسع بقدرة إلهية.



إن مناخ السعادة في المنازل والبيوت يبدأ بابتسامة الأم. وتزول مختلف مشاكل ومصاعب وكربات البيوتات بنظرات الشفقة من عينيها. هل هناك مكان أفضل وأرق، وأجمل، وأحن وألطف من قلب الأم لتنبعث منه نغمات ونفحات السعادة والحياة على الأطفال؟!..

هل هناك مقياس يمكن أن يحدد حدود الشفقة الواسعة المتراكمة في روح أمٍّ من الأمهات؟

هل نمتلك طاقة على أداء حقوق الأمهات والآباء الذين أطعمونا ولم يَطعَموا... وألبسونا ولم يلبسوا... ونومونا ولم يناموا... وجعلوا حياتهم ووجودهم وقفاً كي لا تصيبنا ولو ذرة من غبار عواصف الحياة؟!.

لقد فقدنا أمّاً...

أمّاً تمثل قمة الشفقة، والرحمة، والحنان، والرأفة، والعفة، والأدب، والصدق، والإخلاص، والسخاء والكرم، والتفكير، والحساسية!..

أمّاً بلغت الذروة بالتواضع وخفض الجناح وانكسار القلب، والصبر على الشدائد بالرغم من أنها بدأت حياتها في عائلة ثرية!..

أمّاً استطاعت إكمال حفظ القرآن الكريم دون إهمال تربية أبنائها وتلبية احتياجاتهم، ودون التقصير بحق زوجها والوفاء بحقوقه فصارت حافظة وتمثالاً في البذل والعطاء والمجاهدة!..



أمّاً استطاعت الحفاظ على رباطة جأشها، وتحمّلت أخطاء من حولها وعاملتهم بتسامحٍ ولطفٍ بالرغم من حرصها الشديد على أمور النظافة والنظام في المنزل!..

أمّاً لم تقصر يوماً في أداء واجباتها الدينية منذ نعومة أظفارها داخل مجتمع مارقٍ يشهد حالة استخفافٍ وحتى احتقار واستهزاء بالنظام الإسلامي ومبادئه الرفيعة السامية!..

أمّاً تمتلك غريزة وميلاً لاحتضان كافة المخلوقات بدعائها، وقلقها، وشجوها، وإشفاقها، وتشمل شفقتها ورحمتها التي يشكل مركزُ ثقلها الوليدُ الذي في حضنها كلَّ العاجزين والضعفاء ممن تراهم ولا تراهم عيناها!..

كانت متوازنة في عنايتها ورعايتها، وفي تنبيهها وتحذيرها. لم تكن تتردد عن قول الحق حتى لأقرب الناس إليها. كان ظاهرها وباطنها متطابقان. لم تكن تأبه لكلام أحدٍ بحقها لأنها كانت واثقة من إخلاصها وصدقها. كانت تحب المروءة والسخاء. ولم تكن تعرف ما الاستياء والهجر.

كان إدخال الفرح والسرور إلى قلوب اليتامى، والمحرومين، والمشردين، والمحتاجين مصدراً لطمأنينتها وسكينتها وسلامها الداخلي. كان تحضير الهدايا المقدمة إليها وإعطائها للفتيات المقبلات على الزواج متعتها، ونشوتها.

إنها كانت أمّاً تنفر من البخل والشح، وتطمح لإكرام الجميع من قصر قلبها!



كانت صحبتها ومجالسها تمتلئ بالفيوض. كانت تعرف عز المعرفة كيفية النزول إلى مستوى الأطفال في مجالسها معهم، وتشرح لهم أحاديث رسول الله ﷺ بما يتماشى مع مداركهم بأجمل أسلوب. كانت قد جمعت في ذاتها جمال الإسلام الشكلي والروحي. وكانت هذه الحالة انعكاساً عليها من محبتها لرسول الله، ولأولياء الله الصالحين. كانت تعابير الرقة، واللطافة، والابتسامة المفعمة بالحياة التي ترتسم على محياها عند الحديث عن مناقبهم وعوالمهم الروحية، وحبال المحبة التي لا تنقطع منها تجاه من حولها، وجلدها وتحمّلها الذي لا ينقطع، ورهافتها ومشاعرها العميقة والرقيقة الخاصة بالمؤمن الحقيقي نموذجاً وقدوة في المجالس. إنها كانت الأم التي تمتلك المهارة والقدرة على مخاطبة مختلف المستويات العمرية بما يلائمها وينسجم معها!..

كانت حياتها ومجالسها وأحاديثها تشبه باقة مؤلفة من أظرف وأرق وألطف الأزهار، ومن القلوب التي تنبعث منها رائحة المسك والعنبر. كان يمكن العثور فيها على أجمل الأزهار، وأطيب الروائح.

عندما كنت أحدثها عن البعث بعد الموت، كانت تقول لي:

«لا تخفني! فربي رحيم!..».

ربما كانت هذه الحالة قد سرَت إليها من محبتها لمولانا جلال الدين. إذ كانت تستأنس كثيراً بحكايات المثنوي وينشرح لها صدرها. وهي من الذين غرسوا في قلبي البذور الأولى لمحبتي



لمولانا، والميل نحو الأولياء ومحبتهم. وهي كانت من أكثر القراء رغبة باللوحات التي اقتطفتها من بستان المثنوي! كانت تقرأها بلذة ونشوة بالغة. إلا أنها لما قرأت ما كتبته تحت عنوان «الكذب الذي في المرآة»، غاصت في تفكير طويل، وتأوهت من أعماقها، وقال: كم صحيح هذا!

ثم قالت بعد مدة: اقرأ علي ما كتبت مرة أخرى!..

لقد صار فراقها ورحيلها عن الدنيا بالنسبة لنا مثالاً جديداً وحياً عما كتبته بعنوان «الكذب الذي في المرآة». والحاصل؛ إن الإنسان سوف يبقى متأرجحاً ومتقلباً داخل «الكذب الذي في المرآة»، ابتداء من أبينا آدم عليه السلام وحتى يوم القيامة!..

يصور الشاعر ضيا باشا رحلة ومغامرة هذه الحياة بشكل جميل بقوله:

«لا صفاء في ذهب وفضة هذا الزمان والمكان الفاني. فالإنسان في رحلته إلى العالم الأبدي يدع كل هذا وراءه، ويخرج في سفره وحيداً!».

C

وفي النهاية ودعناها وهي في بياضها على المغسل!.. لقد صار الكفن عليها وكأنه القماط الملفوف على طفل بريء. لقد غاصت في روحانية القرآن الكريم الذي لم ينزل من يدها، ولا من قلبها مدى الحياة؛ كانت تضيء ما حولها!. كانت تحب البياض كثيراً.



وأما البياض الذي هي فيه الآن كان بياضاً مختلفاً. كأنه كان لها ابتسامة وصال العقبى!.. وكانت تقول داخل البياض لمن بقي وراءها: سلاماً!..

كانت تلك أمي التي شيعناها إلى الرحمة الإلهية بتاريخ ٤/ ٣/ ١٩٩٧. كانت أمي! كانت أمنا جميعاً التي أحست بأفراح وأتراح جميع المؤمنين بما فيهم أنا العبد الفقير!..

يا رب! إنها ساهمت مع أبي في تربيتي منذ صغري، وعرّفاني عليك، وأرشداني إلى طريقك، وحببا إلي أولياءك، فأكرم أبي بلطفك وجودك عمراً طويلاً ملؤه العبادة، والإرشاد والعمل الصالح؛ وتغمد أمي التي ودعناها برحمتك!..

واجعل يا رب إخوتي الذين يقرؤون هذا الكتاب من عبادك الصالحين الذين استضاءت قلوبهم بالنور الإلهي، ونالوا نصيباً من بحر المعرفة، وصاروا مظهراً لتجليات لطفك وكرمك! يا أرحم الرحمن، وأكرم الأكرمين!.. آمين!

أتوجه بالرجاء الحار إلى كافة المؤمنين الذين يعرفونها، أو الذين سيتعرفون إليها من خلال هذه السطور العاجزة ليتكرموا بقراءة الفاتحة على روحها الطاهرة والدعاء لها!..

E

المحتويات



E